الدكتور مختار حساني

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الأول

الأحوال السياسية

منشورات الحضارة

الدكتور مختار حساني

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الأول

الأحوال السياسية

منشورات الحضارة

المقدمة

تعتبر الدولة الزيانية من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون 1232- 1562. وقد مرت بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا لمرحلة هامة من حياة هذه الدولة، هو وأخيه يحي ابن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد..

وتميزت هذه المرحلة بحروب متواصلة مع القوى الخارجية التي كانت تعمل من أجل السيطرة على أراضيها،لأهميتها من الناحية الاقتصادية،اذ تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول التي أعطت أهمية كبيرة للتجارة الداخلية والخارجية مع محيطها (البحر المتوسط، السودان الغربي والمشرق العربي) فالوثائق التي تحصّلنا عليها في دور الارشيف بالدول الغربية،وكذلك ما بقي من التراث المخطوط الذي يعود لعصر هذه الدولة يؤكد عظمتها في هذا الميدان.

أما في الجانب الثقافي فكانت عاصمتها تلمسان من بين المراكز الهامة. حيث كان لعلمائها أثر كبير في الحواضر الاسلامية في بلاد المشرق وبلاد المغرب الاسلامي. فالتراجم المتوفرة لدينا تؤكد هذا الدور الهام الذي قام به علماء الدولة الزيانية ونذكر منهم على الخصوص. أبو زكريا يحي المغيلي المزوني الذي ألف الدرر

المكنونة في نوازل مازونه وتعرض فيه إلى الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة من النوازل لعلماء الجزائر، وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، رجل الاصلاح في عصره...

وهذا العمل الذي نقدمه للمكتبة الجزائرية يعد مرآة صادقة لاحوال هذه الدولة انطلاقا من دراسة تاريخية اقتصادية، اجتماعية وسياسية.

د. مختار حساني

برج الكيفان في 8. 10. 2007

الفصل الأول



مراحــل الدولــة

- المرحلة الأولى:

- يغمراسن بن زيان:

بدأ يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة حياته السياسية بالارتباط بالخلافة الموحدية بمراكش[1]، ثم انفصل عنها أيام الرشيد عبد الواحد بن إدريس، الذي حاول أن يبقي يغمراسن[2] تابعا لدولته فأرسل هدية للمحافظة على بقاء الخطبة للموحدين.

كما واجه الدولة الحفصية التي كان سلطانها أبو زكريا يطمح إلى إعادة توحيد المغرب، تحت ظل دولته مما جعله يتقدم سنة640 /242[3] إلى تلمسان، لإخضاع سلطانها يغمراسن، وعندما رأى أنه لا يستطيع المواجهة انتقل إلى جبال بني ورنيد[4] لقيادة المقاومة ورأى أبو زكريا بأنه لا يستطيع التخلص منه وأنه بمجرد عودته سيتمكن من استعادة عاصمة دولته، لذلك فكر في أن يتقرب منه، ويتحالف معه ضد الدولة الموحدية، فقبل منه يغمراسن، ذلك وعند عودته

1- التنسي، نظم الدر و العقيان ، تحقيق بوعياد ، للحصول على رسالة الدكتوراة ، الحلقة III ، جامعة الجزائر، 1975 ، طبعت 1985 ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 117.

2- تولى يغمراسن بن زيان الحكم من سنة 633 - 681 هـ ، 1236 - 1283 م . انظر ابن تاريت الطنجي ، التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا ، لجنة التآليف والنشر،القاهرة 1951 ، ص 152.

3- عن هجوم أبي زكريا الحفصي على تلمسان سنة 640 هـ 1242 انظر ابن خلدون ، العبر، ج7 ، ص165، يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 113.

4- ورنيد:نسبة لبطن من بطون زناتة و مازال بنو رنيد قاطنين بذلك الجبل جنوب تلمسان . انظر العبر ، ج7، ص 166

اتصل بشيوخ بني توجين ومغراوة محاولا أن يكون شيوخ القبيلتين أندادا ليغمراسن وقلاعا محصنة تحول دون توسعه نحو الشرق.

لكن هذه السياسة واجهها يغمراسن بعنف وتمكن من القضاء على نفوذ هؤلاء الشيوخ وضمن ولائهم لدولته، كما وقف ضد الموحدين واستطاع أن ينتصر عليهم بتمزيردكت[1] حيث سقط الخليفة الموحدي السعيد في المعركة[2]، أما ما يتعلق بالدولة المرينية، فإنه لم يتمكن الإقتصار عليها لعدم تكافؤ القوة بين الطرفين، وانعدام الوحدة بالمغرب الأوسط، لكثرة ثورات القبائل، وقبل وفاته أوصى[3] بتوجيه إمكانياتهم نحو الشرق والعدول عن المرينين.

- أبو سعيد عثمان بن يغمراسن 681-703هـ/1283-1303[4]

عرف عهده بكثرة الثورات من قبل القبائل البربرية المعارضة للدولة الزيانية أمثال بنو توجين بقيادة آل عبد القوي، إذ تمكن من انتزاع جبل الونشريس وما حولها حتى المدية من أيديهم.

كما استولى على مضارب مغراوة مثل مازونة وتنس وبرشك، ودفع بهم الى الاعتصام بجبل الظهرة، وبذلك استطاع أن يمد نفوذ الدولة إلى كل الأراضي التابعة للدولة في عهد يغمراسن، لكن الدولة المرينية لم تترك له الفرصة فقاد أميرها يعقوب المنصور حملة كبيرة للاستيلاء على عاصمة

1- قلعة بجبل مجاورة لوجدة بالناحية الجنوبية منها عنها انظر LVOI MOT aujda et la molat p 243 et 256 calanel GSAMUEL line Eniz me le jebel in bulletin de societé d,histoir du marmol n0 4-5- 1972-73 p 21-36.

2- ابن خلدون ، العبر ، مجلد7 ، ص19 . و المعركة وقعت سنة 745هـ، 1344-1345.

3- نفسه، مجلد7 ، ص 149، انظر أيضا عطاء الله دهينة، وصية يغمراسن ، مقال بمجلة تاريخ و حضارة المغرب ، ع7 ، جويلية 1969 ، ص ص 19-22.

4- ابن خلدون، العبر، مجلد 7، ص 204. يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1 ، ص 208.

الدولة، لكن تلمسان لم تفتح أبوابها للمهاجمين فحوصرت من جميع الجهات واستمر الحصار عليها أكثر من ثماني سنوات.
ويقال أنه توفي خلال ذلك الحصار وتولى بعده ابنه أبو زيان محمد 703-707هـ/1303-1308م.

حكم هذا السلطان الدولة في ظروف مأساوية للغاية، ذلك أن الدولة الزيانية فقدت أغلب أملاكها باستقلال قبائلها أو تعاونها مع القوة المرينية، ويقال أنه توفي بعد الحصار مباشرة وتولى الحكم بعدهالسلطان أبو حمه موسى الأول.

- أبو حمو موسى الأول 707-718هـ/1308-1318م[1]

تميز عهد هذا السلطان بما يلي:

- **أولا:** إصلاح ما تهدم خلال الحصار المريني، وتوفير المؤونة داخل تلمسان.
- **ثانيا:** استعادة الأراضي التي فقدتها الدولة، واستولت عليها القبائل، التي أغتنمت فرصة الصراع فأعلنت انفصالها عن الدولة. وقد علّق على ذلك التنسي فقال: « أقام عمود الملك بعدما أشرف على الهلاك، فقارع الثوار، واقتحم الأنجاد والأغوار».

ومن أبرز القبائل التي تم القضاء على ثورتها بني توجين، ومغراوة[2] ألدّ أعداء الدولة الزيانية، منذ عهد يغمراسن بن زيان، ثم واجه الدولة الحفصية، محاولا الاستيلاء على إمارة بجاية، وذلك تطبيقا لسياسة يغمراسن، الذي حثّ حلفاؤه على التوسع على حساب بني حفص.

1- ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 195.
2- نفسه ، مجا 7 ، ص 203 - 215 .

إذ كان طموح أبوعثمان بن يغمراسن قد وجّه من قبل الزناتيون فان السلطان اباحمو وجد معارضة من ابنه أبي تاشفين الذي تخلص من أبيه بمساعدة الأعلاج، المقربين إليه، كما قتل موظفي دولته، ومن أبرز هؤلاء أسرة بني الملاح الأندلسيين[1].

- عبد الرحمن أبوتاشفين 718-737 هـ/1318-1337[2].

اعتبر من أقوى أمراء الدولة، بعد يغمراسن بن زيان، فقد استطاع أن يقمع الثورات، التي عرفتها الدولة، وعلى الخصوص المغراويين الذين كانوا يطمحون في إقامة دولة لهم، فاستولى على مضاربهم ومدّ نفوذه، على حساب الدولة الحفصية، ولو لا سوء التفاهم، بين قادته لاستطاع أن يضم أراضي الدولة الحفصية إلى إمارته[3].

عرفت تلمسان في عصره ازدهارا في جميع الميادين، الثقافية، والاقتصادية، والإجتماعية، كما قام بحركة عمرانية داخل تلمسان، وخارجها، وشيّد مدرسة استمر وجودها حتى الاحتلال الفرنسي, وقد قدّم لنا الأب برجيس وصفا للمدرسة التي عرفت بالمدرسة التاشفينية، واستقبل في عاصمته مجموعة من العلماء، من الأندلس، والمغرب الإسلامي.

لكنه لم ينعم بهذه العظمة التي وصلتها الدولة، لأن الدولة المرينية، رأت في بقائه خطرا عليها، فتحالفت مع الدولة الحفصية[4] وبذلك أصبح أبوتاشفين يواجه

---

1 – ابن خلدون، المصدر السابق، مجا7، ص216-238. يحيي بن خلدون،بغية الرواد، ج1، ص18.التنسي،نظم الدرو العقيان،ص 139.

2 – ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ص 237 .

3 - الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزائر 1973-1974 ، ج 2 ، ص 147.

4– للزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 112-113.

الخطر الحفصي من الشرق، ومن المرينيين من المغرب، مما جعله يتحصّن بتلمسان ويتولّى قيادة جيش الدولة بنفسه، وعندما دخل ابو الحسن المريني المدينة، استمر في قتاله، حتى سقط أمام قصره، مع أبيه، وبعض موظفيه، دفاعا عن استقلال الدولة الزيانية بتلمسان خلال الاحتلال المريني الأول.

بعد ما تمكن أبو الحسن من القضاء على الدولة الزيانيـــة، عمد إلى إعادة بناء المنصورة من جديد، ثم قاد حركة توسُّعية على حساب الدولة الحفصية، لإقامة دولة مترامية الأطراف إلاّ أن هذا الطموح توقف في القيروان، عندما تعاونت القبائل العربية عليه، فانهزم في معركة القيروان سنة1347/746ومن بين الذين رافقوه في حملته على إفريقية شيوخ مغراوة، وبني توجين، وبني عبد الواد، الذين اغتنموا هذه الهزيمة فرجعوا الى مضاربهم، بالمغرب الأوسط، ثم عقدوا تحالفا فيما بينهم لكنهم عندما اقتربوا من مضاربهم، توجه كل واحد منهم الى مقر قبيلته.

أما بنو عبد الواد، فتوجهوا إلى تلمسان، فاستولوا عليها وعيّن أبو ثابت وأبو سعيد لتولي شؤون الدولة.

- أبو سعيد وأبو ثابت 749هـ/1350م.

تمكّن الأميران من إعادة إحياء الدولة، وتقسيم الحكم بينهما، فكانت الخطبة، والسكّة توحد القبائل، وجعلها خاضعة للدولة. لكن الأخوان، واجها الخطر المريني من جديد، ولم يستطيعا إيقافه، فسقطا شهيدين، وبذلك الدولة من جديد إلى الاحتلال المريني.

- أبو حمو موسى الثاني 760-791هـ/1359-1389م[1]

استطاع السّلطان أبو حمو موسى الثاني، أن يغتنم فرصة الإضطرابات، التي عرفتها الدولة المرينية في عهد سلطانها أبي عنان، فعاد من منفاه إلى تلمسان، بمساعدة بني هلال الذين زودوه بقوة عسكرية، مكّنته من الدّخول إلى تلمسان بعد القضاء على الحامية المرينية، وبذلك أعاد مجد الدولة وقد تميّز عصره بما يلي:

- **أولا:** استمرار ثورات القبائل البربرية على الدولة الزيانية، وزيادة نفوذ القبائل العربية التي تحصّلت منه على إقطاعيات كبيرة مكّنتها من السيطرة على أجزاء كبيرة من أراضي التلول، ومن أبرز هذه القبائل بنو عامر، وسويد[2]، وحصين، وبنو يزيد، وحميان، وغيرهم، لكنها لم تستمر في موالاتهم له بل انضمّوا إلى أعدائه من المرينيين، والحفصيين وأمراء الدولة الثّائرين عليه، ومن بين هؤلاء ابنه أبو تشفين الثاني.

- **ثانيا:** القيام بحركة توسُّعية على حساب الدولة الحفصية فحاول الاستيلاء على بجاية[3]، إلاّ أن كثرة الثّوار وضعف القيادة العسكرية، أدّيا إلى هزيمة ببجاية.

- **ثالثا:** كثرة الخطر المريني على دولته، ممّا دفع به إلى ترك تلمسان، والتّوجه نحو الواحات الصّحراوية، فرارا من الجيش المريني[4].

1- الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 112-113.
2- التنسي ، المصدر السابق ، ص 246.
3- التنسي ، المصدر السابق ، ص 247.
4- الزركشي ، المصدر السابق ، ص 213.

- **رابعا:** خروج أمراء الدّولة عليه، ومن هؤلاء أبوزيان القبي وأبوتاشفين الثاني، اللذان تعاونا مع القبائل العربية، ثم تدخّلت القوات المرينية، بقيادة زيان الوطاسي، فسقط في المعركة عند مواجهته للجيوش المرينية.

وقد عرف عصره اشتداد الصّراع بينه وبين الأمير أبي يحي، الذي وجد مساعدة من شيوخ تلمسان وأعيانها[1]، ومن بين هؤلاء موسى بن حمزة، وعبداللّه بن عثمان، وسليمان بن موسى أبو عبد اللّه، محمد المستعين باللّه [2] .

كان لاجئا في تونس فتوجّه منها إلى المغرب الأقصى، ثم دخل أراضي المغرب الأوسط معلنا الثورة على سلطان تلمسان وقد وجد تأييدا لدى القبائل، من هؤلاء أولاد بليل[3] وطن حمزة[4]، ومليكش[5]، وبنو عمر، واشعالية، وبعض حصين[6]، ثم واجه جزائر بني مزغنّة، فاستولى عليها.

ثم وجّه ولده المتوكل على رأس قوة عسكرية لاستعادة أقاليم الدولة فاستولى على متيجة، ومليانة وتنس[7].

وخلال توسّع المتوكّل في أقاليم الدولة، قام أحمد بن الناصر بن أبي حمو بثورة وأيّدته طائفة من أهل تلمسان، لكنّه لم يتمكّن من القضاء على الأمير، فألقي عليه القبض وقتل.

1- لمؤلف مجهول، بغية الرواد، ملحق ورقة 83.

2- التنسي، المصدر السابق.

3- أولاد أبي بليل فخد من بني يزيد سمو باسم شيخهم أبي الليل بن موسى انظر: ابن خلدون العبر، ج7، ص263.

4- حمزة أبي سوق حمزة مدينة البويرة حاليا.

5- مليكش قبيلة صنهاجية مضاربها بسهل متيجة انتقلت الآن لشرق جبال جرجرة.

6- حصين قبيلة هلالية موطنهم وهو جبل أشير انظر العبر، ج6، ص92.

7- التنسي، نفس المصدر، ص251.

ولمواجهة الثورات لجأ سلطان تلمسان إلى بناء السّور العظيم الذي أحاط بالقصر، وما انضم إليه.

وفي تلك المدة نهض المتوكّل من مليانة[1]، فاستولى على وطن بني راشد، وهوارة ثم مستغانم[2]، وتمزغران[3]، ثم عمد إلى وهران فافتتحها، ومنها دخل تلمسان.

- المتوكّل 866-873هـ/ 1442-1468م

بدأ حياته السّياسية بجمع أفراد الأسرة الزيانية الذين شتّتتهم الاضطرابات والحروب، التي عرفتها الدولة مما دفع ببعضهم إلى ترك تلمسان، واللّجوء للمرينيين، وللحفصيين، وللقبائل العربية والبربرية، والهدف من وراء ذلك القضاء على النّزاعات بين أفراد الأسرة، لكي تستطيع الدولة أن تحافظ على قوّتها واستمرارها، وحتى السّلطان مولاي أحمد، لم يتعرّض له بسوء، بل أحسن إليه وصرفه إلى الأندلس، لكنّه انقلب علبه، وتعاون مع شيوخ القبائل من العرب والبربر، وحاصر تلمسان، ودخلها بعض أتباعه، إلاّ أنّه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، لقوة الموالين للمتوكّل.

- كما فشل أيضا محمد بن غالية الذي انطلقت ثورته من وجدة ومنها انتقل إلى جبل بني ورنيد، فوقعت معركة بينه وبين جند المتوكل، انهزم فيها محمد بن غالية.

1- مليانة مدينة قديمة تقع على بعد 120 كلم غربي الجزائر العاصمة و نحو 70كلم جنوب شرشال لمزيد من معلومات منها انظر الوزان المصدر السابق

2- مستغانم مدينة قديمة تقع على بعد90من وهران على شاطيء البحر لمزيد من المعلومات عنها انظر الوزان المصدر السابق ص216 رقم 375.

3- تمزغران او مزغران تقع على بعد 4 كلم جنوب غرب مستغانم الوزان ص

- أوضاع الدولة في نهاية القرن9هـ/15م

بعد تعرضنا للمراحل التي مرت بها الدولة الزيانية قبل فترة موضوع الدراسة بصفة موجزة يجدر بنا أيضا أن نقوم بمقارنة بين أحوال هذه الدولة في عصرها الذهبي الذي شمل المدة الممتدة من تأسيس الدولة إلى نهايـــة حكم السلطان أبي حمو موسى الثاني[1]، وعصر الانحطاط الذي امتدّ من نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حتى سقوط الدولة ماعدا بعض الفترات التاريخية القصيرة مثل عصر المتوكل وعبد الواحد الذي استطاع أن يتدخّل في شؤون بني مرين.

- أولا: عصر القوة و أهم مميزاته

فالدّارس لأحوال الدولة الزيانية في مرحلة قوتها يلاحظ أن سلاطين الدولة تميزوا عن مرحلة الإنحطاط بما يلي:

أ- طول فترة حكم السلاطين في عصر الاستقرار وقصرها في مرحلة الضعف:

فالسلطان يغمراسن[2] مؤسس الدولة الزيانية، حكم فترة زمنية طويلة تمتدّ بين633 الى681هـ/1235 الى1282م قضاها في بناء الدولة وتحصين تلمسان وتشجيع الحركة الفكرية بها با عتماده على العناصر المهاجرة من الاندلسيين[3]ومن مدن المغرب الأوسط كتنس.

والشيء نفسه بالنسبة الى السلطان أبي تاشفين الأول الذي حكم الدولة الزيانية في الفترة الممتدّة ما بين718-737هـ/1318-1337م. تعتبر المدّة

1- من بين الشخصيات الاندلسية: أبو الخطاب بن داود الاندلسي 23.

2- ابن خلدون، بغية الرواد، ج 1 ،ص 113.

3- نفسه،المصدر السابق، ج 1،ص 24.

طويلة إذا ما قورنت بالفترات التاريخية التي حكم فيها الأمراء المتأخّرون، قضى جلّها في تعمير البلاد، ببناء القصور والحصون، والقلاع وتشجيع النشاط الثقافي باستقباله لمجموعة من رجال الفكر[1]، والإقتصاد، وتشجيع المبادلات التجارية بين بلده، والدول الأوروبية، وبلاد الأندلس، والسودان الغربي.

وما يقال أيضا عن عصر السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي تولى شؤون الدولة بين سنة760هـ و791هـ/1389م[2] على الرغم من كثرة الحروب، التي عرفتها الدولة في عصره إلا أنه كان ذا دور فعّال في الحركة الثقافية، والاقتصادية، فشجّع المبادلات التجارية، والتقرّب من العلماء، فأغدق عليهم الأموال،لذلك يعتبر عصره من أرقى عصور الدولة بالنسبة إلى الحياة الفكرية[3].

أما مرحلة الانحطاط التي سبقت فترة موضوع البحث فتميز سلاطينها بالضّعف، وانعدام الطاعة، وقصر الفترة الزمنية التي تولّى فيها هؤلاء، وأحسن ما يمثلها في رأينا أبو ثابت بن أبي تاشفين، الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه، لكن عمّه أبا الحجاج لم يترك له الفرصة لينعم بالحكم، بل ثار عليه، وتولى شؤون الدولة، إلا أنه لم يستمر في حكم الدولة، لأن فترة توليه السلطة لم تتعدّ عشرة أشهر، واغتصب منه كرسي الحكم.

1- من أبرز العلماء الذين استقبلهم أبو تاشفين في تلمسان أبو عمران المشدالي،فشيد له مدرسة عرفت باسمه، ابن خلدون،العبر،مجلد7،ص 621.

2- عن مضارب بني عامر. انظر ابن خلدون ، العبر ، مجلد 6 ، ص 85.

3- أبو حمو لم يكن أميرا مشجعا للحركة الفكرية فقط بل كان هو نفسه عالما ، ألف كتابا عنوانه: واسطة السلوك في سياسة الملوك ، تونس ، 1279-1862 ، صص 13-14.

وما يقال عنه ينطبق على السلطان أبي زيان محمد، الذي لم تزد فترة تولّيه السلطة على سنة، لأنه أبعد من قبل أخيه[1]، الذي لم يكتف بإخراجه من تلمسان فقط بل أرسل إليه من قتله وهو بمضارب بني عامر[2]، المجاورة لعاصمة الدولة، وقصر فترة الحكم لهؤلاء السلاطين ترجع بالدرجة الأولى إلى التنافس بين أبناء السلطان الواحد، لأن ولاية العهد في الدولة الزيانية لم تكن مقنّنة، وبذلك ساهمت في إضعاف الدولة وتفجير تناقضاتها.

كما أنّ تدخل الدول المجاورة لها «بنو مرينو بنو حفص»[3] وتطاحن العصبيّات بها، زاد من خطورة هذا المشكل، فكان موت السلطان يؤدي إلى عصيان ابنائه، وأقاربه، ويفجر صراعا بين أفراد الأسرة الحاكمة، مما يؤدي إلى الانقسام في صفوف القبائل المؤيدة والمعارضة للدولة، والتصفية الجسدية لبعض أمراء الدولة الزيانية.

- ثانيا: استقرار الأمس يعوض بالفوضى:

فالدولة الزيانية في مرحلة قوتها، عرفت نوعا من الاستقرار نتيجة مجموعة من العوامل، نذكر منها:

1- التنسي، المصدر السابق ص 286.

2- عن مضارب بني عامر، انظر ابن خلدون العبر مجلد6 ص85.

3- عن التدخل المريني في شؤون الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد السلطان أبوالحسن، انظر يحي بن خلدون، بغية الرواد ج1 ص242، ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا السلطان أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغير، الجزائر 1401-1981 ص200.

- **أ:** تأييد أفراد الأسرة الحاكمة، وشيوخ بني عبد الواد الذين تولوا شؤون الدولة، مما أدى إلى اقتسام السلطة في بعض الحالات. كما حدث في عهد السلطانين، أبي سعيد، وأبي ثابت[1].

- **ب:** محاولة استغلال شيوخ القبائل الموجودين في محيط أراضي الدولة الزيانية، بتوزيع الإقطاعيات عليهم، وتعيينهم على رأس بعض المقاطعات، مثل ما حدث لشيوخ هوارة، وبني توجين ومغراوة[2] في هذه المرحلة.

ويقابلها في مرحلة الإنحطاط إزدياد التنافس على تولى السلطة بين الإخوة، مما أدى إلى اغتيالات بين أمراء الدولة، فكان الابن لا يتورّع عن قتل أبيه، لكي يتولّى الحكم، وقد دشّن هذا العمل الشيخ السلطان أبوتاشفين الأول، الذي عمد إلى قتل أبيه بعد أن تبين له أنه يريد تولية ابن عمه أبي عامر، وحرمانه من الحكم717 هـ/1317-1318م.

كما كانت القوى الخارجية وراء عملية اغتيال بعض أمراء الدولة الزيانية، بتحالفها مع الخارجين عليها بداخل الدولة، وأحسن مثال على ذلك السلطان أبو تاشفين الثاني، الذي ثار على أبيه أبي حمو موسى الثاني، وبعد فشله في الإطاحة به إلتجأ إلى بني مرين فتحالف معهم، مما جعلهم يقدّمون له يد المساعدة، فأرسل السلطان أبو العباس المريني زيان بن عمر الوطاسي على رأس القوة المرينية، وعندما علم بها أبو حمو خرج من تلمسان لملاقاتها قبل وصولها تلمسان، فوقعت معركة بجبل بني ورنيد، سقط أبو حمو موسى الثاني

1- ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ، ج 1 ، 236 ، ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 253 ، توفي الأخوان سنة 753هـ ، 1352م.

2- ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 16-238.

خلالها من فوق ظهر جواده، فهلك من جرائه وبذلك تمكن أبو تاشفين من الوصول إلى حكم الدولة الزيانية[1].

وعندما توفي هذا السلطان حدث صراع حاد بين إخوانه وكان أول ضحية هذا الصراع ابنه ثابت[2]، الذي خلفه في حكم الدولة الزيانية، فلم ينعم بهذا العرش إلا فترة قصيرة حتى ثار عليه عمه أبو الحجاج يوسف، فعزله وتولى شؤون الدولة مما جعل الدولة المرينية ترى فيه خطرا على مصالحها، فشجعت أبا زيان على الثورة عليه، وقد تمكّن من إزاحته من على السلطة بفضل الموالين للدولة المرينية داخل المجتمع الزياني، لكنه مثل سابقه لم ينعم بالسلطة، إذ ثار عليه أخوه السلطان أبو محمد عبد الله الذي تحالف مع القوة المرينية في الوصول إلى الحكم.

وهكذا نجد أن القوى الخارجية كانت تسعى إلى تعيين من يتولى شؤون الدولة الزيانية.

- **ج:** خضوع القبائل في المرحلة الأولى وتدخلها في شؤون الدولة في المرحلة الثانية، ففي عصر قوة الدولة وعلى الخصوص في عهد السلطان يغمراسن بن زيان، وأبو تاشفين الأول، استطاعت الدولة الزيانية أن تتحكّم في القبائل، وتتدخل في تعيين شيوخها، وتتقرب من البعض منهم، وتعيينهم على بعض ولاياتها، ضمانا لاستمرار تأييدهم لها وعدم تعاونهم مع أعداء الدولة، فيغمراسن بن زيان، استطاع بفضل سياسته الحكيمة أن يحقق نجاحا كبيرا

1- ابن خلدون،العبر، مجلد7،ص305 ،بغية الرواد،ج2 ،ص313.
2- التنسي،نظم الدر و العقيان،ص336.

في سياسته الداخلية، لأنه استطاع أن يتقرب من رؤساء القبائل البربرية، ويسلك نحوها طريقتين:

- **أولا:** استغلالها لصالح الدولة، مما جعله يحقق نجاحا في توحيد دعائم الدولة الزيانية ولكي يضمن بقاء موالاتهـا، أسند إلى بعض شيوخها المقاطعات، كما أسند إليهما بعض المهام الأخرى، لكي يكون جدارا منيعا ضد أعداء الدولة[1].

- **ثانيا:** أسلوب العنف لأن هذه القبائل كانت في بعض الحالات تتحالف مع القوى الخارجية، مثل الحفصيين الذين كانوا يرون في هذه القبائل وتحالفهم معهم، طريقة لمواجهة طموح يغمراسن بن زيان، في إقامة دولة قوية، لكن لم يرض بالأمر الواقع، فأعلن الحرب على تلك القبائل، واجتاح مضارب بني زيان، توجين ومغراوة، لإخضاعه للسلطة المركزية[2].

وبعد وفاته تولى ابنه أبو سعيد عثمان يغمراسن[3]، فحاول أن يسلك مع هذه القبائل، سياسة اللّين مما جعلها تعلن مهادنتها له، وبذلك تمكن من توحيد القبائل، وجمع صفوفها وتوحيد كلمتهما لصالح الدولة وكانت القوى الخارجية ترى في ذلك خطرا على نفوذها. وقد حدث ذلك في عهد السلطان أبي عثمان

1- من بين الاعداء،المرينيين ويبدوان سبب النزاع بين يغمراسين وبني مرين، يرجع إلى الجوار في الموطن والمنافسة على رئاسة قبائل زناتة، أنظر،ابن عذاري،البيان، المغرب تحقيق ليفي برفنسال ط باريس 1929.

2- ابن خلدون، العبر،مجلد7، ص137، ابن ابي زرع و وض القرطاس، ص197 السلاوي لاستقصا، ج3، ص96.

3- ابن خلدون العبر ، مجلد 7 ، ص204، بغية الرواد ، ج1 ، ص208.

سعيد بن يغمراسن، الذي تمكن بفضل سياسته أن يوجّه القبائل بحملة كبيرعلى الدولة دامت أكثر من ثماني سنوات، حوصرت خلالها الدولة[1].

أمّا السلطان أبو تاشفين الأول، فقد وقف هو الآخر موقفين متعارضين:

- **الأول:** مواجهة هذه القبائل، التي كانت قد أعلنت الثورة على السلطان أبي حموموسى الأول، وعلى الخصوص قبيلة مغراوة[2] وبني توجبين، كما قضى على الحركة الانفصالية، التي قام بها محمد بن يوسف في مليانة، في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول ثم مدّ نفوذه على حساب الدولة الحفصية[3]، وتحالف مع القبائل الثائرة عليها في منطقة الزاب، التي كانت تحت إشراف ابن مزني.

- **ثانيا:** عمد في بعض الأحيان إلى مهادنتها مما جعل الدولة المرينية ترفض السيطرة فتحركت لتحطيم قوة بني عبد الواد لأن أمراءها لا يريدون أن يروا في حدودهم الشرقية دولة قوية، ربما ستخلق لهم مشاكل، وعلى الخصوص حدودهم الشرقية وهو ما دفع بهم إلى التحالف مع الحفيصيين، ضد السلطان أبي تاشفين الأول الذي واجه التحالف بكل شجاعة، مما جعله يسقط في ميدان المعركة، هو وابناؤه وكبار موظفيه، دفاعا عن استقلال الدولة الزيانية[4].

1- ابن خلدون،العبر،مجلد7،ص441-444، روض القرطاس،ص278،يذكر ابن خلدون يحي، ان اول مانزل نزل بدرع الصابون بطاهر تلمسان، 1297،689، بغية لرواد، ج1،ص209 .

2- ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 216-238.

3- نفسه،ج7،ص239 ابن خلدون بغية الرواد ، ج1، ص218، السلاوي المصدر السابق ، ج3 ، ص253 .

4- ابن خلدون يحي ، بغية الرواد،ج1،ص236،ابن خلدون،العبر مجلد 7،ص 253 .

وهناك مثال يتجلّى في عهد السلطانين أبي ثابت وأبي سعيد اللذين استطاعا إحياء الدولة الزيانية من جديد، بفضل تعاونهما، كما تمكّنا من قمع الثوارت التي قامت بها الدولة الزيانية، والتي كان من ورائها تنافس العصبيات القبلية في أرض الدولة الزيانية المتمثلة في قبيلة كومية، وهوارة، وبني راشد، ومغراوة، وبعد نجاحه في توحيد تلك القبائل، ثارت ثائرة المرينيين فقاموا بحملة أدت إلى سقوط الدولة الزيانية، ومقتل أبي ثابت وأبي سعيد[1].

ولم تعد الدولة إلى سابق عهدها لا في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي استطاع ان يشتت شمل القبائل التي تحالفت مع الدولة المرينية، مثل قبيلة مغراوة، سنة762هـ/1360-1361م[2] أما بنوتوجين فكان على رأس القبيلة علي بن عمر بعذ قتل أخيه نصر بن عمر[3]، الذي عُرف بتقليب سياسته من مهادنة إلى معارضة، لذلك عندما تسوء أحول أبي حمو موسى ينسحب من جديد ويتخلى عن المعارضة ولم يتوقف عند هذا الحد، بل تحالف مع أعدائه، فقد وقف إلى جانب علي بن هارون، وأنصاره ضد السلطان الذي قام بحملة قوية استطاع خلالها قمع القبائل المتمردة على الدولة، فداس مضارب توجين، ومغرووارة[4] حتى وصل إلى جزائر بني مزغنة. كما قام أبوزيان بن أبي يحي الراشدي، بالتمرد على أبى حمو موسى، فقاومه وألقى عليه القبض، وأدخله السجن، إلى أن مات وبموته ضعف بنو راشد، وخضعوا لأبي حمو.

1- قتل الاخوان خلال مواجهتهما للجيوش المرينية سنة 735هـ،1352م،انظر ابن خلدون،العبر، مجلد،7، ص253، بغية الرواد،ج1، صص236-237

2- ابن خلدون، العبر ،مجلد7،ص254.

3- نفسه مجلد7 ، ص254.

4- ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7،ص621.

هذا ما يتعلق بالقبائل البربرية، أما العربية فكان خطرها على الدولة لا يقل عن الأولى فقد استطاع السلاطين الذين سبقوا أبا حمو موسى، من قمع ثوراتها، لكن في عهده سببوا له مشاكل، وعلى رأس هؤلاء شيوخ بني عامر وسويد، وحصين، مقابل ذلك كان الأمراء المتأخرون ألعوبة في يد غيرهم وعلى الخصوص شيوخ القبائل، ويذكر ذلك الرحّالة المصري عبد الباسط خليل، الذي زار تلمسان في الثلث الأخير من القرن 9هـ/15م، حيث تعرض لاستبداد شيوخ القبائل وأثرهم على أمراء الدولة الزيانية، وفي هذا الصدد قال: " ثم عاد محمد بن أبي ثابت إلى المدينة في موكبه الحافل، بمناسبة يوم عيد الأضحى، فسمع أمراء في غضون اجتيازه على الناس من يدعوا له بدعوات، من ذلك أن يسخروا له سليمان بن أبي موسى فعجبت من ذلك، فقيل لي أن سليمان هذا من كبار أمراء عرب تلك البلاد، وهو أمير عربان هلال، إلا أن قال ومن كان سليمان معه من ملوك تلمسان، رابح أمره، ومن كان عليه بني أدباره"[1].

فهذا النص الذي جاء به عبد الباسط خليل الذي زار تلمسان في عهد المتوكل الذي يعتبر أقوى من الأمراء الذين سبقوه، لكنه كان يخضع لتأثير هؤلاء الشيوخ، ويمكن أن نستخلص من النص مايلي:

– **أولا:** أن شيوخ القبائل العربية الذين كان لهم تأثير على أرياف الدولة الزيانية، انتقلوا إلى مدن وأمصار الدولة واستقر بعضهم بعاصمتها، وبذلك أصبحوا يوجّهون سياسة الدولة، وينصّبون من أرادوا ويعزلون من يرونه

1- عن محمد بن أبي ثابت المتوكل انظر التنسي المصدر السابق ص255-271.

Abdel B Halile Op Cit *

.p.p 155-136

غير مساير لمصالحهم الذاتية مما يوضّح لنا ضعف أمراء الدولة في هذا العصر.

- **ثانيا:** أن كل الناس كانوا على دراية بحكم الدولة ليس أمراء بني زيان، بل هؤلاء الشيوخ الهلاليين، الذين زاد نفوذهم بعد ضعف القبائل الزيانية، وهو ما يؤكده السليماني بقوله"كان أمراء العرب زعماء على استبدادهم بجباية شعوب زنانة، الخاضعين لهم، فكانوا يأخذون من ذلك قسطا معلوما، ويخضعون لحكومة تلمسان، فكانوا في الحقيقة نوّابا عن الحكمة، يؤدون لها طاعة معلومة، العسكر عند الاجتياح للدفاع عن الوطن، وجباية الطرقات ورفع اليد العادية، مع ذلك يدعون لسلطان بني زيان على منابرهم في مدنهم، وقراهم في جمعاتهم وأدعيادهم"[1] .

يتجلى لنا ذلك من النص ضعف السلطة المركزية وتحدي القبائل لها ونتوصل من خلاله إلى مايلي:

- **أولا:** أن الدولة الزيانية فقدت حق الإشراف على جباية الضرائب من القبائل مثل ما كان عليه الحال في عصرها الذهبي، إذ لم يكن موظفو الدولة هم الذين يقومون بذلك بمساعدة الحامية العسكرية، بل أصبح ذلك من احتكار القبائل العربية.

1- السليماني الشمارخ، ج3 ورقة111 أما الموظفون الذين كانت الدولة تعهد إليهم بمهمة جمع الضرائب في الغالب يكونون من أقرب المقربين لسلاطين الدولة كأبنائهم وفي ذلك يقول عبدالرحمن بن خلدون أن أبا حمو موسى الثاني قد بعث ولده أبا تاشفين لقبض الصدقات، انظر العبر، مجلد7، ص920.

- **ثانيا:** أن الأقاليم التي كانت الدولة تعيّن لها قادة مثل جزائر بني مزغنة والمدية ومليانة وبرشك أصبحت من اختصاص شيوخ القبائل، مما جعلها فيما بعد تعلن انفصالها عن الدولة.

ومن بين العلماء الذين تناولوا استبداد شيوخ القبائل وأخرجوهم عن سلطتهم[1] ونفوذهم، فهم لايعترفون بسيادة بني عبد الواد وأحسن مثال على ذلك سويد وبنوعامر أما نصّ الاستفتاء فقد جاء فيه: ‹‹سأل الحفيد محمد العقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطة أحيانا يكونون خدّاما للسلطان وتارة يكونون متحالفين على السلطان، كما يفعل عرب بلاد بني عامر وسويد، يعمد أحدهم الى تولية قاضي في وطنه بلا أمر الإمام فيقضي ،هل تصح توليته وتنفيذ أحكامه».

كما يؤكد هذا الاستبداد السؤال الذي وجهه للإمام بن عرفة في الموضوع نفسه، وهو أن القبائل رغم خضوعها للحكومة المركزية فإنها عندما تشعر بضعفها تنتصر عليها وتطالب بتوسيع إقطاعياتها.

وهو ما يؤكده المازوني[2] بقوله: «جماعة في مغربنا من العرب تبلغ مابين فارسها وراجلها قدر عشرة ألاف أو تزيد ليس لهم حِرف إلاّ شنّ الغارت وقطع الطرقات على المسلمين وسفك دمائهم وانتهاب أمولهم بغير حق يأخدون حريم الإسلام أبكارا أوشيوخا قهرا وغلبة وبهذا دأب سلفهم وخلفهم مع ان أحكام السلطان أو نائبه لاتنالهم بل ضعف في مقاومتهم بل أذعن وأصبح يغدق عليهم الأعطية والانعام لبعض رعيته ونصب عمالهم فيها، وقطع عمال

1- المازوني : الدرر المكنونة في نوزال مازونة ورقة ج1 ورقة.
2- نفسه ، ج1 ، ورقة P.223

السلطة، عن النظرفي جبايتها ثم مع ذلك لاتأمن من الرفاق عمّال السلطان، فنصبوا الغارات على هذه البلاد وقتلوا من عاجلوه، وقطعوا الطرق[1].

الذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

- **أولا:** أن القبائل في نهاية القرن9هـ/15م لم تكن تقدّم مساعداتها للدولة كما كانت عليه من قبل تشارك في قوة الدولة، لكن في هذه المدّة أصبحت تلك القوة تستغل في الاغارة على القبائل الضعيفة وعلى الخصوص القبائل البربرية[2] التي انهكتها الحروب السابقة التي عاشتها الدولة الزيانية، فأصبح شيوخها يقدّمون الأموال للقبائل العربية مقابل حفظ مضاربهم من غارات تلك القبائل.

- **ثانيا:** لم يكن لاستبداد هذه القبائل وانفصالها عن الدولة انعكاسا عليها فقط، بل حتى رعاتها الذين أدّوا أدوارا لايستهان به في تعطيل الحركة التجارية بين أسواق الدولة ومدنها، لهجومهم على القوافل التجارية التي تنتقل بين تلك المدن والأسواق وحتي الزوايا لم تسلم من غاراتهم وهذه الغارات المتواصلة على مضارب القبائل وقطع الطرقات على القوافل التجارية جعلت هؤلاء يتحصّلون على أمول طائلة، وهو ما دفع بالوزان[3] إلى القول: ان ما يملكه شيوخ هذه القبائل في خيامهم، من أموال وأثاث لا يوجد في قصور الدولة الزيانية.

1- المازوني ، المصدر السابق، ج1 ، ورقة 295 .

2- من ابرزالقبائل التي انهكتها الحروب قبيلة مغراوة وبني توجين ، وهوارة ، مماسهل القبائل العربية في زحزحتها من مضاربها ، وقد بدأ ذلك في نهاية عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني 791هـ، 1391م نستعرض في الباب المتعلق بالاحوال الاجتماعية الى الصراع القبلي الذي عاشته ارضي الدولة الزيانية في عهد هذالفترة .

3- حسن الوزان ، المصدرالسابق ، ص306.

أم الفقهاء في نوازلهم أمثال المازوني[1] فقد طرحوا قضية التعامل مع هذه القبائل لأن أموالهم اغتصبوها من القبائل الأخرى وأجازوا التعامل في المواشي لأنهم كانوا مربين لها.

وهكذا نجد أن سلاطين الدولة المتأخرين كانوا عاجزين أمام استبداد هذه القبائل وتأثيرها على الحياة الاقتصادية بتعطيلها للمسالك التجارية، وفرض ضرائب جائرة على القوافل مقابل حمايتها، عكس ما عرفته الدولة في عصرها الذهبي، ضمنت أمن القوافل التجارية بتجهيز فرق من قواتها العسكرية لحراسة تلك القوافل، مما أدى إلى ازدهار النشاط التجاري[2] ودفع إلى استغلال أراضيهم الزراعية.

- **ثالثا:** إن الأقاليم التي كانت الدولة تعيّن لها قادة مثل جزائر بني مزغنة، والمدية ، ومليانة، وبرشك - كما ذكرنا سابقا- أصبحت من اختصاص شيوخ القبائل، مما جعلها فيما بعد تعلن الإنفصال عن الدولة وحتى بقية الموظفين، فقد أصبحوا هم الذين يختارونهم وفي مقدمتهم القضاة لتطبيق الأحكام وهو ما يتأكد لنا من خلال هذه النازلة "الحمد لله جوابكم في أمرنا وهو أن من أهل القرى لم يكن عندهم سلطان يحكم أمرهم، فأهل القبيلة ليس عندهم إلاّ الشيوخ، كما عرفتم أمر القبائل أجازوا لهؤلاء أن يتخذوا قاضيا بأجرة معلومة، عند تمام كل سنة يأخذ أجرته التي تفرض على الشيوخ، ثم إن هؤلاء عند الميعاد يأخذون ذلك من أهل قريتهم من الرجال والنساء والصبيان، إلى غير ذلك مما يوضح لنا فقدا

1- المازوني، المصدر السابق، ج2، ورقة P 276 .

2- الحسن، المصدر السابق، ج2، ص195. أنظر:
Route du commerce et des échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée p 3 6 7.

الدولة لسلطتها، وعدم تحكمها في تلك القبائل، مما يؤكد ما توصلنا إليه أن عبدالله المستعين الذي قال عنه التنسي أنه "لمّا وصل إلى الحكم قامت عليه ثورات متعدّدت استمرّت طوال حكمه الذي دام ثلاثين سنة[1]".

- **ثورات أمراء الدولة في عصر الانحطاط وقلتها في عصر الدولة:**

لم تعرف المرحلة الأولى ثورات أمراء الدولة على إخوانهم وأعمامهم وأبائهم كما عرفته مرحلة الانحطاط، التي كانت سببا في انفصال أقاليم الدولة، ونستدلّ على ذلك من سيرة أبي عبد الله محمد المستعين الذي قال في شأنه: " فلمّا وصل الوطن بايعه أولاد بليل، ومليكس، وبنوعمر، وموسى وجمهور الثعالبة وحصين".

يبدو أن تلك القبائل لم تكن موالية للدولة الزيانية، لذلك اغتنموا ثورات هذا الأمير فتحالفوا معه ضد أمير تلمسان مقابل الاستفادة من إقطاعياته لهم بعد توليه السلطة، كذلك توضح لنا حركة ابنه المتوكل الذي ثار على السلطان الزياني، أغلب القبائل لم تكن تابعة للدولة وفي هذا الصدد يقول التنسي عن المتوكل: "أنه مهّد متيجة وتقدم إلى المدية وفتحها ثم توجّه إلى مليانة، فأخذها وتمادى إلى تنس، فاستولى عليها، وهناك التحق به نفر من بني عبد الوادي وأهل تلمسان ومنها التحق بعاصمة الدولة"[2].

وهكذا نرى أن الخروج عن السلطان لم يكن مقتصرا على القبائل فقط بل يشمل أمراء الدولة أيضا بمساعدة بعض أعيان تلمسان، الذين كان لهم تأثير داخل المجتمع، وأحسن مثال على ذلك ما حدث للأمير أبا يحيى بن أبي حمو

1- المازوني، المصدر السابق، ج1 ورقة289.

2- التنسي، المصدر السابق، ص255.

موسى الثاني الذي لقي تأييد موسى بن حمزة، وعبد الله بن عثمان وسليمان بن موسى، ولعلّ هؤلاء من أبرز شيوخ القبائل الذين لهم تأثير على الدولة الزيانية[1].

وحدث ذلك لأحمد بن الناصر بن أبي حمو، الذي التفت حوله طائفة من أعيان تلمسان، وعندما فشل في إزاحة السلطان ألقي علية القبض، وأتى به الأمير أحمد فأمر بقتله[2] وحدث بين الأمراء الذين أعلنوا ثورتهم على دولة محمد ابن عبد الرحمن الذي ثار على المتوكل والتفت حوله مجموعة من أعيان تلمسان، وتعلقوا بدعوته حسب تعبير التنسي فأقام أياما محاصرا تلمسان والقبائل المجاورة مما جعلهم يستطيعون الدخول إلى المدية، إلاّ أن الجماعة الموالية للمتوكل قد استطاعت تثبيت صفوف هؤلاء، فرحلوا عن تلمسان بينما عاد البعض إلى خدمة المتوكل واستمر البعض الآخر في المعارضة.

ومن الثائرين من أمراء الدولة محمد بن عالية: الذي استطاع أن يجمع حوله بعض شيوخ قبائل النواحي المجاورة لتلمسان فالتقى بالجيش الزياني الذي أرسله المتوكل بجبل بني ورنيد فقتل الثائر، مع مجموعة من أتباعه.

هذه الثورات المتوالية أثرت تأثير سلبيا على أوضاع الدولة الزيانية في عصر العباس العاقل، فقال[3]: « استولى المتغلبون على الأوطان، أكثر الثوار من الزناتية والعربان».

1- نفسه ، ص 256

2- نفسه ، ص256

3- التنسي،المصد ر السابق،ص256.

فاغتنمت كل جهة تناحر بني زيان وتقاتلهم وتضغط عليهم لتحكم نفسها بنفسها، فتقلصت مملكة تلمسان إلى أن أصبحت لا تتعدّ العـاصمة ونواحيها[1]، فقلّ الرجال المدافعون عن الملك[2] وهذا ما يؤكده السليماني بقوله ولي الأمر بعد هلاك سابقة في حدود الستين وثمانمائة فأقام بأمرهم ولم يتعد نفوذ أعمال تلمسان ووهران وبني راشد وقد سالم أمراء العرب.

- ثورة محمد بن يوسف الملياني

عرفت الدولة الزيانية خلال هذه الفترة مجموعة من الثورات منها ثورة محمد بن يوسف الملياني، في عهد السلطان أبي قلمون[3] لأن رجال الزوايا خلال هذه المدة أصبحوا يشكلون قوة جديدة في المجتمع الزياني، يُحسب لها ألف حساب وقد أدرك بعض الأمراء دور الطريقة فتقربوا منهم، ومن بين هؤلاء المستعين الذي وجه عناية لأبي الحسن مخلوف الملقب بأبركان، الذي كان يتوجه إليه في حالة الشدائد، كتهديد السلطان الحفصي للدولة انزيانية وكذلك الثاني الذي تقرّب من محمد بن يوسف الملياني، فسهّل له مهمة تأسيس أول زاوية له برأس الماء، عند مضارب بني راشد غير بعيدة عن مقر قائد وطن بني راشد .

ورأى الثابتي بأن عمل الملياني سيكون له تأثيرا إيجابيا على الدولة، لأنه سيجعل الناس يلفون حولها، مما ساعد الملياني على مزيد من الظهور،

1- نفسه، ص256
2- نفسه،ص256.
3_ هوالاميرأبو قلمون عبد الله بن محمد المر،أي نفس المصدرج1،ص96، ابو على الحسن ابركان مخلوف المريلي الراشيدي بين تلمسان لمزيد من المعلومات عنه،انظر ابن صعد،روضة النسرين في التعريفب الاشباح الاربعة، مخطوطة رقم 259 .

والنفوذ، فأصبحت لها اليد الطولى على قادة الدولة، وقضاتها بإقليم بني راشد، فلا يردّ له القائد طلبا ولا يخالف القاضي له أمرا، وحتي أمراء الدولة الزيانية برأس الماء، لأنها تعتبر حرما لا تصله أيديهم ولا يتعقبون من يتجه إليها من بطشهم.

وبذلك يكون الثابتي قد ملك الزاوية من موارد اقتصادية هامة انتهت بها إلى طور القوة ودخول المغامرة السياسة.

هذا ما يلخص عهد السلطان الثابتي الذي سالم الملياني وحاول استغلاله لصالح الدولة، فأما الذين جاؤوا بعده فوقفوا موقفا معارضا له، والباحث يجد صعوبات فيما يتعلق بتحديد تاريخ ثورة الملياني على الدولة الزيانية، وفي عهد أي أمير من الأمراء الثلاثة، الذين ورد ذكرهم في البستان، وهم أبو عبد الله وأبو حمو موسى الثالث، والمسعود[1].

بعض الكتاب الذين تناولوا الموضوع اعتبروا أن الثورة كانت في عهد السلطان أبي عبد الله، واستمرت في وقت أبي حمو موسى الثالث.

ومن أبرز دوافع تغيّر سياسته تجاه أمراء الدولة الزيانية:

- **أولا:** أن الأمراء الثلاثة الذين ورد ذكرهم لم يعتنوا بالرّعية فزاد انتشار الآفات الاجتماعية، دفع الملياني للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، بمضارب بني راشد.

- **ثانيا:** الدافع الديني ويتمثل في أن أمراء الدولة في المرحلة الأخيرة استعملوا الجالية اليهودية، في تسيير اقتصاد الدولة مما كان لها رد فعل علماء الدولة

1- محمد الصياغ القلعي ، بستان الازهار ورقة 16 حكم ابو عبد الله مابين سنة 1500-1505و ابوحموموسى الثالث مابين27-1528انظر ملاحق هذه الرسلة.

ورجال الزاوية بها وفي الزاوية الراشيدية مما دفع بأمراء الدولة الزيانية إلى تغيير موقفهم من محمد بن يوسف الملياني.

لا نعرف تاريخ تغييرهذه العلاقة، كل ما لدينا هو النص الذي جاء به الصباغ وقد اعتمد عليه كل الذين كتبوا سيرة محمد بن يوسف الملياني وقد ذكر أنه ذات يوم بوهران في جمع من مريديه جالسين ينشدون قصائد التصوف ويرقصون وإذا ما استراحوا تبادلوا الآراء ويتجاذبون أطراف الحديث في شؤون العامة وفي نظام الدولة الزيانية فقال أحدهم عن هذه الدولة «إنها سلطة كسلطة اليهود[1]» .

يبدو أن عيون السلطان الزياني كانوا مندسّين بين مريدي الزاوية الراشدية مما جعل الخبر يصل إلى أبى عبد الله الذي أمر قائد وهران بإلقاء القبض على الملياني، وعندما علم بذلك أنذره أتباعه في وهران بترك المدينة والتوجه إلى رأس الماء حتى لا يُلقى عليه القبض ويُسلّم إلى الأمير الزياني الذي علم بانسحابه من وهران فأخبر قائد قلعة بني راشد أحمد بن غانم بإلقاء القبض عليه، غير أنه عوض أن ينفذ أمر سلطانه بإلقاء القبض على الملياني اكتفى بالمطالبة بإبعاده عن قلعة بني راشد حتى لا يفهم أنّه من بين أتباعه.

فهذا الأسلوب الذي أتبعه قائد وطن بني راشد يؤكد شيئين أساسيين:

- **أولا:** أن الزاوية الراشدية كان لها تأثيرا كبيرا بمضارب بني راشد بفضل الملياني، وطلابه، ومريديه الذين كانوا موزّعين ببني راشد، وهوارة، والحشم،

1- الصباغ،المصدر السابق،ورقةP7،المرزي سعد السعود،ج1 ،ص74،تحقيق يحي بوعزيزدار العرب لاسلامي سنة

وغيره من قبائل الناحية، ولعل هذا هو سر تأييد سكان المنطقة للأخوين عروج وخير الدين ومشاركة مجموعة من طلبة الملياني في معركة قلعة بنى راشد.

- **ثانيا:** أن موظفي الدولة الزيانية، لم يكون ينفذون أوامر الدولة، وهذا أدى بالدرجة الأولى إلى ضعف قوة الدولة واعتمادها على شيوخ القبائل، وهو ما لا نجده في عصرها الذهبي، وأحمد بن غانم هو الذي اقترح على الملياني الارتحال من وطن بني راشد، فارتحل إلى موضع يقال له يلل[1] من وطن بني وغد[2] بمضارب هوارة.

وأن اختيار وطن هوارة، الذي تحت إشراف سويد يدل على قوة هذه القبيلة، التي لا يستطيع السلطان الزياني أن يفرض عليها الأمر الواقع لكي تسلمه له، لأنها من القبائل المستقلة عن الدولة لكثرة الاضطربات بأمصارها وأريافها، لكن همه الوحيد تمثل في قضاء جل وقته في سماع الموسيقى وغيرها، ومما زاد من خطورة الوضع أنه استظهر على أمره ببطانة من جالية الأندلس فسرحوا به في مضايق الحضارة والانغماس في نعيم الترف حتي صرف الاموال في الشهوات ولوازم الرفاهية.

1- يلل،من المدن القديمة ، و ذكرها الذي الرحالة امثال ابن حوقل والبكري وهي الان من بين دوائرولاية غليزان ولاتزال تحمل نفس الاسم، أنظر ابن حوقل صورة الارض البكري المغرب، ص

2- بني وغدا وبنووغد قبيلة قريبة من هوارة شرق مدينة معسكر التي تعرف اليوم بالقلعة، انظر المرزاي المصدرالسابق ، ج1 ، ص74.

يبدو من النص أن هناك فئتين من المهاجرين الأندلسيين:

- **الأولى:** كان لها تأثير إيجابي على الدولة الزيانية بنشر الفنون الأندلسية في أوساط المجتمع الزياني فأزدهرت الثقافة والصناعة والزراعة ونشطت حركة الجهاد البحري انطلاقا من موانئ الدولة الزيانية لانقاذ إخوانهم في إسبانيا .

- **الثانية:** لم تغير أحوالها التي كانت عليها في الأندلس كالانغماس في النعيم والترف في الوقت الذي كانت فيه القوة الإسبانية تستولي على مضارب الأمصار والقلاع والحصون الإسلامية وعندما انتقلت إلى بلدان المغرب الإسلامي، استقرت بالأمصار وتقربت من أمراء الدولة وأعيان المجتمع فكان تأثيرهم سلبيا، فقد دفعت بأمراء الدولة الزيانية إلى الانغماس في اللهو وتسخير أموال الدولة في هذا الميدان وعدم الاهتمام بشؤون الرعية وكذلك الجيش الذي يحتاج الى الأموال، فزادت الثورات وكثرت التدخّلات الأجنبية في شؤون الدولة واستغلت الجالية اليهودية ذلك، وقد علّق على هذا السليماني فقال:« اتخذ أبو العباس أعوانا من اليهود لجباية الأموال وقبض العشار من تجار الإسبان وغيرهم من المتردّدين للتجارة على سواحل المغرب الأوسط فاستطالوا على الرعية بضرب الثغور وأخذ الأموال وتوظيف الضرائب المتنوعة وامتدت اليد العادية إلى مصادرة ذوي اليسار وأهل الفضل واشتدت الوطأة على الناس»[1] .

يستخلص من النص مايلي:

- **أولا:** استغلال أفراد الجالية اليهودية للوضعية السياسية للدولة الزيانية أحسن استغلال، إذ أنهم رفضوا دفع الجزية بدعوى أن ذلك يقلّل من مكانتهم، كما

1- عن السلطان ابوعبدالله J.J.L.Barges، Complemen de histore des Ben zeiyan، Rois de Tlemcen. Paris, 1887.P 366.

حاولوا إنكار بعثة الرسول(ص) فدخلوا في مناظرات مع علماء الدولة الزيانية ولم يحدث هذا في عصر قوة الدولة.

- **ثانيا:** تحكموا في أسواق الدولة الزيانية بالمناطق الشمالية والواحات الصحراوية وأصبحوا هم الذين يحددون أسعار البيع والشراء دون تدخل الدولة التي تخلّت عن دورها، فأصبح هؤلاء هم الذين يشرفون على مكاتب الديوانة في كل موانئها ويحددون أسعار الضريبة الجمركية دون الرجوع إلى الدولة ولا يسلمون لها إلا الجزء القليل مما كانوا يقبضونه.

كما قاموا بتحديد الضريبة وجمعها من التجار والحرفيين المسلمين بأسواق الدولة الزيانية كما أشرفوا على أخذ المكس على القوافل التي تأتي الى أمصار الدولة ومنها مدينة تلمسان.

فهذا الدور الذي أصبح من صلاحيات الجالية اليهودية وهو الإشراف الكلي على الحركة الإقتصادية في الدولة الزيانية، دفع بعلماء تلمسان إلى مواجهة السلطة الزيانية، فهذا ابن مرزوق يعلّق على الأوضاع فيقول:

« تلمسان دار لا تليق بحالنا ولكن لطف الله نسأل في الفضل [1] فكيف يرجى الخير فيمن يسوسه يهود وفجار ومن ليس يرتضى » أما عبد الكريم المغيلي فقد فضل الهجرة إلى الواحات الصحراوية حيث قاد المقاومة ضد الجالية اليهودية في إقليم توات الذي كان مفترقا لطرق القوافل التجارية.

1- المقرى ،نفح الطيب، ج4،ص366) عن هجرة المغيلي إلى اقليم توات،انظر الونشريسي، المعيار،ج2 ،ص276

الحسن الوزان،وصف إفريقية تحقيق حجي دار الغرب بيروت 1983،ص505 .

- كثرة الأوبئة في ضعف الدولة وقلتها في عصر قوتها

ومما زاد الأمر سوءا في هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية انتشار الأوبئة التي عمّت الأمصار والأرياف وضّحت لنا سيرة محمد بن يوسف الملياني أخبار هذه الأوبئة وسجّل بعض حالاتها وعيّن أمكنة الإصابة بها في زاوية رأس الماء الراشيدية والقلعة ومستغانم وازدادت خطورة الإصابة بها في البادية[1]، وقام الملياني بدور مشرف في مواجهة المرض وإيواء المرضى.

- رابعا: المحافظة على الأمن في المسالك في عصرالقوة وانعدامه في قوة الضعف.

ومن بين الذين تناولوا موضوع انعدام الأمن في المسالك التي تربط عاصمة الدولة والدولة المجاورة لها الحسن الوزان الذي أشار إلى القبائل الموجودة في أنجاد بأنها كانت تشكل خطرا على القوافل التجارية التي تربط تلمسان بالواحات الصحراوية كتوات[2] وورجلان[3] وكذلك فاس وبقية مدن المغرب الأقصى وقد حاول سلاطين الدولة كسب ودّها بإغداق الأموال عليها مقابل حمايتها للقوافل المارّة بمضاربها ويزداد الأمر خطورة في فصل الشتاء إذ تتوجه القبائل المتحالفة مع الدولة إلى الواحات الصحراوية فترتفع حركة الاعتداء على القوافل.

1- الصياغ ، البستان ، ورقات 76-88-59.

2- توات تقع اليوم بولاية ادرار و من أبرزقصورها التي عرفت دوار كبيرا في المبادلات التجارية تامنطيت ، انظر، الوزان المصدر السابق ،

3- ورجلان ،ضبطها ياقوت الحموي ورقلان بينما رسمها ابن خلدون و ركلة و جاءت عند الإدريسي ورجلان وهي لان عاصمة لولاية ،انظر ابن خلدون ، العبر مجلد 6، ص418، يافوت الحموي ، معجم البلدان ج8 ، 414 الاداريسي صفه المغرب نشر هنري بيريس الجزائر 1957 ص120

وقد نبّه على ذلك قبله الرحّالة عبد الباسط خليل، الذي ذكر أن الطريق الذي يربط تلمسان بفاس، يتميز بخطورة لكثرة قطاع الطرق الذين يشنّون الغارات.

ولم يكن هذا المسلك هوالوحيد الذي يتعرض لتلك الغارة، بل حتى الذي يربط وهران ومستغانم بمدينة تلمسان: قبائل سويد، وبني عامر، والناحية، وكذلك الذي يصل هنين بتلمسان حيث يوجد ذوي عبيد الله الذين يغيرون على القوافل التي تسلكه.

- خامسا: جعل القيادة العسكرية لدى عديمي الكفاءة والتخصص

في أواخر عهد بني زيان خلافا لما كانت عليه في السابق، يعتبر هذا من بين عوامل الاختلاف بين العصر الذهبي وعصر الإنحطاط، لأن القيادة العسكرية في الفترة الأولى كانت بيد أشخاص لهم معرفة بشؤون الحرب، عكس المرحلة الأخيرة التي انتزعت فيها السلطة من رجال الحرب، وأعطيت لأناس لاعلاقة لهم بفنون القتال.

كما أن القوة التي واجهتها الدولة الزيانية في مرحلتها الأولى كانت متشابهة معها من حيث الأسلحة، وفنون الحرب[1]، عكس المرحلة الأخيرة، وعلى الخصوص القرن العاشرهجري والسادس عشر ميلادي، حيث كانت أسلحة القوى التي تصارعت معها أكثر تطورا مما لدى الجيش الزياني، كما أدى تقلّص نفوذها إلى قلّة مدخولها، وبذلك عجزت عن تجنيد القوات لمواجهة

1- أحسن مثال على ذلك يغمراسن بن زيان وأبو تاشفين وأبو ثابت،انظر ابن خلدون العبر،مجلد 7،ص163-166ابن أبي زرع الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبارملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،فاس 1343-188.

أعدائها، وأحسن مثال على ذلك أن السلطان أبا حمو موسى الثالث تلقّاها من الدولة الإسبانية، مقابل تبعيته لها.

- سادسا: أصبح جبي الضرائب على يد شيوخ القبائل بعد ماكان من اختصاص الدولة.

ومن بين أوجه الاختلاف بين العصر الذهبي وعصر الإنحطاط وفي المرحلة الأولى استطاعت الدولة الزيانية أن تفرض على أغلب القبائل الموجودة بأراضيها دفع مبالغ كبيرة من المال في شكل ضرائب متنوعة، استغلتها في مواجهة أعدائها، وقد أعفت تجار الدولة الزيانية بمدينة تلمسان[1] وحرفييها، مساعدة منها لازدهار الصناعة، والتجارة بتلمسان، ولكن سلاطين الدولة المتأخرين اختلفوا عن الذين سبقوهم، ففرضوا الضرائب على جميع البضائع والأموال الناتجة عنها، ويزعم أمراء هذه الدولة بأنهم فقراء، حيث أخذت منهم اجزاء من أراضي الدولة، وعلى الخصوص موانئها الرئيسية، واستمرار الحروب بينها وبين أعدائها بجعلها في أشدّ الحاجة إلى الأموال، تلك حال تلمسان ومدنها وأربافها فقد تميزت بالإجحاف، فالضرائب ثقيلة على الرعية[2]، وخطورتها تضاعفت بطريقة إدخالها على يد الولاة أو على يد شيوخ القبائل[3] مما كان يزيد من فقر المزارع ويعزّز تحوله من النشاط الزراعي إلى تربية المواشي، وهي نمط الترحال للتخلص من قبضة الحياة .

1- التنسي المصدر السابق ص 208 -214.

2- التنسي المصد السابق ، ص208 -214.

3- لمؤلف مجهول غزوات عروج وخيرالدين ورقات 76.

فلقد ذكر الحسن الوزان: أن النظام الجبائي بالمغرب الإسلامي لايترك للمزارع ما يكفيه لضمان قوته[1].

وهكذا نجد أن وضع الدولة الزيانية لنظام جبائي جائر يميز بين القبائل الخليفة فيعفيها من الضرائب والقبائل العارمة التي تتحمل أعباء هذا النظام الجبائي، جعل هذه القبائل الأخيرة ترفضه، وكان رفض الضرائب أهم عنصر في تحديد موقف القبائل من الحكم، كما كانت الضرائب من أهم أسباب عصيان القبائل، في أراضي الدولة الزيانية وقد أدي الفقهاء دورا أساسيا في تبرير ورفض القبائل لأداء الضرائب الشرعية.

- سابعا: الانغماس في الترف واللهو عكس مرحلة القوة.

ومن بين الإختلافات بين المرحلتين أن سلاطين الدولة الأوائل وعلى الخصوص المرحلة الأولى كانو يعيشون حياة بعيدة عن الرفاهية، مما جعلهم يحافظون على أموال بيت المال ويصرفونها فيما يعود بالفائدة على الدولة الزيانية، ومن علامات الإنحطاط التهافة على الحياة السهلة.

1- الحسن الوازن المصدر السابق ص353.

- اعتماد عناصر ذات كفاءة في تسيير شؤون الدولة في عصر القوة عكس فترة الضعف.

كما قرّب سلاطين الدولة إليهم في عصر قوة الدولة رجال الفكر والموظفين ذوي الكفاءة، كما حدث في عهد يغمراسن[1] بن زيان الذي اعتمد على أفراد من الجالية الأندلسية وبعض شيوخ القبائل وخاصة قبيلة بني عبد الواد[2].

وما يقال عليه ينطبق على السلطان أبى حمو موسى[3] الأول الذي استغلّ عائلة آل الملاح لكفاءتها فجعل أفرادها من كبار موظفي دولته وحتى ابنه[4] أبو تاشفين الأولى لم يحد عن هذه السياسة مما جعل عصره يعتبر من أرقى عصور الدولة الزيانية.

أما سياسة أمراء المرحلة الأخيرة فكانوا عكس من سبقهم، فهذا محمد بن أبي ثابت تاشفين بن أبي حمو امتاز عصره بعدم الإستقرار وهو ما يؤكده[5] السليماني بقوله:« تولى الأمر بعد عزل أبي العباس فتبدلت الأحوال واشتدت الأهوال وصار شوطا في إظهار الأئمة والتلبس عن الرفاهية وضاقت مدته وساءت سمعته».

يستخلص من النص أن التغيّر الذي حدث بعد توليه السلطة أنه لم يوجه أية عناية للدولة التي كانت تعصف بها الرياح.

1- ابن خلدون بغية الرواد، ج1،ص106
2- نفسه، ج1،ص216
3- نفسه، ج1،ص216
4- نفسه، ج1،ص212
5- السليماني، المصدر السابق، ج3، ص115.

الفصل الثاني

تدهور الأحوال السياسية

من 911/923هـ و1505/1517م

نظرا لتسارع الأحداث في هذه الفترة الممتدة من «906/962هـ الموافق لـ1500/1554م» قد قسمناها إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: 911هـ-923هـ/1505م-1517م

وقد بدأت هذه الفترة بأكبر حادث عرفته الدولة الزيانية في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وهو بداية الهجوم الإسباني على المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة.

ففي سنة911هـ/1505م سقط مرسى من أهم مراسي الدولة وهو المرسى الكبير وتنتهي هذه المرحلة الأولى بإستشهاد عروج سنة «923هـ/ 1517» على الأرجح وعودة السلطان الزياني أبوحمو موسى الثالث إلى عرشه.

وأما إنهيار صرح الدولة في هذه المرحلة فيرجع إلى عوامل منها:

1- **العوامل الداخلية:** من أبرز العوامل الداخلية التى أدت إلى ضعفها تقلص مساحتها.

قد عرفت الدولة الزيانية خلال عصرها الذهبي إمتدادا نحو الشرق فوصلت حدودها إلى جبال الزان (أكفدو) القريبة من بجاية وغربا مدينة تاوريرت التي تقع غرب وجدة بحوالي مائة وستة وثلاثون كلومتر وجنوبا حتى وادي مريب وواحة جورارة وشمالا البحر المتوسط بما فيه من موانئ ناشطة كدلس وجزائر بني مزغنة (الجزائر) وشرشال، برشك، تنس، مستغانم، أرزيو، وهران، أرشقول ومرسى هنين.

بعدها أخذت هذه المساحة تتقلص تحت الضغوط والضربات حتى فقدت الدولة سهولا ومدنا فأصبحت في عهد أبي عبد الله لا تتعدى أعمال تلمسان وإقليم بني راشد وقد أكّد ذلك السليماني فقال: «ولي الأمر بعد هلاك سابقه في حدود الستين وثمانمائة. فأقام بالأمر أبي عبد الله[1] ولم يتعد نفوذه أعمال تلمسان وبني راشد بعد أن سالم أمراء العرب »[2].

وقد استمر هذا الوضع خلال فترة موضوع البحث بل زاد عما كان عليه من قبل فقد فقدَ بنو زيان «المرسى الكبير سنة «1505/911»، ووهران«1509/914»، وهنين/1531» فاشتدّ الخناق على الدولة وتركها دولة داخلية.

أما القبائل التي كانت في يوم ما عضدا للدولة فقد أصبحت عاملا سن عوامل إنهيارها بإنفصالها وتمردها وقد أصبحت إمارات ومشيخات في شبه استقلال ومن بين هذه الإمارات نذكر.

أ : إمارة السويد (سويد)

احتلت هذه الإمارة حوض شلف وسفوح ونشريس وأراضي مغراوة وهو ما يتأكد من قول السليماني[3]: « وقد استبدّوا بالشلف ومايليها من البسائط إلى

1- هو أبو عبد الله المتوكل محمد بن محمد بن ثابت بن تاشفين، 1462،867م - 1475،880م.

2- السليماني: المصدر السابق، ج3، ورقة 109، مرمول، المصدر السابق، ج2، 320.

3- السليماني: الشماريخ ج3، ورقة 110.

وهران مع جبل ونشريس وسائر بلاد مغراوة ، وبني توجين[2].

وقد استمر نفوذ شيوخ سويد في المنطقة، حتى نهاية الدولة الزيانية، فالوثائق الوطنية، والإسبانية تؤكد مشاركة هذه القبيلة في الأحداث التي عرفتها الناحية، وبالخصوص موقفها من محاولات الإسبان المتكررة للسيطرة على مستغانم لأهميتها الاستراتيجية[3].

ب : إمارة حصين

سبطرت هذه الإمارة على قبائل حصين، التي تتمركز في جبال تيطري، والنواحي المجاورة لها، كمتيجة وهو ما يلاحظه نفس المؤلف بقوله:[4] «استبد اخوانهم حصين، بن زغبة، بجبال تيطرى وما يليها من جبال متيجة، وبسيطها إلى الجزائر».

جـ : إمارة بني عامر

هذه الإمارة تتشكل من قبائل بني عامر، الذين أدّوا دورا نشيطا في الأحداث التي عرفتها الدولة، وعلى الخصوص في عهد السلطان، أبي حمو الثاني، وكان استقرارهم بالجانب الجنوبي من تلمسان، إلى جبل كزول، بتيهرت حتى عين إيفكان، قرب معسكر، وتسالة ومنها امتدّ نفوذهم إلى ضواحي وهران.

2- ابن خلدون: العبر، مجلد6، ص195.

3- RUFF (Paul) La domination Espagnole à Oran sous le Gouvernement du comte d'Alcaudete, Paris, E. Leroux, p106 à 190.

4- السليماني: المصدر السابق، ورقة 109.

إلى جانب مضاربهم، يوجد بنو يزيد، وأصلهم من حميان، وأولاد جـوا ب، وبنو كرز، وبنو موسى، والمرابعة، والخشنة، والعكرمة، فأصبحت هذه القبائل تشكل إمارة.

د: بنـو راشـد:

سيطر بنو راشد على القلعة التي سمّيت باسمهم بعد استيلائهم عليها وإبعادهم لقبائل بني ومانو وبني يلومي، الذين استوطنوها حتى عهد الموحدين، لكن ضعف بني راشد فيما بعد، سهّل مهمة الهلاليين في السيطرة على بعض مضاربهم[1]، ونستدل على ذلك بهذا النص: " استبد ببلاد بني راشد، عرب المعقل، من أولاد عبد الواحد وأولاد رحو، وأولاد قيان، وأولاد عيسى، وأولاد مراح، ومن اختلط منهم من بني هلال، وفي تلك الناحية نجد القبائل البربرية، المتمثلة في الحشم[2]، الذين امتدت مضاربهم، بين جبل أوسلاس جنوبا، إلى قلعة هوارة وبني شقرون شمالا، وبين القلعة ومرافي الصحراء، إلى بسيط سيق ووادي الحمام غربا". هـذا ما يتعلق بالقبائل التي تقطن النواحي الشرقية من عاصمة الدولة.

أما الجانب الغربي، من تلمسان، فنجد من بين القبائل التي استبدت به المعقل، وذوي عبيد الله، والهداج، والحراج، والمنبات، وإخوانهم ويطلق على هذه القبائل بالأحلاف، فرضوا نفوذهم على مدن الناحية، وقبائلها البربرية[3].

1- استبدت القبائل الهلالية بهذه الناحية منذ عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، لمزيد من المعلومات عن هذه الأحداث انظر ابن خلدون، بغية الرواد ج2 ص136/ج7ص273 وما بعدها.

2- عن الحشم أنظر: les Pinasse; Notice sous les Hachem de Mascara in R.A .PP 141 1887, Tome 31

3- السليماني: المصدر السابق ج3 ورقة 110 ، مرمول ج2 ص323.

ومن بين المدن التي أثروا عليها، وجدة، وندرومة، وهنين، ثم جبال بني زناسن، وبني يسنوس، حتى واد الملوية.

* عوامل ضعف الدولة الزيانية خلال هذه الفترة

- **التدخل الخارجي:** فالموقع الجغرافي للدولة الزيانية جعل منها وسطا بين دولتين هما الدولة الحفصية في الشرق والمرينية في الغرب وفي مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ظهر خطر أخر تمثل في الإسبان شمالا والعثمانيون شرقا فكانت في حالة حصار دائم فما أن تنتهي حربها مع أهل الشرق حتى تبدأ مع الغرب. ثم تفاقم الوضع بفقدان موانئ الدولة الزيانية (المرسى الكبير«911/ 1505» ووهران 1509/914) ثم أرزيو وهنين فاستدّ الخناق على بني زيان. وفيما يتعلق بالوضع الداخلي نجد التنافس بين الأمراء.

- **التنافس بين الأمراء:**

وقبل أن نتعرض إلى هذه النقطة نذكر أن هذا الداء أصاب الدولة منذ عصرها الذهبي وظهر مفعوله أكثر بعد وفاة أبي حمو موسى الثاني «1381/1360-780/759».

وقد كتب الدكتور مولاي بلحميسي عن هذا التنافس فقال: «نشب الخلاف بينهم حول العرش، فانقسموا إلى طامع في الملك ومعارض له، ونتيجة ذلك الوضع لا تخفى فإنشغل القادة بهذه الوضعية، وانهمكوا في الدسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات. قاتل القوي الضعيف، وثار العم على ابن أخيه،

والابن على أبيه، فأصبحت الحكومة المركزية بدون سلطة وبدون صلة مع الجهات الباقية منها»[1].

وتعتبر هذه المرحلة التي جاءت بعد وفاة السلطان أبي حمو موسى الثاني من أشد المراحل في التنافس على كرسي الحكم، وعلى الخصوص أبناء الأمير الواحد، كما وقع لأبناء أبي حمو موسى الثاني، وقد عمد بعضهم إلى الارتماء في أحضان الحفصيين والمرينيين وتنازلهم عن أملاك الدولة، وتخلّيهم عن سيادتها مقابل اعتلاء كرسي الحكم. ومن بين الذين تولوا الحكم بعد وفاة الثابتي ابنه أبو عبد الله.

- ولاية أبي عبد الله محمد[2] «1505/911 - 922/ 1516م»

خلال توليه الحكم، زار الحسن الوزان تلمسان وأعطانا أصدق صورة لما كان يجري في تلمسان من قلاقل ومؤمرات ومن جملة ما قاله أنه: « بعد وفاته ترك ثلاثة أبناء، أكبرهم عبد الله الذي بمجرد توليه الحكم توالت المؤامرات ضده، بمساعدة أفراد من المجتمع الزياني، الذين لا تهمهم إلاّ المصلحة الذاتية، فقتل الأمير، وتولى الحكم عمه السلطان أبو حمو موسى الثالث فألقى القبض على أبي زيان ووضعه في السجن»[3] أما الأخ الثاني يحى فقد فرّ إلى فاس محتميا بمالكها محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي فقدم إليه أهل تنس في فاس، وهذا ما يشير إليه أبوراس[4] الذي قال عنه: «استولى الأسبان على وهران مدّة ابن قلمون، وهو من متأخري ملوكهم، الذين لم يهيأ

1 - مولاي بلحميسي: نهاية دولة بني زيان، مقال بمجلة الأصالة، ع26،1975، ص 100-106.

2- الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ص 306.

3- ابن زرفة: الرحلة القمرية، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 2525، ورقة 90.

4- أبو راس: عجائب الأسفار، ورقة 138.

لهم في الملك قدر، ولا استقرت بهم في المملكة عمارة دار، فلم يكن للمسلميـــن حينئذ عناء ولا دفاع ولم يبق لهم جمع باجتماع». الذي يستخلص من النـــص مايلي:

أولا: أن أبا راس الناصري يجعل أبا قلمون من أواخر أمراء الدولة الزيانية، لكن في الواقع هو من أول أمراء الدولة الذين بدأت بهم المرحلة النهائية لها أي بداية القرن10هـ/16م.

كما أن أوضاع الدولة في عصره لم تكن مستقرة وهو ما أثّر في الدولة وسهل مهمة الإسبان في السيطرة على المرسى الكبير ويرجع عدم الاستقرار بالدرجة الأولى إلى سوء التفاهم الذي حدث في الدولة بعد وفاة الثابتي واختلاف ابنائه في من يتولى السلطة؟ فبعد وفاته تولاّها السلطان أبو حمو موسى الثالث.

بعد أن قام بإنقلاب على أبناء أخيه الشيء الذي أدى بهم إلى مغادرة تلمسان حيث توجه أبو يحي إلى المغرب الأقصى طالبا يد المساعدة من أحمد الوطاسي، الذي قدّمها له لاستعادة ملك أبيه من أبي حمو موسى الثالث وعندما فشل في تحقيق ذلك، لجأ إلى تنس، واتخذها مقرا له وبقي في حكمها، وزاد ضعف الدولة بعد تولي أبو عبد الله وبشكل خاص بعد وفاته "وتعدد الحروب بين رؤساء القبائل على الرئاسة وسلك الظلم والجور، بين الحاضر والبادي، وبلغ من انحلال دولة هذا السلطان، منذ أن أقدم اليهود[1] لديوانه فاعتمدهم في شؤون الجبايات، وتحديد الضرائب ومدخولات البضائع بالموانئ، وكان أحد أغنياء اليهود قدم وهران يدير أحكامها، وجبايتها، فعقد هذا المتصرف

1- الصباغ، المصدر السابق ورقة 34.

اتفاقا تجاريا مع الإسبان، المترددين على مدن الساحل تمكنوا بسببه التصرف في الميناء» فماذا يمكننا أن نستخلص من نص السليماني:

- **أولا: الوباء**

هذا الوباء عرفته أراضي الدولة الزيانية، في جميع مراحلها، وعلى الخصوص في النصف الأخير من القرن «9هـ/15م»، وقد انتقل إليها من المغرب الأقصى وهو ما تؤكده إحدى الرسائل الإسبانية المؤرخة في 25 أفريل1494، ذكر فيها صاحبها: « أن الطاعون منتشر بها وفي كل يوم يموت نحو ألف ومائتي شخص وبلغ عدد القتلى حتى الآن عشرين ألفا، وانتشر هذا الداء في بعض جهات تلمسان وهذا من نعمة الله».

كما ذكر الصباغ[1] في كتابه البستان، عند تعرضه للملياني أن الزاوية الراشدية فتحت أبوابها للمرضى، وأشرف الملياني بنفسه على هؤلاء الذين توافدوا عليها، من قبائل الناحية، واعتبر السبب في ذلك هو انتشار مرض الزهري الذي جاء به أفراد من الجالية اليهودية.

- **ثانيا:** الصراع الذي عرفته أراضي الدولة بين رؤساء القبائل[2] على الرئاسة يعتبر من أكبر الويلات التي واجهتها الدولة الزيانية في هذه المرحلة، فالصراع هو الذي أفقد هذه الدولة قوتها، خاصة إذا علمنا أن ليس لها جيش نظامي بل تعتمد على مساعدة القبائل لها.

1- الصباغ، البستان، ورقة 36.

2- من أبرز القبائل التي دخلت في صراع مع الدولة الزيانية منذ تأسيسها، القبائل البربرية، المتمثلة في مغراوة وبني توجين، وهوارة، والقبائل العربية. لمزيد من المعلومات أنظر: ابن خلدون: العبر،مجلد 7، ص44 ، ويحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 246.

- **ثالثا:** إن ضعف سلاطين الدولة الزيانية خلال هذه المدّة قد أثّر في أحوال الرعية، فزاد الصراع بين القبائل، من عرب وبربر، وهو ما جعل صاحب النص يعلق عليه بقوله: « ووقع الضعف في شعوب المغرب الأوسط[1] وقبائله فيما تولد عليهم من الفتن وتعدد الحروب بين رؤساء القبائل على الرئاسة، لأن مضارب تلك القبائل لم تكن محددة، فكان الصراع بينهما من أجل السيطرة على الأراضي الخصبة التي يتوفر بها الماء والكلاء، وهو ما جعل القبائل العربية تزحزح القبائل البربرية من مضاربها وتهدد مدن الدولة، مثل مزونة، ومستغانم حسب ما أورده الحسن الوزان الذي زار الناحية خلال هذه المدة.

- **رابعا:** وقد تضررت الرعية بهذه الأوضاع السياسية، التي أصبحت تتخبط فيها الدولة، في عهد هذا السلطان، وعلى الخصوص التجار والحرفيون بتلمسان الذين فرضت عليهم الضرائب للإنفاق منها على رعايا السلطان وجنوده، وقد أدّى عمله هذا إلى مجموعة من الانتقادات وجّهها إليه علماء تلمسان لأنهم رأوا أن فرض هذه الضرائب، لا يتماشى مع الشريعة الإسلامية لأن جزءا منها كان يصرف في رفاهية السلطان[2].

يضاف إلى ما سبق أن البطانة المحيطة بهذا الأمير لم تكن من أعيان تلمسان، أو أفراد الأسرة الزيانية، كما كان حال الأمراء الذين سبقوه بل من الجالية الأندلسية[3] التي انتقلت إلى تلمسان، فأثرت في مجتمعها، بنشر الأمراض الاجتماعية التي كانت تتخبط فيها الأندلس، في مرحلتها الأخيرة

1- المغرب الأوسط: يقصد به الأراضي الممتدة ما بين مدينة دلس، أو تدلس، و وادي ملوية.

2- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص 323.

3- عن هجرة لأندلسيين إلى تلمسان في عهد السلطان الثابتي. أنظر السليماني: الشماريخ، ج3، ورقة 101.

والتي اعتبرت من عوامل انهيارها[1]، فأكثر السلطان الزياني من الجواري، ومجالس اللهو.

فالذي يستنتج من النص: أن جور أمراء الدولة الزيانية لم يكن مقتصرا على الرعية فقط بل امتد إلى أمرائها، فكل أمير يتولّى السلطة يعمد إلى قتل المعارضين له أو الزج بهم في السجن، وعمد هذا السلطان إلى مصادرة ذوي اليسار من أهل تلمسان، وأهل الفضل منهم، وهو ما أدّى ببعضهم إلى الهجرة نحو المغربي الأدنى والأقصى، وحتى بلاد المشرق الإسلامي[2].

والظلم يؤكده صاحب النص بقوله: «واشتدت الوطأة على الناس، وضاقت مذاهبهم وتفرقت أعيانهم، بالنواحي».

وهو ما جعل هؤلاء يؤيدون التدخل العثماني فيما بعد في شؤون الدولة، وعلّق السليماني على ذلك بقوله: « امتد نفوذ عروج، وخير الدين، إلى بلاد آل زيان، فزاد هذا الأمر بأن سائر الرعية إعتنقت طاعة جيش العثمانيين، حفظا من ظلم الزيانيين »[3] زيادة على ما سبق أن هذا الأمير قد إغتصب الحكم من صاحبه وهو ابن أخيه الذي قتل سنة 915هـ/1510[4].

1- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص324.

2- أنظر الباب الرابع.

3- السليماني: المصدر السابق، ج3، ورقة 101.

4- لمؤلف مجهول: تكملة بغية الرواد، ورقة 89، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 2117، ويري بروسلار توفي سنة 922 هـ، 1516م، أنظر: Brosselard (ch) : « Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émirs Beni Zeiyan et de Boabolil "découverts à Tlemcen" Journal Asiatique, 1876, tome 7, P37 à 136.

وقد علق عليه السليماني[1] بقوله: «قتل أبو قلمون سنة «915هـ/ 1510م» وتولى بعده الأمير أبو حمو بن محمد، وعلى عهده إنحلت رابطة بني زيان، وازدادت دولتهم ضعفا وارتباكا، وخضوعا للقوة الخارجية».
لذا فهو من بين الذين خضعوا لمطالب إسبانيا (السلطان أبو قلمون)، الذي لم يستطع إنقاذ المرسى الكبير ووهران، من براثن الأحتلال الإسباني، ولم يستمع لصيحات علماء الدولة، الذين كانوا يطالبون بتوحيد الصفوف الإسلامية لتحرير المدينتين، إلا أن الأمير الزياني يفضل الإنبطاح بتعامله مع الإسبان، وأمضائه معاهدة معهم سنة917هـ/1512م وبذلك سبق السلطان أبا حمو موسى الثالث[2].

وقد ذكر ابن القاضي عائلة العقباني الذين كانوا يمثلون الامير الزياني، وهذا يوضح لنا أن العائلات التلمسانية التي كانت لها مكانة قبل القرن16/10 استمرت في هذا القرن، كما قام اليهود بدور بارز لأنهم شاركوا في الوفد الزياني، والإسباني، وفي هذا الصدد يقول ابن القاضي « وفي سنة917 هـ/1512م دخل النصارى مع أبي يحيى العقباني إلى تلمسان، لأجل الصلح، يوم الخميس آخر يوم من شهر ربيع الأول فانعقد الصلح بين الطرفين بخمسة أعوام ونودي يوم الأحد ثالث ربيع الثاني، وانتزع النصارى الأسارى من يد المسلمين أربابهم قهرا، أول يوم من جمادى الثاني يوم الثلاثاء وعددهم 87 أسيرا ».

1- أنظر رسالة عبد الرحمن بن هلال، و محمد بن مسعود، من اتباع مولاي ابو حمو موسى الثالث لحاكم وهران مؤرخة في 1519 ارشيف سيمانكاس ملف 234 ورقة 10 .
2- الونشريسي أبو العباس: وفيات الونشريسي، تحقيق محمد حجي، الرباط ، 1976،ص 36.

يعتبر هذا النص الوحيد الذي تعرض للمعاهدات التي أبرمت بين الدولتين بالنسبة إلى المصادر العربية بينما المصادر الإسبانية، أوردت مجموعة من هذه المعاهدات سواءا مع الدولة الزيانية أوالقبائل العربية والبربرية.

وذكر بأن أبو حمو موسى الثالث هو أول من أبرم معاهدة مع الدولة الإسبانية لكن النص يؤكد لنا بأن أبا قلمون سبق أبا حمو موسى الثالث، في إقامة العلاقات بين الدولة الزيانية والإسبان، بعد فترة قصيرة من احتلال وهران لا تتعدى ثلاث سنوات ومن أهم المواد الواردة في المعاهدة تقديم الأمير الزياني لحاكم وهران كل ما يحتاج إليه من الحبوب والمواشي بعد أن فشل هذا السلطان، في محاولة استعادة المدينة، نتيجة للتنافس الحاد بينه وبقية أمراء الدولة، وبذلك يكون الأمير الثاني، من الدولة الزيانية بعد أبي يحي أمير تنس، أمضى معاهدة مع الإسبان، سمحت لهم بإقامة حامية لهم في تنس.

ونجد أن الفترة الزمنية بين إمضاء المعاهدة، في تلمسان وتنفيذ بنودها، تقدّر بحوالي شهرين و لعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى أنّه بعد إمضاء الأمير الزياني نسخة المعاهدة، عاد الوفد الإسباني مع الوفد الزياني إلى إسبانيا فأمضى المعاهدة ملك إسبانيا فرديناند الكاثوليكي، وعندما عاد الوفد إلى تلمسان بدأ في تنفيذ بنود المعاهدة بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين الموجودين بأراضي الدولة سواء كانوا لدى الدولة أو لدى افراد المجتمع

الزياني وهو ما يؤكده صاحب النص[1] بقوله: « ونزع النصارى الأسرى من يد المسلمين أربابهم قهرا، يوم الثلاثاء وقدر عددهم بـــ:87 نصرانيا»[2].

كما يوضح النص دور عائلة أخرى تلمسانية لا تقل مكانة عن عائلة العقباني، وهي عائلة[3] العبادي، كان أحد أفرادها وهو محمد العبادي ضمن الوفد الزياني، ولم يوضح لنا صاحب النص هل كان قائدا للمدينة، لأن أمراء بن زيان كانوا يعيّنون إلى جانب الولاّة قادة أو في بعض الأحيان يعرفون باسم القائد، مثل قائد وطن بني راشد[4]، أو قائدا للجيش الزياني فصاحب النص اكتفى بالإشارة إلى أنّه كان يرأس الوفد الزياني الذي انتقل إلى إسبانيا، حاملا هدية من أبي قلمون إلى ملك إسبانيا، فرديناند الكاثوليكي، بعد أن تمّ الإتفاق مع الطرف الإسباني بحضور أفراد من الجالية اليهودية، وهو ما يؤكده ابـــن القاضي[5] بقوله « وخرج القائد محمد العبادي من تلمسان حاملا هدية صاحب تلمسان عشية يوم السبت، وتوجه إلى وادي الصفيصف. ومكث به يوم الأحد

1- الوانشريسي: نفس المصدر السابق، ص 37.

2- يلاحظ أن ابن القاضي لم يفرق بين إمضاء معاهدة 1511 وتجديدها في سنة 1512 لأن الوثائق الأسبانية تشير إلى الوفد الذي ذكره ابن القاضي والهدف من وجوده تجديد معاهدة 1511.

يبدو أن السفير وصل قبل 1511،7،22 وهو تاريخ موافقة السلطات الإسبانية على المعاهدة وإمضائها من قبل الملك الإسباني فرديناند الكاثوليكي أنظر A.G.S leg 319..

3- عن العبادي: أنظر ابن مريم: البستان: ص 124.

4- تعرض إلى قائد وطن بني راشد الصباغ عند تناوله هجرة الملياني من وطن بني راشد.إلى يلل فرارا من محاولة اضطهاد بني زيان له ،أنظر البستان: ورقة 17.

5- ابن القاضي: تكملة وفيات الونشريسي، تحقيق حجي الرباط: 1976،ص،37.

والاثنين حتى لحق به اليهود والنصارى الذين كانوا يعقدون الصلح مع النصارى، ثم رحل يوم الثلاثاء السّابع رجب »[1].

يطرح النص مجموعة استفسارات مما سبب خروج القائد محمد العبادي من تلمسان ومكوثه هو والوفد المرافق له مدة يومين بوادي الصفيصف، وعلى الرغم من أنه كان ينتظر اليهود والنصارى الذين كانوا يعقدون الصلح مع النصارى.

لعلّ المجتمع الزياني وعلى الخصوص البعض منه يرفض التعامل مع الإسبان، الذين اضطهدوا مسلمي الأندلس، ويرفض رؤية هؤلاء بداخل تلمسان، لذا فضّل السلطان أن يتم الاتصال بخارج المدينة، عند وادي الصفيصف.

يلاحظ من النص إحتواء الوفد الزياني على مجموعة من اليهود والنصارى وهذا أيضا يوضح لنا تعامل أمراء الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة مع أهل الذمة، وعلى الخصوص الجالية اليهودية التي لها علاقة بالإسبان، ومن بينها المهاجرون اليهود الذين انتقلوا إلى أراضي الدولة بعد سقوط غرناطة.

أما النصارى فان البلاط[2] عرف وجود النصارىكجنودا مرتزقة، منذ عهد يغمراسن واستمر وجودهم حتى هذه الفترة، ولعلّ البعض من هؤلاء كانوا ضمن الوفد الزياني. هذا من جهة ومن جهة أخرى تذكر الوثائق الإسبانية أن الوفد الزياني مكث في وهران أربعين يوما قبل أن يستقبل من طرف قائدها الذي أحضر أعضاء الوفد ونصوص بنود المعاهدة التي ستمضى من طرف

1- وادي الصفيصف غير بعيد عن مدينة تلمسان.

2- ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ج1، ص207.

أمير زياني ثم الملك الأسباني الذي مثله فرنسيسكو فرقاس Frencesco de .bergas

- **ثانيا: العوامل الخارجية**

بعدما تطرقنا إلى الأسباب الداخلية التي أدت إلى إضمحلال الدولة الزيانية في هذه الفترة سنتطرق فيمايلي لدور العوامل الحارجية النى ساهمت في تكريس هذا الضعف والإضمحلال.

1- احتلال الإسبان المرسى الكبير و وهران

كانت أوضاع الدولة الزيانية خلال القرن الثامن الهجري الخامس عشر الميلادي سببا في تسهيل مهمة الإسبان في السيطرة على الموانئ التابعة[1] لها وقبل التعرض للتدخل الإسباني يجدر بنا أن نطرح على أنفسنا هذه الأسئلة: ماهي العوامل المساعدة لذلك التدخل؟ هل كانت نتيجة لقوة إسبانيا خلال هذه الفترة؟ أو لتشتت الدولة الزيانية، واحتدام الصراع بين مجموعة القبائل في مناطق نفوذها؟ أم هناك نظام عالمي جديد بدأ يتشكل في أوروبا يعتمد على القوة؟ فالإجابة عن هذه الأسئلة تجعلنا نؤكد في البداية أن ما وقع للدولة الزيانية وقع لغيرها من الدول الإسلامية نتيجة التنافس على كرسي الحكم والتحالف ولو مع الشيطان. فهذا التنافس أضعف الدولة الزيانية كما أضعف جيرانها في كل من المغرب الأقصى وتونس وقد عرفت إسبانيا هذه الأوضاع المزرية بفضل جواسيسها.

1- BTA VILAR, (JUAN -BAUPTISTA) Farti Ficacim y de Fens de t litoral en el surValencianoXVI-XVII-PP100.113.

- دور الجوسسة الاسبانية:

تمكنت الجوسسة الأسبانية من تحقيق نتائج مرضية في دراستها لوضعية الدولة الزيانية نتيجة لمجموعة من العوامل منها:

أن الاسبان كانت لهم معرفة بالسواحل الزيانية نتيجة العلاقة مع الدولة والتعرف على تحصيناتها فاستفادت منها القوة الاسبانية عند هجومها عليها سنة910هـ/1505م[1].

هذا من جهة ومن جهة أخرى تذكر الوثائق الاسبانية أن أحد جواسيسها توجّه من وهران إلى تلمسان ومكث بها مدّة ثم قدّم تقريرا مفصّلا عن أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

يضاف إلى ما سبق أن الدولة الزيانية، كغيرها من دول المغرب الإسلامي المعاصرة لها، كانت تعتمد على مرتزقة يعملون في قوتها من الاسبان، منذ عهد يغمراسن[2] واستمرّ وجودهم خلال المراحل التي مرت بها الدولة وحتى بعد الاحتلال الاسباني لموانئها، وهناك وثيقة إسبانية، تشير إلى أن شارل الخامس بعد فشله في حملته على مدينة الجزائر 1541م سحب الفرقة الاسبانية العاملة في البلاط الزياني دون علم حاكم وهران الكوديتي[3].

1- Berbugger. Oran Traduction des Rapports Officiels Espagnels sur la prise de O. R. S El Kebire en 1505 en RA 1869 PP 100-115.

2- ابن خلدون المصدر السابق ج1 ص206.

3- Legajas 130 F XIII.

- ثالثا: مشروع الاحتلال الإسباني لأراضي الدولة الزيانية

ما هي دوافع هذا المشروع؟ وماهي النقاط التي ركز عليها الساسة الاسبان للسيطرة على تلك السواحل؟.

- أ: إن المشروع المتعلق باحتلال المرسى الكبير برز إلى الوجود قبل قيام الدولة الزيانية، ففي15 ماي من سنة«616هـ/1219م» عمد HANRI III هنري الثالث إلى إرسال جواسيس للتعرف على الساحل المغربي حتى يمكن الهجوم عليه لأن الظروف مواتية، بعد الهزيمة التي تلقتها القوة الموحدية في معركة العقاب، «1212/609»[1] إلى أن المشروع لم يتم تنفيذه.

- ب: إن منتصف القرن التاسع الهجري/15م عرف بروز قوة إسلامية فتية تمكنت من تحطيم آخر قلاع الإمبراطورية البيزنطية بالسيطرة على القسطنطينية، ولها طموح في إعادة إحياء مجد الدولة الإسلامية[2]. فالصراع الذي سيعرفه البحر المتوسط سيكون بين قوتين بدأتا تسيطران على العالم وتفرضان إرادتهما، فالقوة الإسبانية توحّدت بإنضمام أرغون إلى قشتالة والقضاء على آخر قلاع الدولة الإسلامية، غرناطة «898هـ/1492م»، ثم التوسع خارج أوروبا، للسيطرة على طرق التجارة، والثروة التي كانت تزخر بها إفريقيا، وآسيا والعالم الجديد.

أما الدولة العثمانية فبعد القضاء على الأمبراطورية البيزنطية بدأت هي الأخرى تقوم بحركة توسّعية، على حساب الدول المجاورة لها، ومن

1- عن معركة العقاب انظر ابن خلدون العبر ج6 ص522.

2- عن موضوع الصراع أنظر: Christian (P): Histoire des pirates et corsaires de l'ocean et de la mediterranée, Rotaljer (ch): Histoires d'Alger et de la piraterie des turcs dans la mediterranee depuis leur Origine (ch) à nos jours, Paris, 1846-50 1850,4 Volumes

الدول المسيحية في شرق القارة الأوروبية[1] وإن وجود العثمانيين في حوض البحر الأبيض المتوسط وتوسعهم أحدث مشاكل للملك فرديناند الكاثوليكي لأن جزءا من المستعمرات الإسبانية في إيطالية ومدن الجنوب الإسباني تطل على البحر المتوسط.

– **ج:** عرفت الفترة الأخيرة من القرن(9هـ/15) زيادة النشاط البحري في حوض البحر المتوسط بين السفن المغربية المنطلقة من موانئ بادس، والمرسى الكبير ووهران، وأرزيو، ومستغانم والسفن الإسبانية المنطلقة من الموانئ الإسبانية، المرية وطرطوشة، وقرطاجنة، ومالقة.

– **د:** تحديد موقع الهجوم لمواجهة المسلمين في المغرب الإسلامي، ومنها الدولة الزيانية،عقد سكرتير المالكين فرناندو وإيزابيلا دي تام ويتش قسيس غرناطة وتوصل إلى قرار نصّ على أن تكون الهجومات البحرية الإسبانية على نطاق واسع تشمل ما بين مصب وادي كرت ووادي تافنا، وهذا التركيز له ما يبرره لأن المنطقة تعتبر الأولى التي استوعبت أكبر عدد من المهاجرين الأندلسيين وهم في طريقهم إلى فاس، وتلمسان.

كما كانت هذه المنطقة تعرف جو الإضطرابات نتيجة الصراع السياسي لتكون لقمة سائغة للإسبان.

ومنذ بداية 899هـ/1493م كانت السفن الاسبانية قبل انتقال أبي عبد الله إلى المغرب تخوض عباب مياه المتوسط نحو الشرق، ما بين جبال ترارة، ومدينة تبحيرنت، وتاونت، لكن السكان كانوا يواجهون الغزاة الاسبان، ومما يؤكد ذلك أنه لمّا حاولت السفن إنزال الرجال حدثت معارضة التلمسانيين،

1– عن هذه المناطق انظر الحسن الوزان، وصف إفريقيا ص116.

وشيوخ القبائل العربية، وفرسانها كما قامت البحرية الإسبانية بمحاولة ثانية للنزول في تاونت، تبحيرنت[1] ووردانية تنفيذا للمشروع الإسباني هذا في الجهة الغربية لأراضي الدولة الزيانية، أما الجهة الشرقية وعلى الخصوص وهران والمرسى الكبير، فقد كانت الحملات الإسلامية بمساعدة أفراد الجالية الأندلسية الذين استقروا بموانئ الدولة الزيانية توجه للموانئ الإسبانية كالمرية ومالقا.

والذي سهّل مهمة المهاجمين من الطرفين قرب المسافة بين الضفتين فالوثائق الإسبانية تذكر أن المرحلة بين موانئ إسبانية الجنوبية، والدولة الزيانية لا تتعدى أربعا وعشرين ساعة خلال قرن«10هـ/16م» كما توضح تلك الوثائق بأن الغارات على المدن وقرى العدّوتين الإسبانية والزيانية وقراهما لم تكن مقتصرة على سفن المسلمين بل حتى السفن المسيحية كانت تقوم بمهاجمة القرى المجاورة لكل من المرسى الكبير ووهران وغيرهما من موانئ الدولة الزيانية، وتتم تلك الغارات في الليل وهو ما أدى إلى أسر مجموعة من سكان تلك القرى من الطرفين ودفع بالدولتين إلى إمضاء معاهدات بينهما تتعلق بشراء العرب والمسحيين الذين وقعوا أسرى بيد المتحاربين، والتبادل يتم بموانئ الدولتين ويتم الدفع نقدا أو عينا.

في هذه الفترة كانت المنطقة الممتدة ما بين المرسى الكبير[2] ووهران تعاني من الهجومات المتواصلة وعلى الخصوص نقطتان أساسيتان كانتا تتعرّضان للغارات من قبل المسيحيين وهما برج بن زواو Bordj Ben Zouaoue وحصن سد... جريجوار Sant Grigouar وأغلب تلك الهجومات تتم في الليل وكذلك شرق راس

1- تبحيرنت تقع على بعد ثلاثين كلم غرب ندرومة على ساحل المتوسط لمزيد من المعلومات عنها انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص15 مرمول، المصدر السابق ج2 ص236.

2- XI Menez (c) les Inscripcians Oran y Mazalquivix de san de val Madrid 1867 en revesla Metter en 1847 y 1848 p 5.

فلكون، حيث توجد مجموعة من القرى منها كرازCarraza وبوسفر والانز La Enza. ومن بينها التي قام بها دون مانوال Don Mannuele حاكم طنجة وسبتة وأصيلا البرتغالي على المرسى الكبير للقضاء على مجاهدي البحر من المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط. أما في سنة "910هـ/1504م" فكانت إحدى سفن فلامند Flamende تقوم بحمل السلع من المرسى الكبير إلى فلامند وبريطانيا فتعرضت لها مجموعة من الجنود الاسبان الذين كانوا يختفون وراء الصخور لمحاولة الهجوم على المرسى الكبير، وعلى الخصوص في الليل، وقائد الجند أحد الأسرى كان بميناء المرسى الكبير. وردّ على هذه الحملات كل من أهالي وهران والمرسى الكبير سنة 911هـ/1505م" بضرب شاطئ مالقة في الليل. وفي نفس المدّة هاجم فلامند والبريطانيون ساحل دولة غرناطة وماريسية Maricia وفالنسية Valencia مجموعة من قراصنة البرتغال، ولم يكن الأمر يقتصر على هؤلاء فقط، بل نجد أحد الأندلسيين من مواطني دولة بني الأحمر في السابق يقومون بمهاجمة فالنسية بمساعدة الموريسكيين الموجودين بتلك الناحية وعلى الخصوص ميناء سانتابولا Santa Bola فهذه الهجمات المتواصلة هي التي جعلت الاسبان يفكرون في احتلال وهران، والمرسى الكبير[1].

وللقيام بهذا العمل عمد الاسبان إلى عقد حلف مع بعض شيوخ القبائل، لكي يسهلوا عليهم الدخول إلى تلك المدن التي ورد ذكرها في المشروع الاسباني ومن بين الذين قدّموا خدمات لهذا المشروع شيخ تاونت الذي أخبر الاسبان

1- عن الهجوم البرتغالي على وهران انظر:

Loin fay Henri , Histoire d'Oran avant pendant et aprés la domination Espagnole Oran , 1858 p 230 à422

بأنه سيقدم المساعدة لهم من أجل اقتحام مليلة[1] في نفس الوقت كان المغاربة يقومون بهجومات على الموانئ الإسبانية لتحرير إخوانهم المسلمين[2]، أما الموقف السلبي لسلاطين الدولة الزيانية يؤكده الونشريسي[3]، من خلال إحدى النوازل الفقهية، التي وردت في المعيار والتي جاء فيها مايلي: سئل بعض فقهاء تلمسان بما نصه: «سيدي جوابكم عما عمت به البلوى في بلدنا وعظم من أجله الخطب، واتسعت به المقالات، وذلك أن الخليفة أصلحه الله صالح هؤلاء النصارى الذين أخذوا سواحلنا لأجل معلوم، والمسلمون يرون أن جهادهم من أعظم القربات إلى الله فصاروا يغيرون على أطراف بلدهم، ويضيقون بهم، هل ذلك طاعة أومعصية؟ ولنفرض أن الخليفة لايوافق على ذلك، ويعاقب عليه أفدنا وأرشدنا، وفقكم الله» أجاب الونشريسي بمايلي: الصلح الواقع بين المسلمين وأعداء الدين على طريقين:

- **الأول:** حين يكون الجهاد فرض كفاية، والثاني حين يكون فرض عين، الأولى حين يكون المسلمون طالبين على الكافرين الحرب. فالصلح لمصلحة يراها الإمام بحسب اجتهاده جائز عند المالكية.

- **والثاني:** يمنع الصلح على كل حال ولاسيما إن كانت مدّته تفيد العدو أهلكه الله مصلحته، وعلى المسلمين مفسدته، وإن تخلت فيه مصلحة فهي للعدو أعظم من وجوه مكملة، بأن يتحصن في تلك المدة، ويكثر من آلات الحرب والعدة، فيتحذر على المسلمين الإستنفاذ ويصعب عليهم تحصيل الموارد، بعد تيسيره

1- مرمول وصف إفريقيا ج2، ص 233.
2- الحسن الوزان المصدر السابق ،ص 256.
3- أبو العباس الونشريسي المعيار ج،8ص 157

لـــو ساعده التوفيق، فما وقع من الصلح فهو مصلحة للعدو، وهو مفسدة على الإسلام.

يمكن أن نتوصل من خلال هذه النازلة إلى مايلي:

– **أ**: إن سلاطين الدولة الزيانية، بدل تجنيد الامكانيات التي يملكونها لمواجهة الخطر الإسباني، الذي أصبح محدقا بسواحل الدولة، عمدوا إلى المهادنة بعقد صلح مع الإسبان، والوقوف أمام المجاهدين الذين يرفضون هذه الوضعية التي آلت إليها الدولة، وعلى الخصوص العلماء الذين راسلوا الونشريسي في هذا الأمر.

– **ب**: إن إجابة الونشريسي على النازلة أكّدتها الأحداث، فالصلح سمح لإسبانيا أن تستولي على موانئ أخرى بعد مليلة، المرسى الكبير، ووهران[1]، ثـــم تحصينهما مما حال دون استعادتهما من الدولة الزيانة أوالعثمانيين.

– **احتلال موانئ الدولة:**

قبل التعرض لهذا الموضوع الخطير يجدر بنا طرح الإشكالية الآتية متى وقع الهجوم ولماذا؟.

– **أ**: تتفق أغلب المصادر على أن الدافع الذي كان له الدور البارز في سيطرة إسبانيا على موانئ الدولة الزيانية هو الدافع الديني لأن الصراع بين المسيحيين والمسلمين بالمغرب بدأ بانطلاق أول حملة إسلامية لفتح الأندلس

1– عن الاستيلاء على وهران أنظر رسالة الملك فرنادو الكاتوليكي الكردينال جسيمانس مؤرخ في 1510 C,Fernando Vde F,R Jimenz de cismeas , pedro marverro Aragon rex catolica Simmances secretaria de estado L, P la prim III , P 12 - 16- CXIX 69 - 73 et 1510 publm colection de documentes para la historia de Espana, t- XXXV, PP561 - 565.

بقيادة طارق ابن زياد، استمر خلال مراحل الدولة الإسلامية، وكان لسكان المغرب الإسلامي الدور الأساسي في الفتح والمحافظة على بقاء الدولة الإسلامية في الاندلس، لذلك كانت إسبانيا تخشى من استعادة هذه الدولة، مما جعلها تقيم خطا دفاعيا يشمل إمارة بني زيان حتى لايفكر المسلمون في استعادة مجدهم المنهار[1].

– ب: الجانب الاقتصادي فقد كان حوض البحر المتوسط شريان النشاط التجاري بين الدول المطلة عليه وحتى المناطق البعيدة منه مثل السودان الغربي، حيث كانت السلع تنقل إلى موانئه ومنها إلى البلدان الأوروبية[2]. فأراد الإسبان السيطرة على الضفة الجنوبية منه للمحافظة على تجارتهم، لأن بروز القوة العثمانية سيؤثر في مصالحهم التجارية، ولكي لا يصطدم بالبرتغاليين عقدوا معهم معاهدة حددت مناطق نفوذ كل دولة[3].

– المرســى الكبير:

أما أسباب اختيار المرسى الكبير بالذات فاننا نجدها ضمن الوثائق الإسبانية، التي توضح لنا أن هذا الإختيار يرجع الى مايلي:

– أ: إن المدينة تندرج ضمن الخطة الإسبانية التي تتمثل في احتلال المنطقة التي تربط مليلة بالمرسى الكبير وهذا يندرج ضمن المشروع

1– فتح المسلمون الأندلس في سنة 92 هـ،710م أنظر ابن خلدون،العبر ج7،ص175.

2 – عبد العزيز بن عبد الله البحرية المغربية والقرصنة مجلة قطوان ع43، 1958 ص 59.

3– عن هذه المعاهدة أنظر Guillen publs estudios sabra PP 56-70.

La domenacion de las espana les en berbiria les galaigodas is espana modena 1889T III PP

الاسباني، والاتفاق الموقّع مع البرتغال، لاقتسام مناطق النفوذ بالمغرب الإسلامي.

– **ب:** أنّ أراضي الدولة الزيانية تشكل خطرا في المستقبل على إسبانيا، لأن التقارير الإسبانية تعرضت للحملات التي كانت تقوم بها سفن من بين هؤلاء الكونت ليفيا lendilla الذي أصبح حاكما للمدن التي كانت من أملاك دولة بني الأحمر وكذلك الكردينال اخسيمانسXimens الذي لايتوقف عن حثّ ملك إسبانيا على السيطرة على المرسى الكبير[1].

– **ج:** أن تقرير فينالليVenelle بيّن أن تحصينات المرسى الكبير أضعف من تحصينات وهران، وبذلك سهولة السيطرة عليها وشلّ أي حركة للحامية الزيانية في وهران بقطع الطرق التي تربطها بتلمسان وبقية أقاليم الدولة.

– **د:** أن الحملة على المرسى الكبير تندرج في إطار الوصية التي تركتها إيزابلا قبل وفاتها والتي تنص على السلم مع الدول المسيحية، والتوسع على حساب الدول الإسلامية في الجنوب[2].

– **هـ:** أن المرسى الكبير يتميز بموقع استراتيجي وحصانة طبيعية من جهة ومن جهة أخرى فإن أمراء الدولة الزيانية عمدوا من قبل إلى تحصيناتها مما جعل[3] مرمول يقول: « وهي على صخرة يتعذر تحطيمها يحيط بها جبل عال شديد الإنحدار والوعورة بحيث لا يمكن الإرتقاء منه إلى المدينة إلاّ بصعوبة شديدة ماعدا عن طريق وهران، بحيث يمرّ بطريق غير مستوي

1- Ibid, P 15.

2- Ibid P 20.

3- الحسن الوزان المصدر السابق ص 30.

يسمّى كرسي. وأما من ناحية الشمال حيث تضربها أمواج البحر فيوجد برجان مربعان يدعمان المرسى وعلى طول إمتداد السور السميك نجد برجا آخر مستديرا وحتى ركن جدار السور برج مربع آخر يقدم الدفاع عن هذه الجهة، كما يوجد برج مربع بين الركن الثاني الذي يحرس المدينة من هذه الجهة والتحصينات الآنفة الذكر هي التي دفعت الإسبان لإحتلالها واتخاذها قاعدة انطلاق نحو بقية المدن الساحلية مثل تنس ووهران وهنين فيما بعد.

– و: أن المرسى الكبير، يعتبر من أهم مراسي الدولة الزيانية وفي هذا الصدد يذكر الحسن الوزان، فيقول «المرسى الكبير مدينة صغيرة، أسسها في عصرنا ملوك تلمسان، على ساحل البحر المتوسط، بعيدة ببضعة أميال عن وهران، ومعناها الميناء الكبير، لأنه لا يوجد ميناء على ما أظن في الدنيا أكبر منه، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب في مأمن من كل عاصفة أو إعصار، وكان من عادة سفن البندقية أن تلجأ إلى المرسى الكبير عند إضطراب الجو وترسل بضائعها في قوارب إلى وهران».

ويؤكد مرمول نفس النص بقوله « مرساها أجمل من مراسي إفريقيا وأعظمها، يتسع لعدد كبير من السفن لا تناله الرياح والعواصف، من أي جهة من الجهات، كانت ترسو به كل عام السفن الضخمة القادمة من البندقية وغيرها من بلاد أوروبا حاملة البضائع التي تنقل بعد ذلك في قوارب لوهران» [1].

1- مرمول المصدر السابق ج2 ص 337 ولمزيد من المعلومات عن إحتلال المرسى الكبير أنظر أيضا : BERBRUGGER? (Adrien) : Traduction de rapports officiels espagnols sur la prise de Mers et Kebir et Oran 1505, in RA, 1869, Tome 13.p100 à115 CERVANTES Opcit p 87

يستخلص من النصين أن المرسى الكبير قبل احتلاله، أعتبر من بين الموانئ الرئيسية للدولة الزيانية التي تقوم بالمبادلات التجارية بين أوروبا وهذه الدولة، فالسيطرة عليها معناه التحكم في النشاط التجاري، وهذا سيسبب خسارة كبرى للدولة الزيانية .

- مصاريف الحملة:

هناك أموال جمعت من الضرائب التي فرضت على العاملين في النشاط الفلاحي والحرفي[1] أمّا بقية المصاريف فقدّمها رجال الدين، فالكاردينال اخسمانس دفع أجور الجند مدة شهرين، وقدّم للحملة 11 مليون دينار Marc vedis من أموال الكنيسة التي يشرف عليها، لأن مصاريف الحملات في إيطاليا والعالم الجديد لا تسمح للملك الإسباني بتقديم أموال من خزينة الدولة[2].

- الأسطول:

يتشكل الأسطول الذي كلّف بالحملة من37 سفينة تحمل على متنها 1595رجلا وكذلك31 سفينة أخرى مخصصة لنقل المواد الغذائية والأسلحة لتموين الجند[3].

- بداية الهجوم وتحديد تاريخه:

يذكر المؤرخ الإسبانيPellissces الذي اعتمد على مجموعة من الوثائق أن الإسبان بدأوا في الهجوم على المدينة يوم الإثنين13جويلية 912هـ/

CERVANTES Opcit P 87 -1

2 BERBRUGGER? Oran p.p.100 - 112

-3 عن الأسطول وتاريخ تحركه من مالقة أنظر رسالة فيرناندو كافرا Fernando de cafra far el Reg de velez fecha en le ciudad de maliza a 19 de agosto de 1505 3er le gage F 225-4

1505م وفي اليوم نفسه دخلوها وإحتلوا الأماكن ذات الأهمية الإستراتيجية، مثل منابع المياه التي تتزود منها[1] وعندما توقف الأسطول أمامها عمد الإسبان إلى نصب المدافع لمواجهة التحصينات وتطبيق الحصار عليها حتى لا تصلها الإمدادات.

قبل القيام بالهجوم، درست القيادة الإسبانية تقرير فينالي الذي نصح الإسبان بأن النزول لابد أن يتم في المكان المعروف بالأندلسيات[2]، كما درست أخطاء الحملة البرتغالية التي فشلت في السيطرة على الميناء، وفقدت عددا من سفنها[3] ثم شكلت قيادة الحملة من شخصيات عديدة[4].

1- Sandovall; les inscription d'Oran et de Mers el Kebir, RA, Tome 15 et 16

2- الأندلسيات توجد غرب مدينة وهران شيد بها مركب سياحي يعرف بالأندلسيات فيما بعد .

3- توجد في دور الوثائق سيمنكاس مجموعة من الرسائل تتعلق بالحملة وسيرتها أرسلت من طرف قادتها منها رسالة Gonzalo de Ayora 15، 9، 1505 - Contadurias generales 1 paginaligaojon n° 38.

4- تشكلت قيادة الحملة من الشخصيات الآتية دياجوا فرنانديز القرطبي Diego Fernandez de Cordoba والقائد دنكاوا وكذلك دون رومان Don Romàn. ويحتوي أرشيف سيمنكاس على مجموعة من الوثائق تتعلق بالحملة منها رسالة مؤرخة في 22 من شهر سبتمبر 1505،912 أرسلها للملك الإسباني القائد غنزالوا Ganzal وهو من بين الذين تولوا قيادة الحملة. وهناك رسالة أخرى للقائد نفسه أرسلت إلى ملك إسبانيا ذكر فيها أن الأسطول اجتازا مالقة خلال شهر سبتمبر وكذلك المرية في اليوم الثاني من الشهر نفسه، ومنها على رأس فلكون، أما قادة الأسطول فهم ألمانزا Almanza و دنكاليس Dancales ودياجو دي فيرا و Pierr lapalz بيير لوبيز وريوداز دوروونة Ruydiaz Deron وقائد الفرسان Juan Delayora جون عيورة، ومراقبة الأسطول من بيدور دومدريد توزع الجند كمايلي:
تولى القائد Avilles calans مراقبة البحر، حتى لا تصل السفن المسلمين لمساعدة المحاصرين.
القائد غنزالو دياجوا دي فيرا كلفا بمواجهة فرسان وهران، حين قدومهم إلى المرسى الكبير وكان عدد القوة التابعة لهما تقدر بثلاثة ألاف جندي ووجدو هذه القوة دليل على خوف الحملة من التفاف الحامية الزيانية عليها، قبل احتلالهم للمدينة، كما حدث للحملة البرتغالية.
كما تمكن الإسبان من السيطرة على كل الطرق المؤدية إلى الجبال المحيطة بالمرسى الكبير لمواجهة أية امدادات تصل للمحاصرين.

- موقف سكان المرسى الكبير من الاحتلال:

هذا فيما يتعلق بالعرض الموجز للخطط الإسبانية التي استعملت في السيطرة على المدينة. أما سكان المدينة وقائدها فتحملوا صعوبات كبيرة في الدفاع عنها لقلة عدد المدافعين الذين لا يزيد عددهم على أربعمائة، عكس القوة الإسبانية التي تتشكل من أكثر من خمسة آلف، مزودين بأسلحة أكثر تطورا مما كان لدى الحامية الزيانية بالمرسى الكبير[1].

وبعد مقاومة شديدة اعترفت بها الوثائق الإسبانية وجد قائد الحامية أنه لا يستطيع الصمود، ولكي يحفظ أرواح السكان رفع العلم الابيض من فوق الأسوار يوم1505/7/14[2] فتقدم الاسبان للمدينة فوجدوا بها حوالي35 من العبيد المسيحيين الذين أخذوا أسرى الحرب خلال الحملة البرتغالية على المرسى الكبير سنة1501م[3]. أما دخول الإسبان فكان على الساعة التاسعة صباحا واستمروا في التسرب إلى المدينة، حتى منتصف النهار، بعد أن خرج منها السكان وتركوا أموالهم وأموال الدولة الزيانية التي جمعها موظفي الديوانة[4].

كما استولى الإسبان على المسجد الكبير وحوّلوه الى كنيسة عرفت بكنيسة سان ميشال، أقيمت فيها إحتفالات دينية بمناسبة احتلال المرسى الكبير وامتدت

1- Ibid P 197.

2- يذكر صاحب تكملة بغية الرواد أن إحتلال المرسى الكبير عام إثنى عشر وتسعمائة 1506 وهو يكاد يتفق مع الوثائق الإسبانية لأن السنة الهجرية تشمل سنة 1505- 1506 أنظر بغية الرواد ورقة 58.

3- عن هذا أنظر رسالة بيدرو دومدريد Pedro de madrid مؤرخة في سبتمبر 1905 توجد بأرشيف سيمنكاس ملف الشؤون العسكرية رقم 26 ورقة 36 أنظر أيضا دياجو سيروز
Diego Suarez Traduction ha insertado en arzel en R.A. 1865 P 266

4- Ibid L: P 213.

تلك الاحتفالات لتعمّ التراب الإسباني، وقرعت أجراس الكنائس في ربوع إسبانيا ،هذا يتعلق بسير الحملة وسيطرة الاسبان على المدينة، أما عن النجاح الذي حققه رجال الحملة فقد تعرض أحد القادة الاسبان وهو عيورة ayara[1] من خلال مجموعة من الرسائل أرسلها إلى فرديناند الكاثوليكي بعد احتلال المدينة واعتبر بأن الدبلوماسية الإسبانية، كان لها دور مشرف لأنه قبل الحملة عقد الإسبان معاهدة مع فرنسا والبابا جوليان الثاني والملك رومانوس ملك المانيا وملك إيطاليا وتدخل البابا في المصالحة بين الدول المسيحية لمواجهة كفار المسلمين[2].

وأما الجانب الزياني، فان عوامل الفشل تتمثل فيما يلي:

أ: إن مدينة المرسى الكبير لم تكن بها قوة عسكرية كبيرة، فالوثائق الإسبانية تحدد القوة الزيانية بأربعمائة فارس أغلبهم من القبائل المجاورة لها، واجهوا قوة إسبانية تشكلت من خمس آلاف جندي، على رأسها أبرز القادة الذين كان لهم دورا كبير في سقوط غرناطة 1492م تسمح لها بمواجهة القوة الإسبانية التي عمدت إلى تفريق الحشود الزيانية المتقدمة، بواسطة سلاح المدفعية، مما حال دون تقدم فرسان الزيانيين الذين لايملكون غير السيوف والرماح والنبال، فعجزوا عن الإقتراب مما جعلهم ينسحبون من ميدان المعركة[3].

- **المقاومة الشعبية:**

فإذا كان الجيش النظامي قد فشل في استعادة المدينة، فإن الوثائق الاسبانية تشير في أغلبها إلى المقاومة التي انطلقت مع بداية الإحتلال، من الجبال

1- Ibid P 300

2- Ibid P 316

3- Exerenenz de Sandoval (Ximenés): Oran y Mazalquirir, P 7

المجاورة للمدينة، وتولى قيادة هؤلاء المجاهدين عالم من علماء المدينة عرف بإسم سيدي ابن جاجوا الذي كان ضمن السكان الذين تركوا مدينتهم للإسبان[1] وشدّة المقاومة دفعت بقائد الحملة دون مرتين القرطبي deorgot martina أن يطلب من الملك الإسباني تزويد الحماية الإسبانية بالجند والسلاح، فوافق على طلبه وكلف قادته في كل من مالقا وقرطاجنة بتزويد المرسى الكبير بما تحتاج إليه من سلاح وجند ومؤونة[2].

- **معركة مسغــرين:**

بعد إحتلال المدينة عمد الإسبان إلى تنفيذ الجزء الثاني من مشروعهم الذي يتمثل في مدّ النفوذ الإسباني نحو داخل أراضي الدولة الزيانية، لأن بقاءهم داخل المدينة جعلهم يتعرضون لمجموعة من المشاكل، منها تموين المدينة بالمواد الغذائية والمياه وكثرة الهجومات المتواصلة عليهم من قبل قبائل الناحية، لذا حاولوا نقل المعركة إلى خارج المدينة[3] وبعد إجتماع القيادة بالمرسى الكبير بيّن لهم أن نقطة الضعف تتمثل في قرية مسغرين، لأن تقارير جواسيسهم، أكّدت بأن القرية غير مراقبة بالرغم من استراتجيتها، لأنها تتحكم في الطريق الذي يربط وهران بتلمسان. تولّى قيادة هذه الحملة فرنانديز هولكمين Fernandez malya Rey diaz الذي حدّد الهجوم بيوم 6 جوان 913هـ/1507م[4]، ولكن بعض الأندلسيين الذين انظموا إلى الإسبان حذروهم

1- Ibid P 8

2- Diego Suarez Opcit Mantaes. 350 et de retima luis Fernandese el cardinal lisnerosen la pelitica africana de les Reyes catelleas madrid, 1960, P 66

3- Diego suarez Opcit P 356

4- Ibid p 357

من اجتياز الجبال بخطرها على الجياد، لكن هؤلاء الإسبان لم يثقوا في أقوالهم واستمروا في تنفيذ مشروعهم فانتقلوا الى تلك القرية يرافقهم دليل من أفراد الجالية اليهودية لمعرفته بالطريق الذي كان قد سلكه عند قيامه بالنشاط التجاري[1]. وحتى لا يكتشف أمرهم قرروا أن يكون الهجوم في الليل ليلة الإثنين7 جوان، فاجتازوا المنطقة الخاصة ووصلوا مسغرين قبل طلوع الفجر، فانقضّوا على السكان في حينهم فحدث اضطراب في صفوفهم، مما جعلهم فريسة للإسبان فؤخذ أغلبهم مع مواشيهم أسرى بيد الإسبان إلاّ أنّ عودة هؤلاء للمرسى الكبير جعلهم يتعرضون لمقاومة من طرف القبائل المجاورة لوهران والمرسى الكبير فأبيد أغلب الجند الذين شاركو في هذه الحملة ولم ينجو منهم إلاّ عدد قليل دخل المرسى الكبير بمشقة.

لكن ما يعاب على هؤلاء المقاومين أنهم لم يستفيدوا من هزيمة الإسبان في مسغرين والسبب في ذلك يرجع إلى مايلي:

أ: أن الإسبان عمدوا الى استراتجية محكمة تمثلت في توجيه ضرباتهم الأولى للحصون التي تحمي المدينة، فأثّروا عليها، بواسطة مدفعيتهم، لأن تلك الحصون لم توجه لها الدولة الزيانية أيّة عناية مما جعلها سهلة المنال، وغلق كل المنافذ والطرق المؤدية إلى تلمسان أووهران أوالجبال المجاورة للمرسى الكبير حتى لاتصل الإمدادات للمدينة، وعند دخولهم لها أعادوا تحصينات المدينة وتقوية التحصينات التي كانت بها.

ب: السيطرة على منابع المياه والطرق المتجهة إليها، لأن السكان كانوا يتزودون من منابع المياه التي تقع غرب المدينة، يضاف إلى المياه التي كانت

1- Ibid P 358

نتيجة لسقوط الأمطار، فكان لكل منزل مجموعة من الصهاريج تحفظ فيها تلك المياه حتى يحين وقت الجفاف أما فيما يتعلق بالدولة الزيانية فإن مـولاي عبـد الله عندما علم بسقوط المدينة، قاد حملة محاولا استعادتها، بلغ عدد القوة الزيانية اثني عشر ألف جندي وصلوا إلى وهران في اليوم نفسه الذي دخل فيه الإسبان المدينة، وهذا يؤكد لنا بأن الدولة الزيانية كانت على علم بتحركات القوة الاسبانية، لكنها تباطأت عن الوصول قبل وصول الحملة، ولو تمّ ذلك لما استطاع الإسبان احتلال المرسى الكبير، كما أن القوة الزيانية لم تكن مزودة بأسلحة ثقيلة. أما الذين بقوا على قيد الحياة فأخذوا الأسرى إلى المرسى الكبير مع مواشيهم وربطوا بالأغلال تجرهم الجياد، وعندما علم الناس بما حدث لهذه القرية أعلن الجهاد في ربوع الناحية وتواصلت الإمدادات من الجبال المجاورة للمرسى الكبير، وعين تيموشنت، وتنسلموت. ثم خرجت قوة من وهران فسدّت المنافذ على الإسبان وقدرت الوثائق الإسبانية قوة أغلبيتهم، ولم ينج مـن المعركة إلاّ قائد الحملة مع بعض من فرسانه، فوصل إلى المرسى الكبير فـي ظروف سيئة جدا. هذا ما يتعلق بالمعركة والمراحل التي مرت بها، أما نجاح القوة الإسلامية فيرجع إلى مايلي:

- **أولا:** أن القبائل المجاورة للمرسى الكبير وقائد وهران حاولوا الاستفادة مـن الظروف الطبيعية، لأن تلك القبائل كانت تعتمد حروب العصابات والجبال مواتية لهذا النوع.

وأما عن عدم الإستفادة من هزيمة الإسبان في مسغرين فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أ: أن الإسبان قبل هذه المعركة، تمكنوا من تسريب جواسيسهم، بين أوساط تلك القبائل، فشجعوا المبادلات التجارية، مع المرسى الكبير، فأصبحت القوافل

تنقل من مضاربهم، إلى السوق الذي أقيم بجوارها بضائع مختلفة، ولهذا فالمصلحة الذاتية تتطلب منهم عدم القضاء على الوجود الإسباني، ومن بين تلك القبائل قيزة[1] الذين كانوا يتاجرون مع الإسبان.

ب: إن الحملة التي أرسلت من وهران لم تكن تملك إمكانيات تسمح لهم بتحقيق الإنتصار على الإسبان لأنها ضعيفة وغير مسلحة تسليحا جيدا. بلغت تلك القوة حسب الوثائق الإسبانية ألفي فارس وأربعة وعشرين ألفا من المشاة، شارك فيها رجال الطرقية، فكانوا يحملون أعلامهم الملونة بالأحمر والأخضر والأبيض، وكان دور هؤلاء التأثير على السكان حتى يتمكنوا من الصمود، لكن قنبلة الإسبان من حصون المرسى الكبير للحشود المتقدمة تسبب في خسارة، مما أدى بالقوة الإسلامية إلى الانسحاب.

ج: أن المرسى الكبير لم يكن بعيدا عن القواعد الإسبانية في كل من مالقة، وقرطاجنة، مما سهل مهمة وصول القوة الإسبانية في أقصى سرعة، فارتفع عدد الجند بها إلى ستة ألاف وخمسمائة، كما توجهت سفن الأسطول الإسباني في كل من مالقة[2] وقرطاجنة إلى المرسى الكبير، لحمايتها، مما تسبب في فشل المسلمين في استعادة المدينة من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن معركة مسغرين، كانت ضربة قاضبة للإسبان وكادت تنسف مشاريعهم، وهو ما جعلهم يجنّدون كل إمكاناتهم لإتمام المشروع المتمثل في السيطرة على بقية

1- عن هذه القبائل أنظر: أبو راس ، عجائب الأسفار ، ورقة 37 محمد بن يوسف الزياني دليل الحيران وانيس السهران، الأخبار مدينة وهران الجزائر 1399 - 1979

2- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ص 237.

موانئ الدولة الزيانية[1].

- إحتـــلال وهـــران:

وصف الإسبان وهران قبل احتلالها فقالوا: أن المدينة مرتبطة بالجبال المحيطة بها، وهي شبه مثلث بها فنادق خاصة بالتجار، تحيط بها مجموعة من الحصون والأسوار، خاصة بالدفاع عنها كما توجد بها منابع للمياه، وحولها مجموعة من الحدائق.

- بداية التهيؤ للحملة:

التفكير بالحملة بدأ بهزيمة الإسبان بمسغرين، التي كان لها رد فعل وعلى الخصوص عند رجال الكنيسة المسيحية، الذين جنّدوا كل إمكانياتهم لغسل الهزيمة التي ألحقت بقوتهم على يد المسلمين الذين كانوا يعتقدون بأنهم انتهوا بسقوط غرناطة.

أما الهجوم على وهران فقد أمر به الملك الإسباني في «1508 /08/02» وقد تم تعيين مجموعة من القادة العسكريين على رأس هؤلاء بيدروا نافاروا[2].

من بين الذين شاركوا في قيادة الحملة فرنانديز ديورdoira Fernandez وكذلك انطونيو كوفا Antonio Cuva الذي كان على رأس المدفعية، وفينالي Venalle وغنزالو Ganzalo de ayara. الملك فرديناند أمر أن يتولّى

1- عن هذا الهجوم أنظر Carta del Rey don Ferdinado Dar Ordenes. A. la ciudad de malaga para el absteciment o de la piaza de Oran, A.M.M Cazenave (Jean): les gouverneurs d'oran ، Fal 440،Originales tom II en RA 1937 Tome 81, P ، 1509-1791،pendant l'occupation de cette ville 257 à 300.

2- Bisetta ،Pedr Caytan ; historia de Oran y la sucerca a curadi en Rica 1989, P 66،el ilante que lizo sant pedro quando nega A. Ajesucrista sihena

القـيادة نافارو الذي وصل إلى قرطاجنة في23 أفريل1508[1]، ثم توجه منها إلى مالقة، على رأس سفن قرطاجنة وأعلن في خطبته للجند أنهم مسؤولون للدفاع عن مملكة قشتالة، وأن الهجوم سيتم بعد الإتفاق بينه وبين الكاردينال اخسيمانس الذي سيتولى القيادة العامة للحملة، فاجتمع به نافارو واتفقا معا على أن انطلاق الحملة يكون في1509/03/06 بعد تجميع كل القوى[2].

- احتـــلال وهران:

هذا فيما يتعلق بسير الحملة، أما احتلال المدينة فقد تعرضت له كتب الرحالة والوثائق الإسبانية، فمن بين هؤلاء الرحالة الحسن الوزان[3] الذي زار المنطقة خلال فترة الإحتلال الإسباني لوهران ومرمول[4]. الرحالة الإسباني الذي زار المغرب الإسلامي في الفترة الموالية لعصر الحسن الوزان، كما اعتمد عليه في وصفه لأراضي الدولة الزيانية.

فالحسن الوزان يرى بأن محاولة احتلال وهران مرت بمرحلتين: الأولى تمثلت في أن الملك الإسباني فرناندو أرسل أسطولا كبيرا لوهران لمحاولة احتلالها وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين بها فانهزم بسبب خطإٍ في العمل.

لكن ما يعاب على هذا النص أنّه لم يحدد لنا تاريخ هذا الهجوم والأخطاء التي ارتكبها قائد الأسطول في مواجهة وهران ما عدا الإشارة بأن نفس الملك هو الذي أعاد الكرّة بعد شهور.

1- Ibid P 69

2- Ibid P 70

3- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص30.

4- مرمول، المصدر السابق ، ج2، ص337. أنظر أيضا Khell: Oran et L'Oranie avant l'occupation Française.

والوثائق الإسبانية التي تمكّنا الإطّلاع عليها لم تتعرض لهذا الهجوم ولعل ذلك يرجع إلى بعض الغارات التي كان يقوم بها الأسطول الإسباني على مدن الدولة الزيانية الساحلية منذ بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

وأما الهجوم الثاني فهو الذي قاده الكاردينال فرانسيسكو خسيمانس[1] XImenez بمساعدة بيدرو نافاروNAVARRO وقد تمكن من الاستيلاء على المدينة بسهولة، وهو ما يؤكده مرمول أيضا بقوله: « إن عملية الغزو أسهل مما كان متوقعا،ذلك لأن عامل المرسى الكبير كان قد اتفق مع يهودي ومسلمين كانوا قائمين على تحصيل وجبات الأبواب لحساب أمير تلمسان على أن يسلموا له المدينة في موعد مضروب، وبينما كانوا يدبّرون كيفية تنفيذ ذلك الاتفاق، إذ وصل الجيش الإسباني، وكان لكثرة عدده قد سلك الطريق البري من المرسى الكبير لوهران على الطريق الجبلي ولما رأى المسلمون نزول تلك الحشود الكثيرة خرجوا دفعة واحدة لقتالهم، ولم يخلّفوا داخلها سوى عدد قليل من الناس، وعندئذ سمحت الفرصة للمتآمرين ففتحوا أحد أبوابها ونصبوا على أحد الأبراج صليبا أحمر لكي تتأكد القيادة الإسبانية أن ذلك الباب مفتوح لها، وهو ما يراه أيضا الحسن الوزان[2] بقوله: « أن السكان خرجوا يقاتلون بغير

1- من هذه الهجومات أنظر Fernanda de zafra: coressponenica sobre la empreza espanola en el marte de africa en el perioda 1492-1494 أنظر أيضا Codgin t carta de ،PP 46-109 de Retana deocumen...enenditas . P. la hest.. de esp.. 47 ganzalo de ayara P 71 حدد عدد الجند بـ 14000، والقتلى 4000، و الأسرى 5000.

2 – الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص31. يقول محمد بن يوسف أن يهوديا يقال له الراوي ابن كيسة أتى بجيش النصارى للمدينة و أدخله بها سرا بالحيلة، فقدم الجيش لباب المدينة ففتحه وأخذ العباسيين الذين كانا يعملان وهما عيسى بن الغريب والغناش كبيرا. أنظر دليل الحيران، ص142.

نظام وتركوا المدينة خالية فعلم الإسبان ذلك وأرسلوا قسما من جيوشهم إلى الجانب الآخر من وهران، فلم يجدوا من خصومهم غير النساء وقد صعدن على الأسوار فدخلوا المدينة بسهولة، فيما كانت المعركة على أشدها في الخارج»، الذي يمكن التوصل إليه من النصين ما يلي:

أ: إن الإسبان قبل وصولهم إلى وهران درسوا كل السلبيات التي ارتكبت من قبل السفن التي هاجمتها قبل هذا التاريخ، وتبين لهم بأنهم لم يتمكنوا من احتلالها لأنها تتميز بتحصيناتها التي لا تسمح لهم بالدخول إليها بسهولة لأنها تحتوي على قلعة حصينة فوق الجبل، وقلعة أخرى ذات حواجز موازية للسور الذي دعّمه النصارى بعد احتلالهم لها.

كما تحتوي على أبراج وخنادق عميقة ومحاذية للمدينة، على الضفة الأخرى للنهر يوجد حصن آخر فوق جبل يشرف على المدينة وبإمكان الناظر من أعلاه أن يستشفّ الوادي كله إلى منبع النهر، وبهذا الحصن خندقان عظيمان وسور للخندقين مبلط تبليطا جيدا يتسع لأن تسير عليه عربات[1].

فهذه التحصينات تؤكد لنا صعوبة احتلالها، لهذا فكر حاكم المرسى الكبير في الاتصال بالأشخاص الذين يمكن أن يقدموا له خدمات في حل هذه المشكلة، وقد استطاع بواسطة عيونه المندسين بداخل وهران أن يضمن إبرام اتفاق مع اليهودي وموظفي الدولة الزيانية الذين كانوا يشرفون على أخذ الضريبة الجمركية .

وهذا كان من أبرز العوامل التي سهلت مهمة القوة الإسبانية لأنهم فتحوا لهم إحدى أبوابها.

1- مرمول ، المصدر السابق، ج2، ص325. أنظر أيضا Zavala (Bandera :(Francis Espanola en Argelia del minacian espanole en Argella desde 1500-1792 Argel, 1885, P5

ب: انعدام الخطة العسكرية من قبل القوة الزيانية بداخل وهران وسكانها لأنهم تركوها خالية من المدافعين عليها خلال خروجهم لمواجهة القوة الإسبانية الزاحفة عليها حتى لا يتعرضون إلى تشديد الحصار عليها، كما حدث خلال المرسى الكبير، وهذا في رأينا من الأخطاء الفادحة لأنها لو بقيت حامية بداخلها لأمكنها التصدي للجند في حالة دخولهم إليها، وهذا لم يحدث، مما أدى إلى خسائر كبيرة في صفوف المسلمين وهو ما أكده الحسن الوزان بقوله: «ولما أخذ المغاربة يتراجعون نحو المدينة للدفاع عنها أبصروا الرايات المسيحية ترفرف على الأسوار وعند تقدمهم للمدينة وجدوا أنفسهم بين القوة الإسبانية التي دخلتها وبعض أفرادها الذين خرجوا منها لتطويق القوة الإسلامية والقوة التي دخلوا معها في مواجهة، فضيق الخناق عليهم فمات أغلبهم.

يضاف إلى ذلك الدور الذي قام به الكاردينال اخسيمانس في تحضير الجند[1] نفسيا وحثهم على الصمود، وقد خاطبهم قبل مواجهتهم المدينة بقوله: « تذهبون أيها الإخوة الأحبة، تذهبون إلى محاصرة مدينة تشرف على كل موريطانيا وتستولون عليها لأنها بوابة إفريقية وعندما تطيعون الأوامر كما يريدها الله وكل البلاد التي تكون في هذه المنطقة تسقط في يد النصارى الكاثوليك وتجدون داخل هذه الجدران أمتعة غالية و مدافع و أسلحة فتنزعون من الكفار السلاح الذي يوجه ضدكم وتصوّبونه لهدمهم وتدميريهم مقدّرين بالقدرة العليا.

1- عن الدور الذي قام به أنظر رسالته التي خطب بها الجنود قبل هجومهم على وهران والتي نشرها Juan Fues في كتابه Historia de Ximenez in bauche tome II AB P 442

ج. إن السيطرة على وهران سمحت لإسبانيا الحصول على ثروات المدينة لأنها من أغنى المدن التجارية في الدولة الزيانية وكذلك السيطرة على الأسلحة التي تستعمل من طرف سكانها لضرب المدن الساحلية في جنوب إسبانيا، ثم أعلن لهم كي يذهبوا إلى المدينة ودخلوها باسم الأب والابن والروح القدس.

وأما مرمول[1] فيقول: "أن الكاردينال قاد عددا من الجند ومعهم السلالم لتسلق أسوار المدينة من الطرف الآخر، بينما كان سكانها المسلمون يوجدون خارجها، ودخلها النصارى دون مقاومة كبيرة وهاجموا المسلمين من الخلف وهم يقاتلون النصارى، فكانت مذبحة عظيمة في المسلمين، ونجا منهم من نجا وفروا متشتتين في الحقوق بعد أن رأوا سقوط مدينتهم وهزيمة جيوشهم تاركين النساء والأطفال والمتاع لمشيئة أعدائهم". وأما أبو راس الناصري[2] فيؤكد ما جاء في الوثائق والمصادر الاسبانية فيقول: "إن احتلال وهران كان في صفر سنة 915هـ/ 509م بمداخلة أحد اليهود الذي خان المسلمين، وذلك أن اليهود الذين بوهران كانوا تحت ذمّة المسلمين ومن بين هؤلاء زاوي بن كبيسة المعروف بابن زهو الذي تحالف مع جيش النصارى فدخل المدينة غفلة بفتح بابها وهو باب المرسى ففتحه ليلا ومعه أحد العسّاسين وهو عيسى بن غريب العربي والعباس بن طاهر العبدلاوي، وصار الجيش بالداخل فانكبّ المسلمين قتلا وصار ذلك في وقت أبي قلمون الزياني.[28]

1- مرمول المصدر السابق ج2 ص337.

2- أبو راس الناصري: الحلل السندسية مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2326 ورقة 256 وهو يتفق مع (تكملة بغية الرواد الذي يقول: احتلوا وهران عام خمسة عشرة مائة وتسعة 1509 ورقة 58)

- عوامل الفشل في استعادة وهران والمرسى الكبير:

من بين عوامل فشل المسلمين في المحافظة على وهران واستعادة المرسى الكبير مايلي:

أ: الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة الزيانية، ففي الوقت الذي استطاع فيه الاسبان أن يمدوا نفوذهم في أراضي الدولة الزيانية وجدوا مساعدة من أحد أمراء هذه الدولة وهو يحي الثاني الذي كان على رأس إمارة تنس[1] ومعارضا لأمير بني زيان في تلمسان أبي حمو موسى الثالث، فربط اتصالا سرّيا بالاسبان، عندما كانوا محاصرين للمرسى الكبير أوإثر دخولهم إليها، مقابل أن يقدموا له يد المساعدة للإطاحة بالسلطان المذكور والجلوس على كرسي الحكم[2].

وتعتبر هذه العملية الأولى من نوعها ضربة قاضية للزيانيين لأنّه بدلا من توحيد قوتهم لمواجهة الخطر الاسباني الذي لا يفرق بين يحي وأبي حمو موسى، بل هدفه القضاء النهائي على الدولة الزيانية.

وتماشيا مع سياسة تشجيع الفوضى في هذه الأرض اتفقوا مع الأمير يحي، وأنزلوا قوتهم، بعد أن تحالف معهم على أن يقدم يد المساعدة[3].

لم يبق الأمر مقتصرا على الأمير فقط، بل امتد إلى قيادة الجيش الزياني، فقد أحجم بعضهم عن مواجهة الإسبان مما جعل موقف أبي حمو ضعيفا أمام

1- السليماني، الشماريخ، ج6 ورقة 120.

2- نفس المصدر، ج3 ورقة 113.

3- نفس المصدر، ورقة 15.

القوة الاسبانية الموحّدة التي ترى بأن عملها هذا ضد أعداء الله الكفرة من المسلمين.

ب: إن العدو الإسباني استطاع فيْ فترة زمنية أن يشعل الصراع القبلي الذي عرفته الدولة الزيانية لصالحه، فتحالف مع بني عامر[1]، وبعض القبائل العربية والبربرية ضد الزيانيين، ثم الأتراك فيما بعد، كما تعرف بواسطة هؤلاء على المسالك المؤدية إلى تلمسان وبذلك تمكن الإسبان من مراقبة الطرق التجارية.

فالتعاون مع العدو الأجنبي يكون كارثة للأمة عكس التجمع، لأن القوة الإسبانية ليست القوة التي لا يمكن الإنتصار عليها، بل برهنت القوة الجزائرية في مسغرين أنها يمكن أن تنتصر إذا كانت الظروف مواتية، كوحدة المصير بين جميع الناس والتخلي عن النزاعات القبلية.

ج: إن السيطرة الإسبانية على كل من المرسى الكبير ووهران، ثم التحالف مع أمير تنس، سببت للدولة الزيانية أزمة اقتصادية، وأن الإسبان تمكنوا من مراقبة الموانئ البحرية، هذه الموانئ تعتبر شريان الاقتصاد الزياني، والمتمثلة في كل من تنس ووهران والمرسى الكبير ثم هنين فيما بعد، وتمكنوا أيضا من مراقبة الطرق البرية التي تربط هذه الموانئ بعاصمة الدولة الزيانية تلمسان، لم تسمح للدولة بتجنيد القبائل التي لا تشارك في الجيش الزياني إلاّ بعد أن تقدم لهم أموالا، هناك وثيقة يرجع تاريخها إلى 8 ديسمبر 1526م[2] مرسلة من مدينة غرناطة توضح لنا العلاقة بين رجال الكنيسة و الاحتلال الإسباني لسواحل

1- عن التحالف بين الاسبان والقبائل العربية، أنظر بوراس المغرب، مخطوط بخزانة زاوية وادي جمعة، غليزان، ورقة 17.

2- أرشيف بلدية مالقا Tome IIIFol 135L2-A.M.M

الدولة الزيانية فقد ذكر فيها صاحبها بأن الملك المعظم يصرح بنشر المسيحية والقيام بالوضع الكنائسي لسيدتنا أثيون من أجل مساعدتنا في المصاريف على حدودنا بإفريقيا وعلى أسطولنا للاستمرار في الحروب المقدسة[1].

توضح الرسالة بأن البلاط الإسباني قد استغل رجال الدين الذين كانوا يكنون عداوة للإسلام في مشروعه الإستعماري في أراضي الدولة الزيانية وغيرها من بلدان المغرب الإسلامي في تجنيد الناس، وجمع الأموال، واستغلال أموال لصالح الحملات الإسبانية.

وهناك رسالة موجهة أيضا إلى الامبراطور كارلوس القوي المعظم ملك ألمانيا ودون إخوانه من أمه والدوقين والكونتات والمركزيين والمبشرين ومجلس القساوسة المكلف بالأتاوة والضرائب والرجال القديسيين لغرناطة كمثل المدن والقرى الأخرى والأماكن التابعة للقسيس الأكبر بطليطلة والذين لهم علاقة برسالتنا التي نتمنى لهم الصحة والعافية أن يحافظوا ويدافعوا لإعانة الله لهم على مدينة وهران ومدينة بجاية والقرى التابعة لهما والحصون والمرسى الكبير والجزائر وطرابلس ومليلة وبقية الحصون الأخرى[2].

يستخلص من هذه الرسالة ما يلي:

أ: أن الدفاع عن الوجود الإسباني في أراضي المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية لا تخص السلطة السياسية الحاكمة في إسبانيا فقط أي جلالة الملك المعظم،بل كل القوى الحية وعلى رأسها الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا،لأن الصراع هو صراع بين الإسلام والمسيحية.

1- F 136 Tome III.

2- الوثيقة تتعلق بالشؤون العسكرية توجد بأرشيف مالقا مؤرخة في 20 ماي 1510م Tome V Fol 216 AMM.

وبما أن الكنيسة هي التي كانت وراء اضطهاد المسلمين في الأندلس فيجب عليها أن تشرف على الاحتلال الاسباني للمراكز الاسلامية في العدوّة المغربية والدفاع عنها بجمع الأموال وإرسالها لتلك المراكز حتى تتمكن من مواجهة المحاولات الاسلامية لاستعادتها. ويضاف إلى رجال الكنيسة أعيان المجتمع الاسباني من دوقيين ومركزيين وهؤلاء هم الذين يتولون تسيير شؤون الدولة والجيوش في إسبانيا.

أما أهمية هذه المراكز فترجع حسب الوثيقة إلى مايلي:

1: إن تلك المدن والحصون تعتبر حدودا فاصلة بين إسبانيا ودول المغرب الإسلامي الأعداء الكلاسيكيون لإسبانيا منذ فترة زمنية طويلة، لأن الفتوحات الإسلامية انطلقت من العدوة المغربية والإمدادات التي تواصلت على الدولة الإسلامية في الأندلس من أراضي المغرب.

2: المحافظة على تلك المراكز تسمح لإسبانيا بالتحكّم في الحوض الغربي للبحر المتوسط وعدم السماح للسفن الأجنبية بضرب السواحل الإسبانية التي تعرضت لغارات من قبل المجاهدين البحريين إنطلاقا من مدن المغرب الإسلامي وعلى الخصوص من بجاية والجزائر ووهران وهنين بالنسبة إلى الدولة الزيانية، وكذلك من قبل الأخوين عروج وخير الدين منذ نزولهما في أراضي الدولة الحفصية، ثم الانتقال إلى جيجل وجزائر بني مزغنة فأصبحوا يمثلون مشكلة بالنسبة إلى استراتيجية الاسبان في المغرب الاسلامي.

3: الإشراف على البحر المتوسط سمح لإسبانيا بالدفاع عن غرناطة التي لها موانئ مقابلة للعدوة المغربية مثل مالقا والمرية وقرطاجنة تلك الموانئ التي كانت تواجه الغزوات. وبذلك نجد هذه الوثائق التي تحتويها

بلدية مالقا تلقى أضواء على الفترة التاريخية التي تهم العلاقة بين إسبانية والدولة الزيانية.

4: الانقسامات التي عرفتها أوروبا خلال هذه المدة والتي لم تكن تخدم المصالح الإسبانية فيها وتؤثر على مصالحها الخارجية وعلى الخصوص التحالف الذي حدث بين الدولة العثمانية وفرنسا وارتباط الجزائر بالخلافة منذ1518. ومما زاد الأمر خطورة أن البابا لم يستمر في تأييده للإسبان بل توجه إلى مساندة فرنسا ضد شارل الخامس الذي كان مناهضا للفرنسيين والإنجليز خلال هذه الفترة، هذا التوجه بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية دفع بالإسبان إلى الاعتماد على أنفسهم وعلى الخصوص رجال الكنيسة.

5: أن حكومة إسبانيا وملوكها أعطوا الأوامر بجمع الأموال اللازمة لاستمرار الحرب ضد الدولة الزيانية ولكن الخلاف بين السلطة الإسبانية ورجال البابوية لم يكن معروفا لدى العامة حتى لا يكون له تأثير في الحروب التي أعلنتها إسبانيا ضد الدولة الزيانية وغيرها من الدول المغربية، فالفرسان والرجالة الذين تطوعوا في هذه الحروب كانوا يدفعون بدوافع دينية.

6: أن المصادر الإسلامية، والإسبانية، تؤكد إحتكار اليهود للاقتصاد الزياني، وعلاقتهم الحسنة مع الدول المسيحية مما جعلهم يدبّرون مؤامرة سلمت بموجبها وهران ففتحوا إحدى أبوابها للجيش الإسباني[1] وهذا يعتبر من أكبر أخطاء سلاطين الدولة الزيانية بوجه عام وقائد وهران بوجه خاص، الذي تخلّى عن مفاتيح المدينة لأفراد من الجالية اليهودية.

1- أبو راس، الحلل السندسية ، ورقة 48.

- **نتائج سقوط وهران على بقية موانئ الدولة**

كان سقوط وهران ضربة قاضية لبقية الموانئ الزيانية الأخرى، فاستولى الإسبان على الصخرة الوسطى لجزر جزائر بني مزغنة، وأقيم عليها حصن عرف بحصن البنيون[1]، ثم حدث ضغط على بقية الموانئ الأخرى مما جعلها تخضع للنفوذ الإسباني، مثل دلس وشرشال، وتدفع ضريبة سنوية مقابل عدم استيلاء الإسبان عليها لأن ما حدث في وهران من قتل وأسر كان له تأثير في تلك الموانئ، لأن استيلاء النصارى على المرسى الكبير هالهم وأضرّ بهم لعلمهم أنهم لا محالة يستولون على وهران وأنهم إن فعلوا فالباقي من بلاد المغرب في خطر عظيم فصاروا يتوقعون ذلك وينتظرونه فقضى الله أن استولوا على وهران في محرم لسنة915هـ/ 1509م فاشتد حزن المسلمين واستولى البلاء عليهم[2] لأنهم يتوقعون إنتصاره على بقية البلاد واشتداد وقوعه عليهم فلما كان شهر رمضان استولوا على بجاية. كما يعتبر بعض المؤرخين أن سقوط وهران، هو نهاية للدولة الزيانية وفي هذا الصدد ذكر الجامعي أن أمر بني زيان حينئذ قد ولّى الأدبار، وضعف ملكهم وتقلص حكمهم، ولاسيما وقد أخذت من أعمالهم، ووهران يومئذ[3]. أما أبوراس[4] فيقول لما تغلّب الإسبان على مدينة وهران واتخذوها دار قرار، واطمأنت بهم الدار ورغب الأعراب في عرضه الفاني فانحاز إليه كل قبائله، مثل كيسة وحميان وبني عامر، من

1- نفسه ، ورقة 50

2- نفسه ، ورقة 50.

3- الجامعي، فتح مدينة وهران ، ورقة 79.

4- أبو راس، الناصري، عجائب الأسفار، ورقة 48.

كل ضعيف الايمان، ولما صاروا وهم شيعة قويت بهم شوكة الإسبان وكانوا عيونه على المسلمين.

- تحصين المدينة:

بعد الاستيلاء على مدينة وهران من قبل الإسبان، وجهت الدولة الإسبانية عناية للمنطقة وهذا يرجع إلى عاملين أساسيين:

أ: أن منطقة المغرب الأوسط قريبة من الأندلس، وكانت تربطها بالدولة الزيانية علاقة سياسية واقتصادية وثقافية، منذ الفتح الإسلامي للأندلس (92هـ/710م) حتى نهاية الدولة الناصرية لم يتوقف الأمر عليها فقط، بل امتدت العلاقة لإمارة أرغون، وقشتالة[1].

ب: حاولت إسبانيا من خلال إحتلالها لوهران والمرسى الكبير إقامة الأسس واللّبنات الأولى، لكي تكون مستقبلا مرتبطة من الناحية الدينية والسياسية لإسبانيا، ولكي يتم هذا المشروع لابد من قيام حركة استطانية، كما فعلت فرنسا فيما بعد ولهذا أقدمت عائلات إسبانية خصيصا لوهران للاستقرار بها، ولتحلّ محلّ سكانها الأصليين الذين قتلوا في طرقاتها، أو أسروا بعد الاستيلاء عليها، وما بقي فيها من الأحياء هاجرها إلى المناطق المجاورة لها، وقد وصل البعض منهم إلى تلمسان أما العائلات الإسبانية التي توافدت على وهران، فبلغت ستة مائة عائلة، منحت لأفرادها أراضي خصبة، كانت ملكا للقبائل التي توجد مضاربها مجاورة لكل من وهران والمرسى الكبير لاستغلالها مقابل عدم بيعها، أو مغادرتها خلال السنتين المواليتين.

1- عن هذه العلاقة أنظر رسالتنا،الأحوال الإجتماعية والإقتصادية،رسالة دكتوراه الحلقة3، جامعة الجزائر،1987

ج: خصّص مائتا رجل لخدمة الحاكم العام لمدينة وهران، مزودين بالأسلحة، الخيول، وبقيّة الرجال فبقوا دائما في حالة تأهب لتلبية ما يطلب منهم عند الحاجة.

د: ارتبطتوهران بالمدن الإسبانية الجنوبية، بحيث أصبحت مسؤولية، المحافظة على وهران والمرسى الكبير من صلاحية هذه المدن، وعلى الخصوص مالقا التي خصصت إحدى جلسات مجلسها البلدي والذي شارك فيه أغلب أعيان المدينة، بوضع خطة متينة لمواجهة الأخطار التي يمكن أن تواجه الإسبان بالمدينتين.

هـ: تحويل مدينة وهران من مدينة تجارية إلى مدينة عسكرية وقد تمّ ذلك بعد خمس سنوات من احتلالها «914هـ/1509م» وذلك من خلال بناء الأبراج[1] القوية في مختلف المناطق الاستراتيجية لحماية المدينة، والمياه التي تتزود بها، كما عمد الإسبان إلى توسيع القلاع والحصون التي كانت تحيط بالمدينة قبل احتلالها.

- التوسع في النواحي القريبة منها وموقف قبائلها من الإسبان:

بمجرد بسط النفوذ على المدينة لجأت القوة الإسبانية إلى محاولة التوسع خارجها، وفي هذه الأثناء عملت على التّفرقة واستغلّت انقسامها، لصالح الاحتلال، وقد نتج عن ذلك تحالف بعضهم مع قوة الاحتلال، فشاركوا إلـــى

1- من بين الأبراج برج مرجاجو شيد من قبل الإسبان سنة «979، 1567م» لحماية المدينة ثم البرج الأحمر يقع على الضفة الشرقية لوادي الرحي على هضبة عالية تشرف على البحر أسس من قبل المرينيين ووضع من طرف الإسبان،وبرج اليهوديالذي شيد فوق رأس بحري 915هـ،1509م أنظر المرازي ،ج1، ص62.

جانب الجيش الإسباني في قمع المواجهات والانتفاضات التي قامت في بعض المناطق.

ومن بين الذين وقفوا إلى جانب الإسبان الونازرة نسبة إلى جدهم ونزار، وقد قال المشرفي في شأنهم: "أنهم من أولاد عبد الله أحد بطون بني عامر ومن جملة جند النصارى الإسبانيين الذين بوهران من الأعراب، وهم فرقة ذات بأس شديد، وصل عددهم نحو الستة دواوير عظام، وأصل مسكنهم بوادي صاء بنواحي عين تموشنت، ثم بعد ذلك انتقلوا بنواحي تارقه، فسكنوا بجبالها مع إخوانهم قيزة العامريين، ثم انتقلوا معهم وسكنوا بالجبل المطلّ على وهران في الجهة القبلية منه بنواحي تمزوغة ثم استقروا بملاتة جبلا ووطأ، وتصرفوا فيها كما شاؤوا كان ذلك قبل احتلال الإسبان، لكل من وهران والمرسى الكبير". ويبدو أن هذه الحركة التوسّعية التي لم تحدّد المصادر تاريخها أنها تمّت في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بعد طرد القبائل التي كانت مضاربها بتلك النواحي مثل مغراوة[1] وازدجة، وبنويسقن. ومن أبرز عوامل تحالفهم مع الإسبان أنهم كانوا من أقرب القبائل التي توجد مضارها قرب وهران والمرسى الكبير، فكانوا بين أمرين، إما المواجهة العسكرية، وهذا لم يكن يتم لأن إمكانيات تلك القبائل ضعيفة إذا ما قورنت بإمكانيات إسبانيا، أو التعاون مع هؤلاء بعد أن سلكت إسبانيا سياسة رشوة شيوخهم والشخصيات التي لها تأثير على القبيلة، فخلق نوعا من التعاون بينهم وبين الإسبان، فأصبحوا من جملة جنودهم المعتمدين عليهم، كما شكّلوا منهم[29]

1- مغراوة: من أبرز القبائل الزناتية، لعبت دورا خلال عهد الدولة الزيانية، وعلى الخصوص في عصر قوتها، أنظر رسالتنا، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية ص24.

المشرفي، بهجة الناظر ورقة14.

فرقا من المّخبرين يزودونهم بالمعلومات عن تحركات القبائل المعادية وقد علّق عليهم المزاري بقوله: «إن قيزة صاروا عند الإسبانيين لصوصا الونازرة صاروا لهم زمالة»[1] هذا ما يتعلق بالقبائل التي وقفت إلى جانب الإسبان، لكن هنالك قبائل وقفت ضد الاحتلال الإسباني، وكذلك العلماء الذين رفعوا شعار الكفاح ضد الغزو الأجنبي، وتولوا قيادة كتائب المجاهدين. ومن أبرز القبائل التي عارضت الإسبان قبيلة سويد، وعلى الخصوص قبيلة هبرة وكان ذلك بعد احتلال وهران مباشرة حيث عمد حاكمها الذي عرف بالقوة. وقد علّق عليه صاحب كتاب سعد السعود بقوله: « ولما استقلّ قدمه بها صار يشن الغارات على المسلمين، إلى أن دخل في طاعته كرشتل، وبنو زيان، والونازرة، وقيزة، وعمرة، وحميان، وشافع، وأولاد عبد الله، وأولاد علي، وغيرهم من بني عامر، ولم يخرج عن طاعتهم من المجاورين لهم غير بوحسون، الأمحبس، والرقاقة المستقرين بين البحر وجبل هيدور[2]، مع جبل قيزة[3].

وهذا ما يؤكد بأنهم إضافة إلى احتلالهم لوهران، والمرسى الكبير كانت استراتيجيتهم تتمثل في التوسّع نحو المناطق الداخلية، وهو ما جعلهم يشنّون الغارات على القبائل التي توجد مضاربها مجاورة لوهران، كما استطاع الكاتب أن يحدّد لنا القبائل العربية والبربرية أو بعض بطونها المجاورة لوهران، التي انقسمت بدورها إلى مؤيد ومعارض للإسبان.

1- المشرفي، بهجة الناظر، ورقة14.

2- هيدور، نسبة لشيخ هيدور تماما، وهو مغراوي على أي حال، انظر المزازي المصدر السابق ج1 ص68.

3- قيزة، نسبة لإحدى القبائل التي تعاونت مع الإسبان، مضاربها قريبة من مراكزهم، ولذا استمر هذا التعاون حتى تحريرها، انظر ابن زرفة، الرحلة القمرية ورقة19.

ومن المعارضين، بعض بطون قيزة بسفوح جبل هيدور في المرحلة الأولى وهو ما دفع بالإسبان إلى إقامة حصن مرجاجو الذي كان الهدف من بنائه مراقبة القبائل المحاذية، وحماية وهران في حالة الهجوم عليها من مرجاجو، وهيدور.

وقد رأينا فيما سبق أن القبائل التي فشلت في مواجهة الإسبان، انطوت تحت السيطرة الإسبانية، وهو ما جعل المشرفي يعلّق على ذلك بقوله: «وصار الداخلون في طاعته شيعة الذين ينصرونه، ويعتمد عليهم في جلب الأخبار والمسير بهم في الطرق في الليل والنهار، واتخذوا منهم الجواسيس الذين يقال لهم المغاطيس».

وهذه إشارة إلى أن الأسبان استطاعوا أن يخلقوا فجوة بين القبائل، بعضهم تحالفوا معهم واستعملوا في مواجهة القبائل المعارضة لهم، بل كانوا يغيرون معهم على القبائل البعيدة من وهران في الليل والنهار، وهم الأدلاّء لهم لمعرفتهم بالطرق الآمنة، في حالة الإغارة على القبائل، وأغلبها يتم في الليل.

فانضمام القبائل إلى جانب الاسبان سهّل لهم المهمة في الإغارة على القبائل وهو ما جعل هذا المؤرخ يعلّق على ذلك بقوله: «فقويت شوكته، واشتدت قوته، وتعددت غزواته على الأقربين والأبعدين والأنزلين والأصعدين»[1].

لذا فالإسبان عجزوا في البداية عن القيام بغارات خارج وهران، لكن عندما انضمت لهم تلك القبائل وبطونها أصبحوا يغيرون على أي فبيلة من القبائل،

1- أبو راس،عجائب الأسفار، ورقة 46، المزاري،المصدر السابق،ج1، ص136، الجامعي،فتح وهران، ورقة 11.

ومن بين الذين تأثروا بالغارات[1] الإسبانية على مضاربهم قبائل سهل ملاتة وسيرات، ولكثرة الهجومات عليها من قبل الإسبان أصبح نفوذهم يشمل كل المناطق وهو ما جعل البعض يعلق على ذلك بقوله: " من جملة بلاده التي تحت يده وشداده يتردد بها في ليله ونهاره، ولا منازع له فيها باضطراره واختباره"[2].

- أهم المعارك خلال هذه الفترة:

من أبرز المعارك بين الاسبانيين وهبرة ما يلي:

* غزوة يعلو:

هذه الغزوة قام بها الإسبان ضد إحدى بطون قبيلة هبرة التي توجد مضاربها بيعلو، ولم تقتصر عملية مواجهة الإسبان على رجال هبرة، فقط، ولكنها شملت الطلبة الذين كانوا يزاولون دروسهم بالزوايا القريبة من ميدان المعركة فاستشهد منهم حوالي ثلاثين طالبا دفنوا بنفس المكان الذي وقعت فيه المعركة، وعرف ذلك المكان منذ ذلك التاريخ بمقبرة الطلبة، وهذا دليل ملموس على الدور الإيجابي للزوايا في ذلك الحين كون طلابها في مقدمة المدافعين عن مضارب القبائل أمام الغارات الاسبانية، كما قتل في هذه المعركة سبعون فارسا من هبرة وجرح أربعون.

أما الجيش الإسباني ففقد في هذه المعركة ثلاثمائة وجرح ثلاثون، ولشدة المواجهة من طرف الهبريين دفع بالإسبانيين إلى الفرار من ميدان المعر-

---

1- علق أبو راس على ذلك فقال: وعاث ذلك ببطحتها مجتليا: على الإيمان فلم يلب بمفترس ورج أرجاءها لما أحاط بها، فأبدلت ثم أعلا مها بالغطس وشحنت بخنزيرهم وصلباتهم: مواضع الإيمان بها ذو توس.

2- أنظر المزاري، المصدر السابق، ج1، ص212.

وترك الأثقال فاستفاد منها السكان، كما نتج عن هذه المعركة هجرة الهبريين من هذه المضارب حتى لا يتعرضوا لانتقام القوة الإسبانية فانتقلوا الى أحجار الروم بالجانب البحري[1] ولعل المقصود بها مدينة ارزيو حاليا التي كانت بها آثار رومانية في عهد الدولة الزيانية، وقد استغل البعض منها متاجر للملح[2] الذي كان ينقل من سبخة وادي جمعة، ومنها يصدّر إلى الدول الأوروبية. والبعض منهم إنتقلوا لوادي سيق لأهميته وقربه من القبائل، مما يجعلهم يجدون المساعدة منهم في حالة الهجوم عليهم.

*** غزوة سيدي لخضر[3]:**

ومن بين المعارك التي خاضتها قبيلة هبرة ضد الاحتلال الإسباني هي معركة سيدي لخضر بمضارب قبيلة حميان والتي لا تزال تحتل نفس المكان، ويبدو أن القوة لم تكن متكافئة، إلا أن الهبريين صمدوا في المعركة على الرغم من الخسائر التي لحقت بهم والتي وصلت إلى استشهاد مائتي هبري وجرح ثلاثين، أما فيما يتعلق بالإسبان فقد فقدوا في المعركة أزيد من ستة وسبعين من رجالهم .

*** غزوة القصبة:**

وقعت هذه الغزوة بالقرب من قلعة بني راشد ويعتقد أنها وقعت تحديدا أسفل قصبتها وقت الضّحى وقد وصف صاحب كتاب سعد السعود المعركة

1- المزاري ، المصدر السابق، ج1، ص212.

2- استغلال الملح استمر حتى هذه الفترة موضوع البحث، وقد أورد المازوني فتوى تتعلق باستغلال هذا الملح. أنظر الفصل من هذه الراسلة.

3- يبدو أن هذه المعركة وقعت مضارب حميان التي تشكل الأن جزاء من ولاية غليزان ويبدو أن الإسبان نقلوا بعض بطونها لمجاورة مراكزهم.

بقوله " فلا ترى إلا رجال هبرة كأنها أسود هائجة في القتال يكبرون عليهم الكبرة الهلالية مرة بعد أخرى"[1].

وهذا ما يفيد بأن المعركة بين الطرفين التحمت فيها القوتان واستعمل السلاح الأبيض، مما زاد في عدد الخسائر، كما وقف حلفاء كل طرف إلى جانب إحدى القوتين، فالهبريون تحالفوا مع بني شقرون مما جعل بعض فرسانهم يشاركون في المعركة وحدث عكس ذلك لأولاد علي الذين وقفوا إلى جانب الاسبان، ولكن على الرغم من ذلك فالهزيمة كانت على الاسبان، فقتل منهم ومن حلفائهم عددا كبيرا.

*** غزوة عوينة الزيتون**

فهذه المعركة كانت نتيجة المعركة الأولى، لأن الاسبان يريدون الإنتقام مما لحق بهم في المعركة الأولى، لذا فالتجنيد في صفوف الاسبان أكبر من الأول، ويبدو أن ميدان المعركة تم اختياره من القوة الإسبانية، فقد وقعت بين الهبريين والإسبان بعوينة الزيتون من بلد العبيد الشرقية وانطلاق القوة الإسبانية كان من مزغران خلال الليل، في الوقت الذي كان فيه سكان هبرة نائمين، مما سبب خسارة كبيرة وصلت إلى سبعمائة ما بين الرجال والنساء والأطفال كما نهب الإسبان مضارب القبيلة، فأخذت مواشيهم، ومن بين عوامل الهزيمة تحالف أولاد حمدان من المجاهر مع الإسبان لسوء التفاهم بينهم وبين هبرة.

*** غزوة سيدي مبارك**

وقعت هذه المعركة في المكان المعروف بسيدي مبارك ضمن مضارب أولاد هداج، لأن هبرة كانوا موزعين بين سيرات الشرقية والغربية والساحل

1- المزاري ، المصدر السابق، ج1، ص213.

والجبال، وأن هجوم الإسبان كان موجّها بالدرجة الأولى إلى مضارب أولاد هداج، وشارك إلى جانب الإسبان القبائل الموالية لهم أمثال قيزة والونازرة وأولاد علي، مما جعلهم يشدّدون الحصار على القبيلة ولم يتركوا لها مخرجا يمكن الفرار منه، مما أدى إلى أسرهم عن آخرهم.

وعندما وصل الخبر إلى إخوانهم الموجودين في مناطق أخرى من سيرات وساحل البحر، هاجموا الإسبان وحلفاءهم من القبائل العربية والبربرية وتمكنوا من تحرير الأسرى، وعلى الرغم من تحريرهم فإن خسائر الهبريين كانت كبيرة للغاية، حيث سقط أكثر فرسانها مما أضعفها.

*** غزوة سيدي عبد الرحمن العماش:**

أما الغزوة الأخيرة التي ورد ذكرها، هي أن الإسبان خرجوا من وهران واتخذوا الطريق الساحلي حتى لا يكتشف أمرهم، ولعل ذلك تمّ في الليل، ثم انتقلوا إلى سيدي عبد الرحمن العماش قبل أن يعلم أهل هبرة بخروجهم، مما جعلهم يقتربون من مضاربهم ولما علموا باقترابهم منهم اتجهوا إلى أحد الأولياء في المنطقة وهو عبد المؤمن بن علي.

وقد فصل بين القوتين وادي الحمام ووادي سيق، فسقطت الأمطار خلال تلك الفترة ووجد فيضان للواديين المذكورين فأدى إلى مقتل عدد كبير من الإسبان.

الفصل الثالث

الأوضــــاع السياســـة

ما بين 925-942 هـ/1517-1535م.

إن إختيار سنة «923/1517م» كبداية للفصل الثاني من هذه الرسالة، يرجع إلى عاملين أساسيين:

أولهما: إن سنة «923/1517م» عرفت سقوط عروج شهيدا في ميدان المعركة، كنتيجة للتحالف الذي وقع بين السلطان أبي حمو موسى الثالث والإسبان، وإن استشهاده يعتبر ضربة قاضية لمشروعه، الذي كان يرمي من ورائه إقامة دولة جزائرية قوية، يمكنها الوقوف أمام المشاريع الأساسية، التي تهدف إلى ربط أراضي الدولة الزيانية، بإسبانيا، وتمسيح سكانها.

ثانيهما: أن هذه السنة عرفت إمضاء معاهدة الخزي والعار، التي أمضاها أبو حمو موسى الثالث مع الإسبان، فكانت سببا في إنهاء سيادة الدولة، وأصبح هذا الأمير من أتباع التاج الإسباني، ولقب حاكم وهران بعدها بالحاكم العام لوهران وإمارة تنس، وتلمسان.

- الصراع بين أمراء هذه الفترة واستغلاله من قبل الدولة الجزائرية والإسبان:

*** أمراء هذه الفترة أبو حمو موسى الثالث:**

سبق لنا في الفصل الأول التعرض للسلطان أبي حمو موسى الثالث الذي تولى شؤون الدولة، بعد مؤامرة لإزاحة السلطان الشرعي، أبو زيان.

كان أول خطر واجهه هذا السلطان هوعروج: فعندما وصلته معلومات تتعلق باقتراب عروج من تلمسان اتصل بحلفائه من القبائل العربية والبربرية ثم برح تلمسان نحو سهل اغبال، يرسم قطع خط عروج المتوجه إلى السهل المذكور، فهجم عليه لكن هذا الأخير هزمه شر هزيمة.

والسبب في الهزيمة ما يلي:

أولا: أن القوة الزيانية التي كانت تحت إشراف السلطان أبو حمو الثالث، كبيـــرة لكنها لم توقف الهجوم، على الرغم من قلة عدد القوة التابعة لعروج، وهو ما يوضح لنا مرة أخرى أن القوة الزيانية كانت غير متماسكة لتشكلهـــا مـــن القبائل المتصارعة فيما بينها، التي لا يهمها قيام أو زوال الدولـــة الزيانيـــة، لذلك أصيبت بهزيمة أخرى تضاف إلى الهزائم المتوالـــية التي عرفتها هذه الدولة منذ مطلع القرن«10 هــ/16م».

- **سقوط الدولة الزيانية:**

يعتبر دخول عروج لتلمسان أول سقوط للدولة الزيانية في القرن10هـ/ 16م[1] بعد أن سقطت مرارا بيد الحفصيين[2] ثم المرينيين[3] خلال العصور السابقة فكان مصير أمرائها التحالف مع القوى الخارجية لاستعادة سلطانهم.

ولهذا توجه أبو حمو موسى الثالث، إلى فاس طالبا المساعدة من قبل سلاطين بني وطاس، إلاّ أن هؤلاء لم يقدمو له ما كان يرغب فيه، ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى الاتصالات التي تمت بين عروج وبني وطاس لخلق تحالف فيما بينها.

وعندما عجز في تحقيق هذا التحالف اتجه إلى وهران فاتصل بحاكمها الذي سهل له مهمة الإنتقال إلى إسبانيا للإتصال بشارل الخامس، وتذكر المصادر أنه إرتمى بين رجليه متضرعا ومستنجدا ضد عروج.

- **أبو زيان الثالث :** 923-1517

عندما دخل عروج تلمسان، أطلق سراح أبو زيان4 وولاّه شؤون الدولة، لكن هذا الأخير لم يكن يثق في عروج، لأنه خشي أن يقع له ما وقع لسليم بـــن التومي، لذا حاول كسب ود التلمسانيين لمناصرته ضد عروج وفي هذا

1- مرمول، وصف إفريقية،ج 2 ،ص 307،يعلق صاحب تكملة بغية الرواد على دخول عروج لتلمسان فيقول: بويع أبوحمو بعد موت أبيه أبو عبدالله فكانت مدة خلافته ثمانية عشر شهرا ثم خلعوه طائفة الأتراك بإغراء القاضي أبي يحيى العقباني و ابن يوسف الزياني بغية الرواد،ورقة 84.

2- سقطت في يد الدولة الحفصية سنة 639 هـ، 1240-1241.

3- أما الدولة المرينية فكانت سنوات 737 هـ، 1337 م و771-1370 أنظر ابن خلدون العبر،مجلد7، ص:275 ابن خلدون يحيى بغية الرواد، ج2، ص:136.

4- لمؤلف مجهول غزوات عروج وخير الدين، ورقة 14ج أنظر: M.M Sander Rang and Ferdinand. op.Cit, P.174 .

الصدد يقول مرمول: «أن خير الدين لما دخل تلمسان استعمل عليها عروج، ثم بعد إنصرافه تعصب المسعود من ملوك تلمسان بجيش عظيم، وخطب على منبر الجامع الأعظم، وذكر شؤون ملوك الجزائر، ورغب الناس في مساعدة بني عبد الواد، فهجموا على عروج. ثم زحف إليهم بمن معه، وكان شديد البأس، فدخل تلمسان عنوة وقتل سبعمائة من المترشحين للملك من بني زيان، وستون من بني عمّهم، وأكثر من ألف من أهل البلد»[1]. أما ابن زرفة فيقول :«بعث أخاه عروج رايس لمحروسة تلمسان، فاستولى عليها بعد أن قتل سبعا من سلاطينها، ونحو السبعين من أكابر بني عبد الواد، وما يزيد عن الألف من كبرائها»[2].

نستخلص من النصين ما يلي:

أولا: أن هناك خطأ في النص الأول فيما يتعلق بخير الدين، فالمصادر تجمع على أنه لم يترك الجزائر خلال توجه عروج لتلمسان للدفاع عن المدينة في حالة الهجوم عليها.

ثانيا: يتفق النصان على أن أبا زيان قتل من طرف عروج، مع مجموعة من شيوخ بني عبد الواد، وافراد الأسرة الحاكمة، والموالين لهم من أعيان المجتمع التلمساني.

1- مرمول،المصدر السابق،ح 2،ص:307،أنظر أيضا لمؤلف مجهول غروات عروج و خير الدين ورقة 14جـ أنظر أيضا أبو راس،عجائب الأسفار،مخطوط المكتبة الوطنية تحت رقم 1634 ورقة 136

2- ابن زرفة، نفس المصدر، ورقة 23،أنظر أيضا : Bargrs : complément de histoire des béni zeyan, Rois de Tlemcen, Paris 1887 P.431

- ولاية أبو حمو موسى الثالث للمرة الثانية ومواجهته لخير الدين

يذكر السليماني الصراع بين خير الدين وأبي حمو موسى الثالث، لكنه لم يحدد لنا تاريخه، لكنه يبدو لي أن السلطان أبا حمو موسى الثالث اغتنم هو الآخر انشغال خير الدين بأحداث الجهة الشرقية، والتي تسبب فيها ابن القاضي، فحاول الهجوم على مدينة الجزائر، إلا أن خير الدين خرج إليه فهزمه شر هزيمة، وتوغلت جيوش الدولة الجزائرية في الأراضي التابعة لبني زيان، ولم يتمكن سلطانها إيقاف الهجومات المتواصلة من قبل خير الدين وهو ما جعل السليماني يعلق على ذلك بقوله: «وتوغلت جيوش خير الدين في الناحية الغربية، وقد اعترضها السلطان أبو حمو مرتين فانهزم فيهما وتلاشى مرة أخرى»[1] وأن سبب تلك الهزائم يرجع إلى عاملين أساسيين.

أ: أن المساعدة التي طلبها بنو زيان من حاكم وهران لم تصلهم و لعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى عدم تقديم الدعم، من قبل أبي حمو موسى الثالث للحملة التي وجهتها إسبانيا ضد مدينة الجزائر924هـ/1519م[2].
حسب ما كان متفقا عليه[3].

1- السليماني،المصدر السابق،ج 3، ورقة 112. عن هذا انظر: carres Ponencia de don huzo de oncada, y otras, Personajes, son el Rey, catholico y el emperero, carlos V, Codoin XXIV PP 79-514

2- أنظر: Ximenez idandoval: C. las inscripciones de Oran y mazalquvir P .15

3- يذكر صاحب بغية الرواد أن السلطان مولاي أبو حمو موسى الثالث تولى عرش الدولة الزيانية للمرة الثانية سنة 935هـ،1528م و هذا غير صحيح:لأن عروج خرج من تلمسان سنة923هـ،1517-1518م أنظر بغية الرواد،ورقة84 و لمزيد من المعلومات أنظر رسائل مولاي أبي حمو موسى الثالث للإسبان أرشيف سيمنكاس،ص:67-65-F59 XXXIII le .zojo

ب: إن القبائل الحليفة التي وقفت إلى جانبه في مواجهة القوة الجزائرية في كل من قلعة بني راشد[1]، وتلمسان لم تستمر في موالاتها له، وهذا كان من بين عوامل فشله كما كان سببا في السيطرة على كرسي الحكم بتلمسان.

- أبو سرحان المسعود:

وقع إختلاف بين الباحثين في شخصية المسعود ومن بين هؤلاء السليماني[2] الذي يرى بأن مولاي أبا زيان هو الذي أصبح فيما بعد يعرف بالمسعود، وقد سبق له أن فرّ من تلمسان إلى المغرب الأقصى، خوفا من عروج بعد أن إكتشف المؤامرة التي دبرتها إسبانيا للتخلص منه. بمساعدة الأخوين أبي حمو موسى الثالث، وأبي زيان وهو ما يؤكده بقوله: «وجاء أخوه المسعود من المغرب الأقصى بعدما قام نازحا به مدة طويلة متطارحا على خير الدين طالبا عفوه ومؤملا الآلة بتلمسان». وقد وافق خيرالدين على ذلك لأنه كان يرغب في أن يكون أمير تلمسان مواليا لكي يقف أمام الخطر الإسباني الذي إزداد بعد استشهاد عروج[3]، وحتى يضمن استمرار هذا الولاء قيد المسعود بمجموعة من العهود مقابل الوقوف إلى جانبه ضد السلطان أبي حمو موسى الثالث منها:

1- قلعة بني راشد نسبة إلى قبيلة بني راشد، وهوارة نسبة إلى قبيلة هوارة توجد بولاية غليزان وكانت تحتل أهمية كبرى خلال فترة موضوع البحث تعرض جزءا منها إلى التدمير خلال سنة923 هـ،1517م لمزيد من المعلومات عنها أنظر الحسن الوزان، المصدر السابق ص:54، مرمول، المصدر السابق،ج 2، ص:223.

2- السليماني ،المصدر السابق،ج 3،ورقة 110،أنظر أيضا: Bargrs: (J.J) complément de l'histoire des Béni-zeyan P.448, loon Feg, histoire d'Oran P.136.

3- عن إستشهاد عروج يذكر محمد بن عسكر : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر تحقيق محمد حجي الرباط1397 هـ،1977 م،ص:135، أنظر ايضا M.M. Sander Rang et:

Ferdinand denis : histoire de Barberousse Fandotien de la régence d'Alger 2 Volin 8e Paris 1837. tome II. P 178.

الولاّء للدولة الجزائرية الحديثة، وصكّ النقود باسم السلطان العثماني سليمان الأول[1]، والخطبة له بجميع منابر الدولة الزيانية[2].

مقابل ما سبق كلّف خير الدين حلفائه من قبائل الناحية، لتقديم المساعدة له، ومن بين تلك القبائل الموالية لخير الدين الحشم، وبفضل تلك المساعدة تمكن من دخول تلمسان بعدما خرج منها السلطان أبو حمو موسى الثالث، لاجئا لدى الإسبان، في وهران.

أن رواية السليماني تؤكد بأن المسعود تولى الحكم بعد أبي حمو موسى الثالث، ويتأكد هذا أيضا من نص صاحب غزوات عروج وخير الدين حيث قال: « أن أبا حمو موسى الثالث طلب من صاحب فاس، أن يرسل إليه أخويه، وأنه ما أراد بهما إلا خيرا وأنه إشتاق للقائهما، فعند ذلك قال صاحب فاس للأخوين أنتما على الخيار، إن شئتما ذهبتما إليه وإن شئتما أقمتما عندي، فاختارا الذهاب إلى تلمسان وجمع لهما طائفة من العرب، فلما قرب من أحواز المدينة، توهما من أخيهما شرا ففرا أحدهما إلى وهران، أما الآخر فإنه دخل إلى عمالة خير الدين، وبعث إليه من يستعطفه ويستعين به على ملك تلمسان، فأحس خير الدين للأحقاد المتواصلة على صاحب تلمسان فبعث إلى شيوخ العرب كتابا يدعوهم فيه إلى خلع صاحب تلمسان، وبيعة أخيه هذا وكان اسمه المسعود.

هذا فيما يتعلق بالمصادر العربية، أما الوثائق الإسبانية فتذكر بأن أول إتصال بين المسعود وشارل الخامس ملك إسبانيا الذي كان قد تولى عرش

1- سليمان الأول تولى الحكم ما بين

2- لمؤلف مجهول،غزوات عروج و خير الدين،ورقة 50.

هذه الدولة في1519/06/28 م قد تمّ في نفس السنة بواسطة أحد اليهود وهو سلمون تورينو.

نستخلص من النصوص السابقة ما يلي:

أن صاحب غزوات عروج وخير الدين لم يحدد لنا تاريخ الأحداث على الرغم من أنه كان قريبا من الحدث، فالنص يجعلنا في حيرة في ترتيب الأمراء الذين أتوا بعد السلطان أبي حمو موسى الثالث[1]، وهل المسعود تول العرش بعده؟، لأن صاحب النص بين لنا هو أخ لأبي حمو موسى الثالث، وكان قد لجأ إلى فاس، هل كان ذلك قبل دخول عروج إلى المدينة أو بعد استشهاده؟، وأن الأخوين فرا خوفا من أخيهما وأن استدعائهما يرجع بالدرجة الأولى إلى خوف أبي حمو من تحالفهما مع الوطاسيين[2]، لتوليهما السلطة، وهذه الظاهرة أصبحت السّمة البارزة بالنسبة لأمراء الدولة الزيانية لأن كل واحد منهم يريد الوصول إلى السلطة لابد له من الإعتماد على قوة خارجية. كما أن انفصال الأخوين بعضهما عن البعض الآخر يدل أيضا على الضعف وعدم التفاهم فكل واحد يريد السلطة لنفسه، وهو ما جعل أحد الأخوين يتجه لوهران طالبا المساعدة من الإسبان بينما الآخر يميل لخير الدين، وقد لبّى طلبه للأحقاد المتواصلة بينه وبين السلطان الزياني أبي حمو موسى الثالث الذي كان مواليا للإسبان، لكن مرمول[3] يرى عكس ذلك فالذي تولّى الحكم بعد السلطان

1- يذكر أن السلطان أبا حمو موسى الثالث حكم بعد إستشهاد عروج للدولة الزيانية لمدة تسعة أشهر وخلافة المولى أبو سرحان المسعود فكانت مدة خلافته ثلاثة أعوام غير ثلاثة أشهر،أنظر بغية الرواد،ورقة 84.

2-الدولة الوطاسية نسبة إلى زيادة الله بن عمر الوطاسي

3- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 326، يرى جوج مارسي G.Marçais في : Encyclopédie de l'islam nouvelle édition, tome 1, P9.

أبــو حمو موسى الثالث هو الأمير عبد الله، وهذا يختلف عن ما ورد في النص السابق (غزوات عروج وخير الدين) إن الذي تولّى الحكم بعد أبيحمو موسى الثالث هو الأمير أبو محمد عبد الله الثاني بن محمد الثالث، وبهذا يختلف الذين يرون بأن نهاية أبيحمو موسى الثالث كانت سنة1518، بينما يرى البعض أنه استعاذ العرش سنة1518 تؤكده الوثائق الإسبانية وأنه مال إلى جانب الدولة الجزائرية، وفي هذا الصدد يقول: « إن ملك تلمسان أبا حمو موسى الثالث الذي أعاده الإسبان إلى عرشه أدى طول حياته ما وعد به ملك قشتالة، من أتاوة، وبعد موته نقض أخوه عبد الله العهد رافضا أن يؤدي أي شيء، وذلك بالضغط من بعض الفقهاء ومن خير الدين الذي أمّن له حماية الخليفة الأعظم العثماني وحكم بضع سنين، لما مات لم يخلفه ابنه البكر المعتاد وإنما نصب بربوس مكانه الابن الأصغر أحمد أبو زيان »[1].

أما السليماني[2] فيرى أن أبا زيان هو الذي أصبح فيما بعد يعرف بالمسعود وقد سبق له أن فرّ من تلمسان إلى المغرب الأقصى خوفا من عروج، بعد أن إكتشف هذا الأخير المؤامرة التي دبرتها إسبانيا للتخلص منه بمساعدة الأخوين، أبي حمو موسى الثالث، وأبي زيان، وهو ما يؤكده بقوله: « وجاء أخوه المسعود من المغرب الأقصى، بعدما أقام به مدة طويلة، متطارحا علــى خير الدين، طالبا عفوه ومؤملا الآلــة بتلمسان».

1- يجعل جورج ماسي في مقالة عن بني عبد الواد ترتيب ملوك بني زيان كما يلي، بعد السلطان أبو حمو موسى الثالث 923-934 هـ، 1517-1527 م أبو محمد عبد الله الثاني 934-947 هـ، 1527-1540 م، أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة عبد الوادي، مجلد 1، ص 962.

2- السليماني، المصدر السابق، ج3، ورقة 111.

فالذي يمكن التوصل إليه مما سبق أن مرمول يجعل مولاي عبد الله بعد السلطان أبو حمو موسى الثالث، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أنّه تولى الحكم في فترتين أبعد في الأولى، ثم رجع بعد سوء التفاهم بين المسعود وخير الدين، لذا يجد الباحث صعوبات، إلاّ أن هذه الأخيرة تمّ حلها بحصولنا على أول مراسلة بين المسعود وشارل الخامس والتي ترجع إلى سنة 1519م ولذا نستنتج منها أن السلطان أبا حمو الثالث قد انتهى حكمه في سنة1519م وهي السنة التي تولّى فيها الحكم المسعود[1] والأمير أبو عبد الله، الذي ورد ذكره في المصادر هل هو أخ لأبي حمو أو ابن له؟ وهل هو الذي وعد الإسبان بإرسال قوة لاستعادة الجزائر؟.

ومما يؤكد أيضا على أن المسعود هو الذي تولّى الحكم بعد السلطـــان أبـــو حمو الثالث ما ذكره الصباغ في معرض كلامه عن محمد بن يوسف الملياني، قال أنه:« لمّا دخل تلمسان سجنه السلطان أبو حمو موسى الثالث، وبقي عنده أياما، وأختبره بأن جعل له على الطعام دجاجتين، إحداهما مذكاة وأخرى ميتة، فقال الشيـــخ حلال للمذكاة وهذه حرام ».

1– هناك روايتان تتعلقان بنهاية السلطان أبو حمو موسى الثالث الأولى تذكر أنه توفي بعد مقتل عروج بفترة زمنية قصيرة أي حوالي 924 هـــ ، 1518 م و الثانية ترجع تاريخ الوفاة إلى 935 هـــ ، 1528 م و لعل الأولى هي الأصح لأنه كان من المفروض أن يشارك إلى جانب الإسبان في حملة هيجود منكادا Hugo de mancodo على الجزائر 924 هـــ ، 1518 م.

ويقال أنه بعث إليه رجل فقال له: سرحتك، فقال الشيخ للرسول: لا أخرج حتى يخرجوا جميعا. بعد أيام قدم الأمير المسعود[1]، خارجا على أخيه فهرب أبو حمو لوهران، ودخل المسعود تلمسان فأخرج الملياني من سجنه[2].

يتضح من النص أن الذي سجن الملياني هو السلطان أبو حمو موسى الثالث، وليس أبو عبد الله، وأن سجنه كان في المرحلة الأخيرة من حكم هذا الأمير، أي بعد سقوط وهران والمرسى الكبير، ولعل ذلك تمّ بعد معركة قلعة بني راشد، التي شارك فيها مجموعة من تلامذة الملياني، واستشهد بعضهم دفاعا عن الإسلام والمسلمين، كما تذكر المصادر تحالف محمد بن يوسف الملياني مع عروج، ثم خير الدين فيما بعد مما ألب عليه السلطان أبو حمو، الذي لم يكتف بسجنه بل حاول قتله، وحرقه[3]، وأن خروجه من السجن كان بعد ولاية المسعود الإمارة، ولعلّ إطلاق سراحه من هذا الأمير، هو محاولة منه لكسب المرينيين للزاوية الراشدية، ومحو ما قام به السلطان أبو حمو نحو الملياني من جهة، وتحالفه مع الإسبان في وهران من جهة أخرى[4].

لكن تولّي المسعود لم يضع حدّا للصّراع داخل البلاط الزياني أما السليماني يتفق مع صاحب غزوات عروج، وخير الدين على أنه كان بالمغرب الأقصى

1- ابن زرفة الرحلة القمرية ورقة 140، غزوات عروج و خير الدين و ورقة67 الصاغ، المصدر السابق. ورقة 15 12 حسب إحدى الوثائق هو ابن أبو عبد الله محمد الثابت حكم ما بين 817-911 هـ، 1473-1505م، أنظر: Berges OP Cit P 403. P 415-427.

2- الصياغ زهر البستان،ورقة 13 أنظر أيضا محمد بن عبد الجليل الإعتبار و جواهر الإختبار والتعريف بالنبي المختار،مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1647، ورقة 17.

3- للصاغ ، نفس المصدر، ورقة 14.

4- يذكر ليون فايي: léon Fey أن الضريبة التي فرضت على السلطان أبى حمو موسى الثالث لفائدة الإسبان قدرت بـ 12.000 دينار.Fey Henry léon OP.Cit P 233

قبل توليه السلطة[1]، وأن المساعدة التي قدمت إليه جاءت من القبائل الموالية لخير الدين والذي كان يستغلها في بعض الظروف، لذا كلّفها بمبايعة السلطان الزياني وخلع السلطان الأسبق، لأن شيوخ القبائل العربية كان لهم دخل كبير في عزل وتعيين أمراء هذه الدولة، كما جمع له مجموعة من جنود الدولة الجزائرية تمكن في النهاية من دخول تلمسان وتولى عرشها.

- الولاء للإسبان:

رغم هذا النصر الذي حقّقه المسعود بالسيطرة على تلمسان بفضل إرتباطه بخير الدين، إلا أنه مال إلى جانب الإسبان وهكذا نرى بأن الدولة الزيانية بعد موت أبي حمو موسى الثالث، دخلت مرحلة جديدة في إنهيارها، نتيجة الصراع بين الأخوين أبي محمد عبد الله الثاني وأبي سرحان تجاه كل من الدولة، الجزائرية و الإسبانية.

فالإعتماد على الدولة الجزائرية، يرجع بالدرجة الأولى إلى الإمكانيات العسكرية، التي جندت من قبل هذه الدولة وقد بيّنت المعارك التي خاضتها بأن قوتها لا يمكن الاستهانة بها.

أما الإسبان فكان لهم نفوذ في المنطقة، للتحالفات التي أبرمت بينهم، وبين شيوخ قبائل الناحية، الذين يموّلون الجيش الزياني بالجند، وبدافع غرور المسعود، تخلّى عن خير الدين فاتصل بالإسبان مما جعل خير الدين يوجه إليه

1- السليماني،المصدر السابق،ج 3،ورقة لمؤلف مجهول غزوات عروج و خير الدين،ورقة 52.

كتابا يلومه فيه على ما فعل وقال فيه: «إنما تماديت على موالاة النصارى، والإنحياز لهم لابد أن أنتقم منك غاية الإنتقام وأجعلك حديثا بين الأنام »[1].

- علاقة مولاي عبد الله[2] بالدولة الجزائرية:

عندما علم مولاي عبد الله الذي ترك المسعود بضواحي تلمسان، سوء العلاقة بينه وبين خير الدين، اغتنم فرصة توسّعه على حساب أخيه المسعود، فاتصل به وفي هذا الصدد يقول صاحب غزوات عروج: «وكان السلطان أخ لو المسعود، الذي فرّ إلى وهران عندما علم بما وقع بين خير الدين وأخيه المسعود طمع في تملك تلمسان مرة أخرى، فاتصل برجل صالح من أصحاب الوطن، يستشفع به إلى خير الدين وكان من جملة ما قاله صاحب تلمسان المستقر عند النصارى، إن خلّفني خير الدين وولاّني ملكي، أكون عبدا من عبيده، يتصرف في كيف شاء فتوجه إليه، ذلك الرجل الصالح برسم الشفاعة في صاحب تلمسان المخلوع فكان من جملة ما قاله: « أيها الشيخ إن ذلك الرجل قد رسخ الكفر في صدره، وهذا القبيل من ملوك تلمسان لا يقرون للخير، ولا يشكرون على نعمه، فلا يقابلون عمل الجميل إلا بالقبيح، وأنت أيها الشيخ تعلم حاشا أهل الإسلام، أن يكون منهم هؤلاء القوم، ولكن لا أخالفك وأقبل هذا العذر»[3].

1- لمؤلف مجهول،غزوات عروج و خير الدين، ورقة 53.

2- يذكر صاحب بغية الرواد أن الذي تولى الحكم بعد المسعود هو أبو مناد عبد الله و كان ذلك سنة 927هـ، 1520 م بعد مقتل المسعود بغية الرواد،ورقة 84،و أن المسعود في رأيي صاحب هذا النص حكم ثلاثة أعوام غير ثلاثة أشهر.

3- لمؤلف مجهول : غزوات عروج و خير الدين، ورقة 53.

ثم أن خير الدين بعث إليه، ليقدم عليه بالجزائر ليتفاوض معه في أمر تلمسان، فأجابه بكتاب يقول فيه: أنا لا أقدر على القدوم إليك خوفا من أخي، فإنه جعل من يترصّدني في الطريق برسم إمساكي، وإذا أردت أن يحصل الفرض الذي أحلته منك فأعمل الحركة إلى مدينة مستغانم، فإن افتتحتها أقمت أنا بها وبذلك يقع الرأي عليه استخلاص تلمسان، لكن هذه الموالاة للدولة الجزائرية لم تستمر طويلا لأن المسعود دخل في حلف مع ابن القاضي[1]، والسلطان الحفصي، فاتفق الثلاثة على القيام بثورة ضد خير الدين الذي أصبح يشكل خطرا على بقاء نفوذهم بالمغرب الإسلامي، ويبدو أن هناك مراسلات تمت بين الأطراف الثلاثة وقد تعرض صاحب غزوات عروج وخير الدين لبعضها.

وقد اعتمد السليماني[2] هذا الموقف بقوله لم يلبث المسعود الزياني أن دخل في محالفة ابن القاضي والحفصي وجاهر بالعصيان، لكن هذا الأخير كان رده سريعا وقد استعمل في ذلك أسلوبين.

أ: الاتصال بالمسعود، ومطالبته بالوفاء بلاتفاق الذي تم معه، إلا أنه أساء للوفد الذي قدم من الجزائر لتلمسان، مما جعل خير الدين يلجأ إلى أسلوب المواجهة العسكرية، فجّهز الجند وإنطلق من الجزائر برا وبحرا، نحو تلمسان والمناطق الشرقية التابعة للدولة الزيانية.

1- Boulifa (S.A): la djurdjura a travers l'histoire depuis l'Antiquité jusqu'à 1830, Alger, 1925, P89

2- بني عبد الواد قبيلة زنانية إستقرت حول تلمسان في بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي ويطلق على الدولة الزيانية دولة بني عبد الواد نسبة لهذه القبيلة وقد تعرض الأب Barges في مقاله المنشور بدائرة المعارف الإسلامية مادة الزيان بنو مجلد 10 ص 473 - 474. أنظر أيضا: Brosse lard (ch); Op cit P5 à 197.

في الوقت ذاته ظهر أمير زياني معارض للمسعود وهو السلطان مولاي عبد الله، إلاّ أن صاحب غزوات عروج وخير الدين يرى بأن السلطان أبا حمو موسى الثالث ظهر من جديد بعد سوء العلاقة بين المسعود وخير الدين، فاتصل بخير الدين معتذرا له عما سلف منه في حادثة عروج فعفا عنه، وأذن له بالإقامة عنده، ثم قدّم له يد المساعدة التي سمحت له بالتوجه إلى قلعة بـــنـــي راشد للاستيلاء عليها، وقد كانت بها حامية زيانية تابعة للأمير المسعود ففرت منها قبل وصول قوة السلطان أبي حمو وحلفائه من القبائل الموالية لخير الدين، ثم انتقل هذا الأخير إلى تلمسان فاعترضه المسعود بجيوشه وحلفائه من بني عامر وغيرهم، فوقعت الهزيمة على المسعود وتتبّع أبو حمو موسى الثالث أثرهم وفي نفس الوقت كان أتباعه بداخل تلمسان ففتحوا له ّالأبواب فدخلها وتولّى الحكم بها إلاّ أن خير الدين خلال هذه الفترة واجه ثورة ابن القاضي، وعندما عجز على القضاء عليه ترك الجزائر وتوجه إلى جيجل وفي تلك المدة أعلن السلطان أبو حمو الإنفصال على الدولة الجزائرية ودعى لنفسه.

- تحـــالف مولاي عبد الله مع ابن القاضي:

كانت الإتصالات التي أجريت بين السلطان الزياني وأحمد بن القاضي وصلت إلى خير الدين بواسطة أعوانه المندسّين في تلمسان لمراقبة تحركات السلطان الزياني، ولعلّ البعض منهم، كانوا من المقربين لهولاء الأمراء، لذلك عندما علم خير الدين بهذا الحلف أراد فكّه، لأنه لو تمّ سيكون له تأثير سلبي عليه، ولو حدث سيمنح قوة لابن القاضي في الشرق والغرب، مما دفع به إلى الإتصال بالسلطان الزياني، الذي سبق أن قدّم له يد المساعدة ومكّنه مـــن التخلص من الأمير المسعود والجلوس بدله على عرش الدولة الزيانية، وهو

ما يوضحه مؤلف غزوات عروج وخير الدين بقوله: "ولما سمع خير الدين بما دار بين صاحب تلمسان، وبين ابن القاضي من المراسلة في شأنه، وجّه كتابا إلى صاحب تلمسان يلومه فيه على ذلك ويحذره[1]، ولم يتوقف الأمير الزياني مولاي عبد الله عن التحالف مع ابن القاضي فقط، بل تخلّى عن الإتفاق الذي تمّ بينه وبين خير الدين قبل توليه السلطة والمتمثل في تقديم ضريبة للدولة الجزائرية تقدر بـ 10000 دينار سنويا وصرف الخطبة والسكة إليه ومن جملة ما قاله له خير الدين: "أنك جعلتني في مقام الأب وأنا جعلتك في مقام الابن، أما أنا فقد أعطيت البنوّة حقّها أما أنت فلم تف الأبوة حقّها فأني أدعو الله أن يسلّط عليك أحد من أبنائك يعصيك وتشقى بسبب ذلك.

وهكذا نلاحظ أن خير الدين كان مع استمرار تأييد الأمير الزياني له، لأنه لا يستطيع فتح جبهات متعددة مع الإسبان من جهة، وابن القاضي وغيره من الأمراء الذين ثاروا عليه لأن مصالحهم أصبحت مهددة فأراد خير الدين أن يضمن الناحية الغربية له في الوقت الذي سيواجه فيه ابن القاضي إلاّ أن السلطان الزياني أراد هو الأخر أن يجرّب حظه في التخلص من التبعية للدولة الجزائرية، ومما دفعه إلى ذلك الموالون للأسبان بداخل تلمسان وقد انتبه خير الدين إلى ذلك فأورد في رسالته قوله ومن جملة ما حذره منه في هذا الكتاب موالاة أهل وهران من النصارى مما يجعلنا نتأكد من اطلاع خير الدين على أوضاع الدولة الزيانية وخاصة علاقتها بالأسبان.

ولم يتوقف عند هذا الحد فقط (الأمير عبد الله) بل أجاب رسول خير الدين بقوله: قل لصاحبك أنه لم يكن أسلفني مالا حتى يستوجب عليا رده وإن كانت

1- لمؤلف مجهول: غزوات عوج وخير الدني، ورقة 14،
أنظر أيضا: Brosse lard (ch): OP cit, P 5 à 197

له قدرة على نزع المملكة من يدي فليبادر إلى ذلك، فإن هذه البلاد بلاد أبائنا وأجدادنا من بني زيان[1] لا يعرفون الأتراك ولا سبيل لهم علينا. فهذه الإجابة إذا كانت مؤكدة فإنها توضح لنا أن السلطان الزياني لم يكن على درايه بقوة خير الدين وإمكانياته التي تسمح له بالتخلص منه، وفي هذا الصـــدد يقــول: « ولما إنفصل الرسول متوجها إلى خير الدين، رجع أرباب دولته وأعيان حضرته من بني عبد الواد، فاجتمعوا لديه بالمشور[2] فقال لهم يا أهل تلمسان ألم تعلموا أن هذه البلاد بلاد أبائي وأجدادي من عهد يغمراسن إلى زمننا ورثناها كابرا عن كابر، فأي سبيل لخير الدين علينا حتى يبعث لنا ليهددنا وتحمل أموالنا له كل سنة وأن عمالة الجزائر كانت بين أيدينا وإمتدت طاعتنا إلى ناحية المسيلة[3] [4].

كما يؤكد صاحب النص الصراع بين أفراد الأسرة الزيانية التي كانت وراء تدخل القوة الخارجية فيقول: « فغاية ماله على من الجميل أنه وقع بيني وبين

1- بني عبد الواد قبيلة زناتية، إستقرت حول تلمسان بعد هزيمة العقاب 609 هـ، 1212م ويطلق على الدولة الزيانية دولة بني عبد الواد، نسبة إلى هذه القبيلة، وقد تعرض الأب برجيس Barges في مقالة المنشور بدائرة المعارف الإسلامية مادة زيان بنوم، مجلد 10، ص473-174.

2- المشور يعتبر من أهم القلاع في عهد الدولة الزيانية، يقع في الجهة الجنوبية من تلمسان وكان المقر الرئيسي لسلاطنها، تعرض لتهديم خلال الهجومات المرينية المتواصلة عليه قبل فترة موضوع بحثنا هذا لمزيد من المعلومات عنه أنظر Barges (J.J) Tlemcen, ancienne 1 capitale du Royaume de ce nom, 1 PP186-358

3- توسع نفوذ الدولة إلى مدينة المسيلة قد تم في عهد السلطان أبي تشفين الأول 718 ، 737 هـ - 1318، 1337 أنظر يحي ابن خلدون بغية الرواد جزء الأول ص 218.

4- المسيلة عرفت عند تأسيسها بإسم المحمدية نسبة إلى أبي محمد القائم بأمر الله وقد وقع إختلاف في تاريخ تأسيس المدينة إلى أن الأغلبية ترى أن ذلك تم سنة 315 ، 927 م أنظر: البكري المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب من كتاب المسالك والممالك نشر دوسلان Douslin الجزائر 1913. ص 569.، ابن عذاري، البيان المغرب الجزء الأول ص 190،215.

إخوتي ما يقع بين الملوك وإخوانهم، فأعانني هذا الرجل، وحين خلصت لي مملكة تلمسان، أضعفت له الجائزة وأكرمت جماعته الذين وجّههم إلي برسم الإعانة، فطمع بسبب ذلك تملّك هذه البلاد، ونزعها من يدي عبد الواد مرة واحدة»[1].

ويستنتج من النص مايلي:

أ- أن أمراء الدولة الزيانية، يطمحون إلى استعادة قوة الدولة وسيادتها، إلا أن ضعفهم وصراعهم فيما بينهم واستغلال ذلك من قبل القوى الخارجية المتمثلة في الدولة الجزائرية، والإسبان حال دون ذلك.

ب- إنقسام المجتمع الزياني، على نفسه وعلى الخصوص البطانة المحيطة بهؤلاء السلاطين، ومما يوضح ذلك أنه عندما استشارهم مولاي عبد الله في مواجهة خير الدين، أجابوه قائلين: السلطان أعلم بما يفعله، إن أراد الحرب أوالسلم، فنحن تبعا له فيما يريد كما يؤكد صاحب النص، بأن خير الدين وظّف هذا الصراع بين أفراد الأسرة لصالحهة مما جعله يرحب بالمعارضين لهؤلاء الأمراء ويغدق عليهم الأموال، وفي هذا الصدد ذكر صاحب غزوات عروج وخير الدين: «كان في إثر ذلك قد فرّ ابن مولاي عبد الله إلى الجزائر خوفا من عاقبة حرب أبيه، لخير الدين فاستقبله وأفاض عليه»[2]. أما مولاي عبد الله فإنه جند الجند، وانتقل إلى المناطق المجاورة لحكم خير الدين، وعندما علم بـه هذا الأخير وجّه جيشه له فالتقى الفريقان، وكان النصر لصالح خير الدين نتيجة للإمكانيات التي يملكها عكس السلطان الزياني، الذي فشل في مواجهته مما جعله يكلف أعيان دولته وشيوخها للإتصال بخير الدين لالتماس الصلح

1- لمؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين ، ورقة 27.

2- لمؤلف مجهول: المصدر السابق ، ورقة 54.

والعفو مقابل موافقته على شروطه من أموال والزيادة، فالفشل الذي واجهه هذا السلطان، وموافقته على شروط خير الدين مقابل بقائه على كرسي الحكم في تلمسان، جعل الإسبان يغتنمون هذه الفرصة، ويتصلون به لحثه على الإنفصال عن خير الدين والإرتباط بالإسبان، وفي هذا الصدد يقول صاحب غزوات عروج: «كان الطاغية الإسباني، قد أرسل إليه مالا عظيما وأغراه بالإنتفاض على خير الدين، والأجلاب على الجزائر مع أجلاب أجفان الطاغية، عليها بحرا والتزم أنه إن استولى عليها يردها إليه، كما كانت في إيالة إبانه من قبل»[1].

هذا العرض من قبل الإسبان تشير إليه رسالة كان قد بعث بها مولاي عبد الله إلى ملك اسبانيا، يطلب منها تقديم يد المساعدة له، لأجل استعادة الجزائر، ولعل ما ذكره صاحب غزوات عروج وخير الدين، هو الرد الذي وصل مولاي عبد الله من قبل الملكة نيابة عن زوجها شارل الخامس، الذي كان خارج إسبانيا وقد نصّ على أن إسبانيا سترسل له مجموعة من السفن لمساعدته[2].

وبذلك يكون الإتفاق الذي تم بين الطرفين الإسباني والزياني يتفق مع ما أوردته المصادر العربية، فالإسبان سيسلمون لمولاى عبد الله، الجزائر بعد نزعها من خير الدين، ولذلك أرسلوا أربع عشر سفينة أرست أرشقول[3]، وقد

1- المؤلف مجهول ، غزوات عروج وخير الدين، ورقة 28.

2- أرشيف سيمنكاس PRILAUDAIE 'clie de la) R.A, 1869 toms 13, P 39 à 42G.P La prim XIII- F 38-42

3- أرشقول أو أرشقون: مدينة على الساحل الجزائري، عند مصب وادي تافنة، في مواجهة جزيرة أرشعون، التي لا تزال تحتفظ بنفس الإسم، أنظر البكري: المغرب ، في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص97.

ورد ذلك في رسالة ذكر صاحبها، أن الإسبان تعاهدوا أن يردوها للأمير الزياني بعد أن يستولوا عليها.

أما مولاي عبد الله، فقد تحرك بجيشه من العرب ورجاله من زناتة، فنزل على الحد الفاصل بينه وبين الدولة الجزائرية، وعندما وصلت أخبار تحركاته لخير الدين جهزّ جيشه، وتوجه إليه فوقع بينهما قتال كان النصر فيه لصالح خير الدين، لأن العرب والبربر الذين كانوا إلى جانبه، تخلوا عليه وانسحبوا عندما اشتدت المعركة، وهو ما يشير إليه صاحب غزوات عروج وخير الدين بقوله: « فلما رأى العرب أنهم لا طاقة لهم لقتال عسكره، انهزموا كما جرت عادتهم في تلك المواطن» [1].

يضاف إلى ذلك أن السفن الإسبانية التي كان من المقروض أن تقوم بحصار مدينة الجزائر بحرا خلال هجوم مولاي عبد الله عليها، توقفت بأرشقول ولعل السبب في ذلك أن عددها لا يسمح لها بمواجهة الجزائر، وهذا كان عاملا من عوامل هذه الهزيمة، التي جعلت مولاي عبد الله، يعود إلى تلمسان مطاردا من قبل قوات خير الدين، وبمجرد دخوله إليها اتصل بهذا الأخير بواسطة أعيان دولية، كعادته طالبا منه الصلح للمرة الثانية، وبعث مع الوفد ثلاثين ألف دينار ولم يقبلها منه، وقال: «إن هذا الرجل لا دين له ولا إيمان ينقض عهد المرة تارة، بما تسوّل له نفسه، وتارة بإغراء النصارى، وعندما أخبروه برده لماله خرج بنفسه إليه، وارتمى بين يديه يتضرع له

1- المؤلف مجهول: المصدر السابق ، ورقة 29.

بالإبقاء على حكمه، فوافقه على الإبقاء مقابل دفع ما حق عليه من ضريبة لصالح الدولة الجزائرية».[1]

وهناك بعض الوثائق الإسبانية، التي ترجع لهده الفترة يتراوح، تاريخها مابين «1527/933 و1529/936».[2]

فالوثيقة الأولى تناول فيها صاحبها وضعية الدولة الزيانية التي يظهر من خلالها، أن أمراءها قد تحالفوا مع الإيالة الجزائرية بعد النجاح الذي حققه حير الدين في القضاء على ثورة ابن القاضي وكل المعارضين، وهذا ما جعله يفكر في استعادة وهران، والمرسى الكبير، وهو ما دفع لويس فرديناند القرطبي Diego Fernandez de Cordoba القائد العام لوهران والمرسى الكبير وتنس وتلمسان يؤكد للإمبراطور الإسباني، أن وهران والمرسى أصبحتا مهددتين من طرف القوة الجزائرية بمساعدة الزيانيين والقبائل الموالية لهم، وهذا في الوقت الذي كان فيه شارل الخامس منشغلا بالصراع الذي اشتدّ بين فرنسا، واسبانيا على الأراضي الإيطالية، في الوقت الذي وقفت فيه الخلافة العثمانية إلى جانب فرنسا في حربها ضد إسبانيا.

وبالنسبة للدولة الزيانية فإن الإسبان استغلوا علاقتهم بالقبائل التابعة لها لضرب التحالف[3] بين بني زيان وبايلاربيات الجزائر قد عدّ بشيخ بين عقبة

1- عن إحتلال الإسبان لأرشقول: أنظر الرسالة المرسلة من طرف الأهالي، واليهود، المتعلة بالحروب بين مولاي محمد، وبعض قبائل نواحي تلمسان، أرشيف سيمنكاس PRIMAUDAIE, P.A, 1868, tome 12, P36. à 41 G.P la prim XII F 36.41.

2- رسالة ، بيدردوغوداي Pedre de Gedoys إلى الأمبراطور شارل الخامس والمؤرخة في 1529 أرشيف سيمنكس 44 AF 4 P 3.

3- السفير الدي ذهب للجزائر هو أبو زيان بن زحاف A.G.S ESTADO leg jar 461 Fol .40

وفارس أولاد موسى، لكن هناك حملة توعية قام بها علماء الملة ضد امتداد النفوذ الإسباني مما جعلهم يصدرون فتوى، أهم ما جاء بها أن أي أمير أوشيخ قبيلة يرتبط بالمسيحيين يعتبر غير مسلم، وهذا حال دون انضمام شيوخ القبائل لهم وهنا شعر الإسبان بالخطر مما جعلهم يعمدون إلى تحصين مراكزهم فـــي كل من وهران والمرسى الكبير وتزويدهم بالجيش.

كما وافق الملك الإسباني شارل الخامس باستعمال الأسطول الاسباني فـــي مواجهة خير الدين في حالة الهجوم على وهران[1].

ولتقوية القوة الدفاعية لوهران، جندت إسبانيا ستة ألاف جندي وزودتها بمـــا تحتاج إليه من الأموال المقدرة بـــ 2500 دينار.

كما قرر المجلس الملكي في 1529/11/14 المحافظة على وهـــران مهـــما كانت الظروف وأرسال 2200 فارسا بأقصى سرعـــة وتزويـــدهـــم بـــ: 30,000 فينغوسا.

يضاف إلى ذلك تزويد الحصون بعدد من المدافع لمواجهة الهاجمين ولـــم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كلّف شيخ بلدية مالقة بمراقبة تطورات الوضـــع في وهران والمرسى الكبير وتزويدهما بما تحتاج إليهما المدينتين بأقصـــى سرعة.

ومما زاد الأمر خطورة، أن العلاقة بين وهران وتلمسان تأثرت بعـــد استعادة البنيون فتوقفت القوافل التجارية التي كانت تربط وهران بتلمسان بطلب من قبل مولاي عبد الله كما اغتنمت إسبانيا فرصة قيام ثورة مولاي محمد ضد أبيه مولاي عبد الله فتعاونت معه ودفعت ببني عامر إلى الوقوف

1- IBID Fal 43.

إلى جانبه. ولمواجهة هذا الوضع أرسل مولاي عبد الله فرقة عسكرية إلى أغبال لتوجيه ضرباتها ضد القبائل الموالية للاسبان وخاصة قبيلة بني عامر، إلا أن الإسبان أرسلوا فرقة عسكرية لإغبال تتألف من300 جنديا من القبال الموالية لهم و800 جنديا إسبانيا والتعليمات تنص على طرف المعرفة الزيابنة وتهديم حصون أغبال حتى لا تستعمل في المستقبل.

لم تتوقف القبائل العربية مثل قبيلة بنو عامر في تقديم فرسانها لصالح الإسبان بل زوّدتهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤنة.

ففي شهر فيفري936هـ/1529م قدموا لحاكم وهران خمسمائة بقرة وألف رأس من الأغنام وكمية هامة من الحبوب.

وهناك وثائق إسبانية ترجع لهـذه الفـترة يتـراوح تاريخـها مابين 933-936هـ/1527-1529 تعالج هذه المدة .

- علاقة مولاي عبد الله بالدولة الجزائرية:

من بين الرسائل، رسالة من الدكتور أوبرنجا I Berja للإمبراطور الإسباني، وأهم ما ورد فيها فيما يخص الدولة الزيانية «أن مولاي عبد الله، قـد استقبل وفدا من خير الدين، يقوده أحد أفراد الجالية اليهودية، لم يرد ذكره واسمه في الرسالة» وقد تمكن مولاي عبد الله محمد من استعادة عرشه، فأبعد مولاي أبو عبد الله، وهو ما دفع به لترك تلمسان والتوجه نحو وهران مع بعض أولاده وزوجته[1].

---

[1]- هنين: تعتبر من أهم الموانئ القريبة من تلمسان ،توجد في سفح جبل طرارة تضم مضارب قبيلة كومية، لمزيد من المعلومات، عنها انظر الحسن الوزان، وصف افريقية، ص: 18، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص: 297، أنظر PRIMAUDAIE (Elie de la) ..Op.cit , P188

ولعل ارتباط مولاي عبد الله محمد بالدولة الجزائرية هو الذي دفع شارل الخامس إلى السيطرة على هنين القريبة من عاصمة الدولة الزيانية، حتى تصبح قاعدة للإنطلاق نحو تلمسان، والضغط على أمرائها الذين يرفضون التبعية للدولة الإسبانية ويتضح ذلك من رسالة أوبرنيجا التي يقول فيها أن هنين لها أهمية كبرى لقربها من تلمسان، وهو ما صرّح به أيضا أسقف طليطلة archeveque d toled في رسالة سبق وأن أرسلها إلى شارل الخامس أخبره فيها أنه يزد وهران بمائتن وخمسين جنديا، نزولا عند رغبة حاكم وهران، كما بارك احتلال هنين، وأعلن له بأنه سيرسل سفينتين من مالقا إلى هنين لتزويدها بما تحتاج إليه من الحبوب والأسلحة التي هي في حاجة إليها وفرقة من الجند تقدر بأربعمائة جنديا.

والذي يمكن التوصل إليه من خلال هذه الرسالة أن القوة الإسبانية التي توجد بالمراكز الإسبانية في المغرب الإسلامي، أغلبها تتشكل من المتطوعين الذين يتم جمعهم بواسطة رجال الكنيسة، لأن هؤلاء حوّلوا الصراع إلى صراع ديني، وأن سياستهم تهدف إلى تمسيح المغرب الإسلامي، لذا لعبوا دورا هاما في احتلال المدن الساحلية منذ عهد اخسيمانس.

واستمر دعمهم في السنوات الموالية، لهذا نجد بأن ما قام به أسقف طليطلة يندرج ضمن ذلك، وأن إسبانيا كانت تدعم أي ثورة ضد الأمراء الموالين للدولة الجزائرية، لذا قدّمت المساعدة لمولاي محمد، وجندت القبائل الموالية لها لكي تتم إزاحة مولاي عبد الله محمد الذي أصبح يشكل خطرا على مصالحهم في

المنطقة وقد حققوا ما كانوا يصبون إليه من خروجه من تلمسان والانتقال إلى فاس ومنها إلى مدينة الجزائر[1].

- عودته إلى الجزائر:

عندما وصل مولاي عبد الله إلى مدينة الجزائر، وجد التأييد والمساعدة من قبل خير الدين الذي رأى في توافد الأمير الزياني، فرصة يمكن له استغلالها لمواجهة الاسبان وحلفائهم من القبائل الموالية، فزود مولاي عبد الله بالجند وكلّف هؤلاء بتقديم يد المساعدة له، مما جعله يتمكن من إزاحة مولاي عبد الله عن حكم تلمسان، وتنصيب نفسه عليها.

- توليه الحكم للمرة الثانية:

وبعد ما تمكن من الجلوس على عرش دولته، فكر في مواجهة الإسبان، واتخذ مركزا له هي مدينة هنين[2]، وحتى يتضمت النجاح، جنّد القبائل الموالية له، وللدولة الجزائرية وهو ما تشير إليه الرسالة التي بعث بها حاكم وهران إلى الأمبراطور شارل الخامس، وأهم ما ورد فيها أنه اخبره "بأن الدولتين الجزائرية والزيانية اتفقتا على استعادة هنين، وأن هناك امدادات وصلت من الخلافة العثمانية للجزائر، سيتجه البعض منها إلى تلمسان للمشاركة في استعادة هنين".

1- أنظر:

Lettre du Licencę Melgarji, Correcidor d' Oran 24. 05. 1534

2- يذكر صاحب بغية الرواد أن المولى أبا عبد الله محمد والد المولى عبد الله قدم من الجزائر مع وزيره الأنجد أبي علي منصور بن أبي غانم وتولى الخلافة فكانت مدة خلافته عشرة أعوام وشهرين، أنظر المصدر نفسه ورقة 84.

كما زودت الدولة الجزائرية السلطان الزياني بمدافع، وهناك رسالة اخرى لحاكم هنين[1]، تؤكد ما سبق وأنه قد توصل إلى هذه المعلومات، بواسطة جاسوس عربي سبق له أن زار تلمسان، ثم عاد إلى هنين، وقد أخبره بأن مولاي عبد الله، جمع قوة لاستعادة هنين، وأن الإتفاق الذي تم بينه وبين خير الدين، نص على انطلاق الحملة نحو هنين، كان من المفروض أن يتم في العشرين من شهر أفربل لكن انشغال خير الدين، حال دون تنفيذ ما تمّ الإتفاق عليه، وأن السلطان الزياني لا يستطيع بجنده وحلفائه من استعادة هنين، لأنه يجب أن يكون الحصار برا وبحرا، وبما أن الأ سطول الجزائري يوجد خارج الجزائر فإن السلطان الزياني لا يمكن له الحصول على الدعم من قبل الدولة الجزائرية.

وفي هذا الصدد يذكر صاحب الرسالة، أن مولاي عبد الله وصلته رسالة ثانية من الجزائر، تتعلق بالهجوم على تونس، وإن الدولة الجزائرية، لا يمكنها أن تقدم له الدعم في هذه الظروف.

بعد أن عجز السلطان الزياني في الحصول على الإمدادات قام بتغيير سياسته باتصاله ببيدرو غولي وأعلن له أنه سينفذ السياسة بإعلان الولاء للإمبراطور الإسباني، وتنص على ذلك هذه الرسالة التي بعث بها أثونيوسوا ميكارخو أحد موظفي وهران.

وأهم ما جاء فيها "أن مولاي محمد كلّف مزواره للاتصال بحاكم وهران الذي سبق لأبيه القيام بهذه المهمة تجاه شارل الخامس، ولكنه في نفس الوقت أرسل وفدا آخر إلى فاس والجزائر، يطلب يد المساعدة مما جعل صاحب الرسالة يصفه بقوله: "أن هذا الأمير يريد الاستفادة من كل أطراف الصراع".

1- أنظر رسالة: حاكم هنين المؤرخة في 26. 4. 1534م.
Don Iniga De Vallejo Pacheco

وفي سنة 1533 تقدّم مولاي أبو عبد الله وتوجّه إلى تلمسان بمساعدة بعض القبائل العربية ورجال الطرقية، وإثر دخوله إليها أرسل مبعوثا إليه وهو أبوعبد الله بن غانم الراشدي شيخ بني راشد، الذي كانوا إلى جانبه[1] بينما مولاي محمد اتّجه نحو الجزائر يطلب يد المساعدة وإلى جانبه بعض القبائل، فأدى هذا إلى الإنقسام بين قبائل دولة بني زيان واشتداد الحرب بينهما خلال نهاية 1534م، وخاصة الحرب بين بني عامر وبني راشد القبيلتان اللتان لهما تأثير على سياسة أمراء بني زيان.

- أبو عبد الله محمد:

في خضمّ هذا الصراع بين قبائل الدولة الزيانية، توفي الأمير أبو عبد الله تاركا وراءه ثلاثة أبناء هم: أبو عبد الله محمد الذي سبق له أن قام بثورة ضد أبيه وتمكّن من إزاحته وتولّى شؤون الدولة بعد ارتباطه بالقوة المتنافسة على ملك بني زيان، فكان يقف مع الطرف الأقوى عندما يرى بأن الدولة الجزائرية حققت انتصارات يطلب يد المساعدة منها، وخاصة أن أغلب رجال الطرقية الذين لهم تأثير على سكان بني زيان وشيوخ قبائلها كانوا معها، لكن عندما تتعرض هذه الأخيرة لمشاكل داخلية، يتجه نحو الإسبان لذا كانت سياسته متذبذبة، والا بن الثاني هو أحمد حفيد شيخ قبيلة بني راشد، بينما الثالث هو حفيد لعبد الرحمن بن رضوان شيخ بني عامر.

مما يجعل الصراع يشتدّ بين الأميرين ومولاي محمد السابق من جهة بني راشد وبني عامر من جهة أخرى.

1- A. G.GS. Leg 1317 Fol 114

فبنو راشد يريدون أن يكون الأمير هو مولاي أحمد بينما بنو عامر يفضلون مولاي أبو عبد الله محمد على الرغم من صغرهما لأن الأول لايتعدّى عمره أحد عشر عاما بينما الثاني تسع سنوات[1].

فعمرهما لا يسمح لهما بتولي شؤون الدولة ولذا فالذي سيحكم هو إمّا شيخ بنو راشد أو بنو عامر وهذا عامل من عوامل ضعف أمراء الدولة الزيانية في مرحلتها الآخيرة.

ولكي ينصّب ابن رضوان مولاي أبو عبد الله محمد تقدم إلى المشور مع الولدين مولاي أحمد ومولاي عبد الله وقبل الإعلان عن تسمية حفيده على رأس الدولة وضع يده على خزينتها التي كانت تحت إشراف أبي زيان والقائد علي التركي.

أما مولاي مغني فكان يدير شؤون الدولة وهو أخ لأبي عبد الله وابن فراد وفي سيرء للأربعاء قتل بعض موظفي الدولة من طرف رجال مسلّحين يبدو أنهم من أتباع بن رضوان وقد نجا من المذبحة المزوار وهو من عائلـــة آل النجار وهي عائلة علم بتلمسان[2].

وفي صبيحة يوم الخميس دخل بن رضوان المشور وأعلن عن تنصيب حفيده أبي عبد الله على رأس الدولة، مما كان له رد فعل من قبل بعض موظفي هذه الدولة وعلى رأسهم النجار الذي ترك تلمسان نحو قلب بني راشد للإتصال بشيخ القبيلة ودعوته للوقوف إلى جانب حفيده مولاي أحمد ومواجهة بنو عامر الذين فرضوا حفيدهم بالقوة.

1- Marmol, ( ), Op.cit, Vol II, Fol, 177.

2- A.G.S (GA) Leg 5 Fol, [illegible].

وهنا يتأكد للباحث أن تنصيب أمراء مرحلة الإنهيار لم يكن يتم عن طريق المبايعة مثل ما كان عليه الحال في مرحلة قوة الدولة، بل شيوخ القبائل هم الذين بيدهم الحل والعقد.

ولمواجهة ابن رضوان توجّه المنصور بن غانم الراشدي إلى الجزائر طالبـــا يد المساعدة لصالح ابن اخته مولاي أحمد كما اتصل بمزوار مولاي أبـــو عـــبد الله المتوفى وبعض القبائل المعارضة لبني عامر لخلق جبهة معارضة لابـــن رضوان وحفيده مولاي عبد الله محمد[1] الذي ارتبط هو الآخر بالإسبان وحتى يضمن يد المساعدة منهم، عمد إلى إطلاق سراح أربعة تجار مسيحيين حوّلوا إلى عبيد من قبل أبي زيان في عهد الأمير أبي عبد الله المتوفي، كما كتب حاكم وهران معلنا له إطلاق سراح هؤلاء وأن سياسته تجاه إسبانيا لا تختلف عن ما سبقه من بني زيان[2]

وهنا سيشتدّ الصراع بين الأميرين الزيانين وبين القبيلتين بني راشد وبني عامر وبين الإسبان وحكّام الجزائر الذين أعلنوا تأييدهم لمولاي أحمد بمكافأة القبائل الموالية لهم ورجال الطرقية، وعلى رأسهم سيدي محمد أفوغال وأخيه سيدي عامر مما أدى بالمريدين إلى الإلتحاق بالقوة التركية التي رافقت مولاي أحمد وقوة بني راشد بزعامة المنصور بن غانم فاتجهت كل هذه القوات إلى تلمسان فدخلتها يوم 16 فيفري 1534 وخص مولاي أحمد المعروف بمولاي

1- رسالة Melgarege اسقفسنتياقو SANTIAGO وهران1534،1،26. A.G.S (GA) leg 5 fol 93

2- هؤلاء التجار الذين ورد ذكرهم من تجار إيطاليا قدموا لتلمسان لأجل شراء الجياد منها Ibid leg 5122 et 124

محمد علي راس الدولة، في الوقت نفسه ترك ابن رضوان وحفيده تلمسان واتجها نحو الواحات الصحراوية بعدما حملا معهما خزينة الدولة[1].

- أثر الصـــراع بين خيــر الدين وشارل الخامس:

كما نصّت الرسالة المؤرخة في شهر فيفري941هـ/1534م بأن مولاي محمد قد وصلته بالفعل مساعدة من خير الدين، تألفت من أربعمائة(رماة) ومائة انكشاري، بالإضافة إلى ذلك، أن هناك فرقة أخرى في طريقها إليه في الأيام القادمة.

- احتكـــاك العثمـــانيين بالزيـــانيين:

* تدخـــل الأخويـــن عـــروج وخيـــر الدين:

إذا كانت إسبانيا قد قامت بدور لا يستهان به في تقلص نفوذ الدولة الزيانية باحتلال أهم مدنها الساحلية، فإن الأخوين عروج وخير الدين قاما بالدور نفسه ولذا فالأسئلة التي يمكن طرحها في موضوع العلاقة بين الدولة الجزائرية وبين الدولة الزيانية وأن الأولى نشأت على بعض أجزاء الدولة الزيانية.

ماهي أهداف الأخوين في هذا التوسع نحو الجهة الغربية من مدينة الجزائر؟، هل الزيانيون هم الذين أصبحوا يشكلون خطرا على هذه الدولة؟.

أما طموح عروج وخير الدين في إقامة دولة قوية يمكنها مواجهة الخطر الإسباني لا تتم إلاّ بالقضاء على هذا التشتت الذي سهل مهمة الإسبان في السيطرة على موانىء الدولة الزيانية، وقبل التطرق إلى هذه النقطة يجب علينا التعرض لأسباب دخول الأخوين عروج وخير الدين لمدينة الجزائر سنة1516م .

1- Ibid Fol 94.

يعتبر بعض المؤرخين أنّ الاستنجاد بالأخوين يرجع بالدرجة الأولى إلى الخطر الإسباني، وفي هذا الصدد يقول السليماني: «كتب سليم بن إبراهيم ابن التومي أمير متيجة ومدينة الجزائر ومايليها من جبال صنهاجه إلى سليم سلطان التّرك ينهي إليه حال وطن المغرب الأوسط وما تكبده أهله من عسف الإسبان المتغلبين على سواحله وما آل إليه الإسلام والمسلمين وأمراء بني زيان من الضعف والشدة والإنحلال[1]. يتوصل الباحث من خلال هذا النص إلى مايلي:

1: أن الإسبان عندما استولوا على هذه السواحل مارسوا ضغطا على الإمارات المستقلة عن الدولة الزيانية مثل إمارة سليم التومي.

2: أن الأخوين عروج وخير الدين لم يأتيا لهذه البلاد كغزاة كما تصفهم الدراسات الغربية، بل وجودهم كان رغبة في الجهاد[2] ورحمة للضعفاء من المسلمين وهو ما يؤكده أيضا الجامعي في نص آخر بقوله (رغبة في جهاد الكافرين ورحمة بضعفاء من المسلمين) لذا فالمعركة هي معركة توحيد البلاد من جهة ومحاربة الإسبان ومن استنجد بهم من جهة أخرى وهو ما يوضحه نفس المؤلف بقوله: «كانت للأتراك يدان إحداهما تمهّد التلول والإنجاد من بغاة البربر والعرب والأخرى تدفع الكفر عن أهل الإيمان، بينما تظاهر عليهم المشركون وبنو زيان[3].

1- السليماني الشماريخ جزء ثالث ورقة 100.

2- الجامعي فتح وهران (وهو شرح للأرجوزة الحفناوي) مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2521 ورقة 20 .

3- الجامعي المصدر السابق الورقة 9 ب.

يتضح من هذه النصوص أن هدف عروج وخير الدين من سيطرتهما على الجزائر هو القضاء على التفرقة التي عرفتها بلاد المغرب الأوسط[1] هذا فيما يتعلق بالدوافع، أما التوسع على حساب دولة بني زيان فقد بدأ مع سنة1517م بتوجه خير الدين نحو تنس وعروج إلى تلمسان وقبل التعرض لموضوع التوسع، يجدر بنا الرجوع إلى المصادر والوثائق التي تناولته فالمصادر العربية تختلف فيما بينها أما الوثائق الإسبانيا التي أعطت لهذه الفترة أهمية كبرى من خلال تقارير جواسسها ورسائل قاداتها في كل من وهران والمرسى الكبير وبجاية تتفق على أن أمراء بني زيان وبعض حلفائهم قدّموا مساعداتهم للإسبان خلال الهجوم الأول على مدينة الجزائر1516م[2] بقيادة دياغو ديفيرا، ولذى فالتوجه نحو الغرب سببه الرئيسي هو القضاء على هذا التحالف وهو ما أكده ابن زرفة بقوله: «تظاهر على عروج وخير الدين المشركون والإسبان»[3] أما أحمد بن سحنون الراشدي فيقول: « أن مولاى أبا عبد الله سلطان تلمسان عاد إلى أحد قرابته فانتزع ملكه من يده، لم ير من الرأي إلاّ أن يقصد حضرة الجزائر فقدم إليها واتّصل بعروج مستنصرا به فقدم لنصرته[4].

لا يمكن الأخذ بهذا النص لسببين أساسيين:

أ: أن صاحب النص لم يحدد لنا تاريخ إنتقال هذا السلطان إلى مدينة الجزائر، ولم نعرف أيضا تاريخ توليه إمارة الدولة الزيانية، لأن ماهو

1- لمؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، ورقة 13 ب

2- لمؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، ورقة 13 أ.

3- ابن زرفة المصدر السابق ورقة 137.

4- محمد ابن رقية،الزهرة النيرة، فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1626 ورقة 2أ.، غزوات عروج وخير الدين ورقة 13.

معروف لدينا من خلال المصادر أنّه بعد وفاة أبو قلمون كان من المفروض أن يتولى شؤون الدولة السلطان أبو زيان، لكن عمه أبو حمو قاد إنقلابا ضده ووضعه في السجن مما جعل أتباعه يتصلون بعروج ويطلبون منه يد المساعدة.

ب: أن صاحب غزوات عروج وخير الدين القريب من الأحداث لم يشر إلى قدوم أي أمير من أمراء هذه الدولة إلى الجزائر، وحتى الوثائق الإسبانية لم تتعرض لذلك، ولو حدث فإنه لا يمكن إغفالها لأنها تناولت أحداثا واجهها خير الدين بتنس.

- السيطـرة عـلى تنس:

قبل التعرض إلى السيطرة على تنس من قبل الأخوين عروج وخير الدين يجدر بنا التعرض إلى تدخل الإسبان في شؤون هذه الإمارة (إمارة تنس) التي انتزعها الأمير يحي من أملاك الدولة وتحالف مع الإسبان حتى يسمح له بالسيطرة عليها وعلى المناطق القريبة منها ونتيجة لهذا التحالف أرسلت أسبانيا قوة عسكرية إلى مدينة تنس وعددها 500 رجل وعندما علم بذلك خير الدين توجه إلى تنس لتحريرها من السيطرة الإسبانية وإبعاد الأمير يحيى منها[1] وأن سيطرة خير الدين على تنس يعتبر أول مواجهة بينه وبين أمراء هذه الدولة لأن محاصرة تنس وفرار أميرها منها ودخول خير الدين إليها بعد إتفاق أبرمه مع سكانها حفّز أعيان تلمسان على الإتصال به.

أما الحملة الثانية على تنس فقد قام بها عروج وهذا ما يتضح من كتاب صاحب الزهرة النيرة الذي يرى في توجه عروج لتنس كرد فعل لاستمرار

1- لمؤلف مجهول : غزوات عروج وخير الدين ورقة 18.

يحيى في مواجهة الوجود العثماني وفي هــذا الصــــدد يقــول: «جمع عروج عسكرا برسم الخروج إلى الناحية الغربية لتفقد أحوالها ومواجهة القائد المنحوس الذي بتنس واستفتاء علماء الجزائر في ذلك فأفتوه بإباحة دمه ودم من معه من المفسدين ».

يستنتج من النص أن خروج عروج لم يكن الهدف من ورائه الإنتقال إلى تلمسان كما يعتقد مرمول[1] بل مواجهة الإضطربات التي عرفتها النواحي الغربية من أراضي الدولة الزيانية التي نزعها منها أمير تنس، واستعادها منه عروج فيما بعد، بعد هزيمة قوته بواد جر[2] واستلاء خير الدين على تنس.

وعندما وقع تقسيم المملكة (الجزائرية) بين الأخوين عروج وخير الدين فإن هذه الناحية أصبحت تحت إشراف عروج مباشرة .

أما الإضطرابات التي كان وراءها يحي المعروف بحميد العبد فحدثت بعد عودة خير الدين إلى الجزائر، مما جعل عروج يعود إلى تنس بمساعدة بعض أعيانها وهو ما جعله يأخذ هذا القرار بعد مشاورة علماء الجزائر بقطع دابر هذا الأمير للعلاقة التي تربطه بالإسبان أما فيما يتعلق بتلمسان فإن المؤلف ذكر لنا بأنه قد أبلغه أن سلطانها أضرّ بأهلها وعمّه جرّه فثنى عزمه إليها، فهذا الجور وهذا الضرر يبدو أنهما كان وراء عملية إلتفاف عروج عليها.

1- مرمول المصدر السابق جزء 2 ص 363.

2- واد جر يقع بالقرب من مدينة العفرون على الطريق الوطني الذي يربط وهران بالجزائر وعن هذه المعركة أنظر غزوات عروج وخير الدين ورقة 13 السليماني، الشماريخ، الجزء الثالث ورقة 112.

- سيطرة عــروج على تلمسان:

أما فيما يتعلق بدوافع حملة عروج على تلمسان نجد روايات متضاربة فالرّحالة الإسباني مرمول[1] الذي كان قريبا من الأحداث، ذكر بأن عروج كان يعرف نوايا أهل تلمسان، فكتب لهم قائلا: «إنه يستغرب من كونهم مسلمين خاضعين للأمير أبي حمو موسى الثالث التابع للمسيحيين، يغلبهم ببسط استبداده، ويرفض إرجاع الحرية للأمير الشرعي أبي زيان وإعادة تنصيبه على العرش».

فالشيء الذي يمكن استنتاجه من النص يتمثل فيمايلي:

أ: أن عروج الذي استقرّ بالجزائر كان له أتباع يطلعونه على أحوال الدولة الزيانية من خلال المعلومات التي كانت تأتيه عن طريق عيونه، الذين كانوا مندسين داخل المجتمع التلمساني ويبدو لي أن أغلبيتهم من أفراد الجالية الأندلسية الذين ندّدوا بسياسة أبي حمو اتجاه الدولة الإسبانية، التي أساءت إليهم وإلى المقدسات الإسلامية، فتعاونه مع هؤلاء الإسبان يعتبر ضربة قاضية للإسلام والمسلمين، لهذا كتب عروج لأهل تلمسان قائلا لهم «أنّه يستغرب من كونهم مسلمين خاضعين لأمير تابع للمسيحيين».

ب: أن هذا السلطان لم يصل إلى السلطة بطريقة شرعية بل كان نتيجة لمؤمرات دبرت ضد الأمير الشرعي أبو زيان الذي ألقي به في غياهب السجن[2].

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص307، أنظر أيضا brunel (camille) guerre de teemcen an 1895 in B. S. G . O p233

2- لمؤلف مجهول، غزوات عروج، ورقة 14 ج

أما المصادر الإسلامية فتناولت أيضا الموضوع ومن بينها ابن القاضي الذي قال: « في سنة 923هـ/1517م دخل عروج تلمسان بعد صلاة الظهر من يوم السبت أول يوم من شوال» « جيشه يومئد ستمائة مقاتل، مائة وعشرون من الأتراك، وما بقي من العرب أربعمائة فارس، وما بقي من جيشه من الراجلين والرماة»[1].

يستفاد من النص:

أ: أن القوة التركية التي دخلت تلمسان لم تكن كبيرة فهي لا تزيد عن ستمائة جندي، تتكون من الإنكشاريين والأندلسيين والعرب والبربر، ومن انضم إليها أثناء المسيرة.

وعندما اجتازت قلعة بني راشد ترك بها قوة تحت قيادة الأخوين اسكندر[2] وإسحاق[3] لكي يحافظ على خط الرجعة، « أما أبو حمو موسى الثالث، فإنّه عندما وصلت معلومات تتعلق بإقتراب عروج من تلمسان، اتصل بحلفائه من القبائل العربية والبربرية، وخرج بقوته إلى سهل أغبال، برسم قطع خط عروج المتوجه إلى السهل المذكور، فهجم عليه عروج وهزمه شرّ هزيمة».

ب: أن القوة الزيانية التي واجهت عروج اتّفقت أغلب المصادر على كثرتها، لكنها لم تقفها على الرغم من قلة عدد القوة التابعة لعروج.

1- ابن القاضي، درة الحجال، في عرر السماء للرجال نشر علوش جزءان الرباط 1934-1936، ج1 ص136

2- لمؤلف مجهول، غزوات عروج و خير الدين، ورقة 77 .

3- أحمد بن بزاز،ربح التجارة و منعم السعادة، مخطوط رقم 928 بالمكتبة الوطنية، ورقة 84.

ج: وقع اختلاف بين المصادر فيما يخص موقف سكان تلمسان من عروج، فالنص الذي أورده ابن القاضي يؤكد أن التلمسانيين وقفوا موقفا مؤيدا لعروج لأنهم فتحوا له أبواب مدينتهم دون مقاومة تذكر[1].

أما الوثائق الإسبانية فتؤكد ردود فعل قوية لدى بعض الجهات، خصوصا عند التلمسانيين الذين قادهم علماؤهم لاستنكار الوجود التركي، بعد أن جرت مذابح رهيبة على يد عروج غادر على إثرها عددا هائلا من علماء المدينة ليستقروا نهائيا في فاس[2] ومراكش[3] وتارودنت.

- إنتصار عروج على أبي حمو موسى الثالث وموقف المجتمع التلمساني:

«يعتبر دخول عروج إلى تلمسان أول سقوط للدولة الزيانية في القرن 10هـ/16م[4] بعد أن سقطت مرارا في يد الحفصيين والمرينيين.

أما ابن زرفة يقول: «بعث أخاه عروج رايس للمحروسة تلمسان فاستولى عليها، بعد أن قتل سبعا من سلاطينها ونحو السبعين من أكابر عبد الواد، وما يزيد عن ألف من كبرائها[5]».

فالشيء الذي يمكن التوصل إليه مايلي:

أ: أن سلاطين الدولة الزيانية وأمرائها الذين بقوا في تلمسان، لم يستريحوا للوجود العثماني في عاصمتهم، لأن بعض الجنود قد أساؤوا للسكان ونستدل

1- ابن القاضي، المصدر السابق، ج2 ، ص 136

2- السلماني، كتاب الشمارخ، ج3، ورقة 107

3- عن هجرة تلمساني إلى المغرب الأقصى، أنظر وفيات أبو العباس الونشريسي ،تحقيق حجي، الرباط1980،ج1 ،ص260

4- السليماني، المصدر السابق ، ج3 ، ورقة 102

5- ابن زرفة، الرحلة القمرية ،ورقة 37ج

على ذلك من خلال ترجمة ابن ملوكة حيث أشار ابن مريم إلى اتصال السكان به وتقديم الشكوى له عن هؤلاء الجند[1].

ب: أن هدف عروج هو تنفيذ مشروعه الذي يتمثل في توحيد البلاد، لذلك كان عنيفا أمام هؤلاء الأمراء الذين لا تهمهم مصلحة الدول أكثر من المصالح الذاتية، وبذلك لا نستعجب من تدبير المؤامرات.

وأن جواسيس الإسبان الذين كانوا بداخل تلمسان، على علم بهذه الأحداث وهو ما تؤكده إحدى الرسائل التي أرسلت إلى حاكم وهران، من قبل أنطونيو الذي ذكر له بأن أمير تلمسان أبي حمو موسى الثالث مع القائد أحمد العربي مازالوا في قلعة بني راشد[2].

كما جاء في نفس الرسالة أن عروج لم يسمح للسكان بالخروج من تلمسان، حتى لا يمكن لأتباعهم تزويدهم بالمعلومات، وقد قتل كل أمراء الدولة وسمح ببقاء المهاجرين الأندلسيين كما يذكر"أن أبا حمو قد أرسل إلى مستغانم القائد سيدي عامر، وقد سبق لهذا أن تحالف مع عروج[3] وشيخ بني راشد على محاربة الإسبان في وهران[4]".

1- عن الشيخ ابن ملوكة ، أنظر ابن مريم البستان ص116

2- lettre d'antonio rica au très bel seigneur lope hurtode de mendoza oran , 27 fèvrier 1518, arch de simances estade , lozages 461f 22 primandaie de la op cit 148 ra 1875

3- primandaie OP cit P 149 en ra 1875 n 18

4- Ibid p 150 لم يذكر اسم الشيخ لكن يبدو أنه من عائلة آل غانم.

فهذا العمل من قبل عروج يبدو أنه سهّل مهمة أبي حمو موسى الثالث بإنجاز مجموعة من أعيان تلمسان إلى جانبه خلال محاصرته لقلعة بني راشد وتلمسان[1].

كما نشر ابن زرفة في نص يتعلق بمحالفة أبي حمو للإسبان وأهمية قلعة بني راشد ونهاية الحامية التركية بها.

فيقول: بعث أخاه إسحاق لقلعة بني راشد، وكانت ميرة النصار بواهرن، إذ هي أغني بلاد الله زرعا وضرعا في ذلك الوقت حرسها الله، وقطع عنهم المتاع، فأنشأ ملوك بني زيان في مداخلة النصارى بالخدع ونصب الأشراك، وتظاهروا على جلاء ليوث بني ادم الأتراك، ووعدوهم أن يردّوا لهم ميرة الطعام، التي تأتيهم من القلعة إن أعانوهم على كنس الأتراك من تلك البقعة فخرجوا مع النصارى، وحاصروا إسحاق التركماني، بالقلعة وصالحهم لما طال بهم الحصار، على أن ينجو بنفسه ومن معه ويسلم لهم القلعة، لكن غدروه[2] بعد إنفصاله وكشفوا أتباعه[3] لإسبانيا في كل من وهران والمرسى الكبير ومما زاد الأمر خطورة قطع الطريق المؤدية لتلك المراكز بعد التحكم في إقليم بني راشد والسيطرة على قلعتها، وهو ما يوضح لنا بأن عروج كانت له استراتجية خلال حملته على تلمسان تتمثل فيمايلي:

1- berges L.J.J OP cit 432

2- ابن رزفة ، الرحلة القمرية ، ورقة 137

3- نفسه ، ورقة 37ج

حفظ خط الرجعة في حالة الإنسحاب من تلمسان لذلك عرج على قلعة بني راشد التي تحتل أهمية استراتجية واقتصادية[1] وهو ما يؤكد صاحب غزوات عروج وخير الدين على لسان السلطان أبي حمو موسى الثالث من خلال رسالة أرسلها من فاس إلى وهران أهم ما جاء فيها: « أنظروا ما حل بكم عندما إنقطعت دولتنا عنكم وتمكن منها الأتراك كيف قطعوا عنكم الميرة من القلعة وغيرها، فلو كنتم أنتم أعنتموني على قتال عروج، وأمددتم موانئ بالمال والرجال ما صار أمركم إلى هذا فانظروا الآن في هذا الأمر وتداركوا الحال قبل أن يمتدّ هذا الرجل إلى أخذ المدينة» فالذي يستنتج من النص مايلي:

أ: أن الإسبان عندما استولوا على المرسى الكبيرو وهران كانوا يتزوّدون بما يحاتجون إليه من قلعة بني راشد والنواحي المجاورة لها، لأن القلعة يوجد بها سوق يعتبر من أهم أسواق الدولة الزيانية تعرض له الوزان في رحلته وعرّفه بسوق الخميس ويبدو أن القوافل التجارية كانت تنتقل بين القلعة ووهران والمرسى الكبير، وبعد نزول الأتراك بها عمدوا إلى مضايقة المراكز الإسبانية بقطع المؤونة عنهم وهو ما تؤكده الوثائق الإسبانية خلال هذه الفترة[2].

وقد استغل السلطان أبو حمو موسى الثالث هذه الضائقة الإقتصادية لصالحه ليتمكن من الاستفادة من المساعدة الإنسانية بعد أن رفض شيوخ[3] القبائل له،

1- المؤلف مجهول، غزوات عروج و خير الدين ورقة 14 و عن الأهمية الإقتصادية للمنطقة أنظر لحسن الوزان، المصدر الصابق، ج2، ص9، مرمول، المصدر السابق، ص307، الحسن الوزان، المصدر السابق، ص522

2- اعتمادا على نص سيرو A .M P52-56 .Mazarquivir et Oran, suarez, en R

3- شيوخ القبائل كانو يقدمون مساعدتهم العسكرية للدولة مقابل أموال تسسددها لهم من الضرائب التي كانت تحصّل من موانئها وعلى المرسى الكبير و وهران، أنظر، الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص10، أنظر أيضا du faurqui sur le sol l'an

كان لضعف اقتصاد الدولة نتيجة لسيطرة الإسبان على موانئها ومعارضة العلماء له في فرض ضرائب جديدة على الرعية وبذلك هو في أشد الحاجة إلى أموال لتجنيد القبائل وهو ما دفع به إلى طلب العون من إسبانيا وهو ما يتضح من النص فقال: أما كتاب الخبيث إلى النصارى (أمدوني بكذا من المال لأنفقه على الجيش وتخليص المدينة من يد الأتراك، فحين ترجع العمالة إلي أمدّكم بما كنت أمدّكم به من زرع وأغنام وسائر ما تحتاجون إليه.

ب: إن السلطان أبو حمو موسى الثالث قد استغل إطعام الأتراك في المنطقة وبيّن لحلفائه من الإسبان أن الهدف ليس تلمسان فحسب بل هو المرسى الكبير و وهران[1].

هذه الصيحة من قبل أبي حمو موسى الثالث وجدت تأييدا من قبل الإسبان، لأنهم كانوا يدركون ما يمثله عروج من خطر على مصالحهم في المنطقة لذلك طلب أبو حمو بإرسال سبعة ألآف دينار مقابل أخذ رهن من القبائل الموالية له وأغلب تلك الأموال صرفها على شيوخ القبائل مقابل تجنيدهم المتطوعين للعمل في وحداته العسكرية التي قدّرت بحوالي خمسة عشرة ألف منالفرسان وألف وأربعمائة جندي إسباني، بواسطة هذه القوة توجه إلى قلعة بني راشد لمحاولة قطع خط الرجعة على عروج عند محاصرته في تلمسان أما خير الدين فإنه كان يتابع تحرك القوة المعادية بواسطة عيونه في الناحية، لذلك عندما علم بتقدّم قوة الإسبان وأبي حمو إلى القلعة، أرسل امدادات، وهو يؤكده صاحب الزهرة النايرة[2] بقوله: فلما سمع خير الدين بتوجه النصارى إلى القلعة، وجه جيشا بقيادة إسحاق، فلما وصل إلى القلعة وجد بها جيشا من

1- لمؤلف مجهول غزوات عروج و خير الدين ورقة 14

2- الزهرة النايرة ، ورقة 3 أ

النصارى يحاولون أخذها، فوقع بينهم قتال عظيم، وكان النصر لطائفة المسلمين وقتل من النصارى حوالي سبعمائة وأسر حوالي ثلاثمائة، ودخل المسلمون القلعة، ثم ورد عليهم السلطان الزياني بجيش من العرب وأتباعه من النصارى وأحاطوا بها من جميع جهاتها وشرعوا في قتالها فخرج إليهم المسلمون يوما فاستولوا على مائة وعشرون من النصارى فدخلوا بهم إلى القلعة فبقوا أياما وأرغموا على الخروج مرة أخرى للقتال فأخبر بعضهم جواسيس سلطان تلمسان ،فنصب للنصارى للقائهم المدافع ،في حين خرج إليهم المسلمون رموا عليهم بجملة من المدافع فاستشهدت جماعة كثيرة منهم ،ورجع بقية الجيش إلى القلعة فبقوا محاصرين بها ستة أشهر، فجعل النصارى بها نفقا تحت الأرض وملؤوه بالبارود ثم أحدثوا نارا، فتحطم جزء من القلعة وبعدها وقع إتفاقا بين الطرفين على الخروج من القلعة وإعطاء الأمان لهم ولسكانها، ولكن الإسبان قتلوهم بعد الخروج ويجعل مرمول[1] كعادته أن السبب في ذلك القبائل العربية، لأنهم حاولوا أن يقلّصوا من دورهم في نقض الصلح الذي تمّ مع المحاصرين وهو ما يؤكده مرمول بقوله: أن أحد أفراد القوة العربية كان الأتراك قد اغتصبوا بناته فانقض عليهم عند خروجهم من فرقته[2].

- **تأثير القوة المعارضة لعروج في تلمسان**

يقول ابن زرفة في السيطرة على تلمسان (ثم شنّوا عنان الحصار لعروج بتلمسان فحصاروه بمالا طاقة له وعساكر المشركين وبني زيان فخرج ناجيا

1- مرمول ، مصدر السابق ، جزء 2 ص 223 و قد لعب علماء قلعة بني راشد دورا مشرفا في المعركة ، واستشهد بعضهم ، أنظر الصباغ ، البستان ، ورقة 14،أبوراس النصاري،عجائب الأسفار،ورقة 50 أنظر أيضا rigg o rartada de mendaza ،p149 lettre d'antoni tomexx AN،1518 en ra ،02،27،

2- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص223

بنفسه من جملة عسكره وذلك يوم العيد من السنة المذكورة فنهضوا في إثره فقتلوه بجبل بني موسى واستأصلوا عسكره، و محوا من المغرب الأوسط أثره[1].

وهناك نص لابن عساكر يقول فيه: أن عروج رايس عاش بتلمسان لمّا افتتحها، وثار به أهل تلمسان وخافوا من رجوعه فلجئوا إلى الشيخ ابن ملوكة وشكوه خوفهم منه فانقبض الشيخ ثم ضرب الأرض وقال: والله لايرجع أبدا فحقق الله رجاءه[2].

فالذي يمكن استخلاصه من النصين يتمثل فيمايلي:

أ: أن عروج عندما دخل إلى تلمسان عمد إلى إطلاق سراح أبي زيان من سجنه و جعله على عرش آبائه، بعد أن أبعد من كرسي الحكم نتيجة لسؤامرات دبرت من قبل أبي حمو موسى الثالث، لكن دسائس السلطان زياني مثل مـــا كانت عليه قبل دخول العثمانين تلمسان، وقد حاول عروج في البداية أن يتغاضى عليها إلا أنها استمرت بمساعة أتباع أبي موسى حمو الثالث[3] والإسبان.

ولعل بعض أعيان تلمسان الذين رأوا بأنّ دخول الأتراك إلى تلمسان عاصمة الدولة من الحماية الإسبانية إلى العثمانية، لأن وجود عروج سيؤدّي

1- ابن زرفة ، المصدر السابق ، ورقة 18

2- يعلق ابن زهرة النايرة على مقتل عروج ، فيقول توجه أبو حمو إلى تلمسان هو ومن معه من العرب والنصارى فحصاروها ستة وعشرون يوما ،ورقة 9، مخطوطة بمكتبة الوطنية ، ورقة 1523 22أ

3- محمد الصغير بن حاج الوهراني نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي ، ط:1988 ، ص16 . محمد بن يوسف الزياني ، دليل الجران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، ص 142-143 .

لامحالة إلى القضاء النهائي على الدولة الزيانية، وربط تلمسان بالجزائر فيؤثر في المصالح الذاتية لهذه الجماعة.

ب: إن القوة التابعة لعروج قليلة على عكس القوة التي جندها أبو حمو موسى الثالث، من القبائل الموالية له، والموالية للإسبان[1]، وحتى أتباع حميد العبد، لأن إحدى الرسائل الإسبانية تشير إلى ذلك .

تضاف إلى القوة التي كانت بوهران والمرسى الكبير، هناك قوة أرسلت من قبل شارل الخامس نزلت بأرشقول قادمة من إسبانيا يقدر عددها حسب مصادر إسبانية بعشرة ألاف بينما لم تتجاوز قوة عروج الألف، لهذا المعركة غير متكافئة بين الطرفين مما جعل أبا حمو يتخلص من الحامية التركية في قلعة بني راشد، حتى لا تغطي إنسحاب عروج من تلمسان إلى الجزائر[2].

لذلك فإن الهجوم على تلمسان جاء بعد القضاء على حامية بني راشد، وحاصر أبو حمو المدينة تلمسان لمدة ستة وعشرون يوما بعد وصول الجيش الإسباني الذي قدم من أرشقول وخلالها إتصل ببني وطاس في فاس طالبا منهم النجدة، فوعدوه بإرسال القوة العسكرية لكن الظروف حالت دون وصول قوتهم له[3].

1- يعلق محمد بن يوسف الزياني فيذكر من بين هؤلاء القبائل: الوكازرة وقيزة وشافع وحميان و أولاد عنيو عبد الله ، نفس المصدر ، ص112

2- عن هذه الرسالة: أنظر توفيق المدنى، حرب ثلاثمائة سنة ، الجزائر ص154

3- السنوني، ملامح من تطور العربي في بداية العصور الحديثة، مقال في مجلة مجمع اللغة العربية دمشق 1965، ص841

ولكن التواجد الإسباني في مليلة سيحول دون وصول هذه القوة لأن جواسيس الإسبان منتشرين في أغلب أرجاء دولة بني وطاس سيعلمون القوة الإسبانية بعد خروج القوة الوطاسية من فاس، وبذلك سترسل تلك الحامية قوّاتها لإعتراض الوطاسيين قبل إنضمامهم إلى عرّوج[1] وحتى لا يتمّ هذا التحالف عمدت إسبانيا إلى إبرام معاهدة مع الوطاسيين حتى لا تنظم قوتهم إلى عرّوج.[2]

وعندما تبين لعروج أن القوة القادمة من فاس لا يمكن أن تصل إلى تلمسان، ترك هذه الأخيرة، وتوجّه نحو الغرب حسب بعض المصادر فاستشهد بجبال بني بزناس بالقرب من الحدود الجزائرية المغربية[3]

- إعــلان ولاء الجــزائر للخــلافة العثمانية

بعد مقتل عروج من قبل الإسبان، دخلت الدولة الزيانية مرحلة جديدة في علاقتها بالعثمانيين في الجزائر وهو ما جعل خير الدين يربط مصير الجزائر بالخلافة العثمانية.

1- عن علاقة المراكز الإسبانيا في المغرب الأقصى بوهران و بالمرسى الكبير، اورد دولا كاستري مجموعة من الرسائل ثم تبادها بين وهران ومليلة تتعلق بتحرك القوة المعادية للإسبان أنظر les sources inesdites l'histiors du maroc , premiere serie a ynestrie saadienne espagna، 1 p 46

2- Ibid، p 56

3- ابن عساكر، دوحة الناشر، ص 97

- **ثانيـــا: التدخـــل الإسبـــاني**

الهـــــدف:

لعل من أبرز الأهداف التي كانت تصبو إليها إسبانيا بعد سيطرتها على موانئ الدولة الزيانية.

أولا: ضمان ولاء أمرائها لها والمحافظة على هذه الدولة رغم ضعفها[1].

ثانيا: إن إسبانيا بعد نجاح الأخوين عروج و خيرالدين في إقامة دولة لهم بجزائر بني مزغنة،رأت أنهما أصبحا يشكلان خطرا على المشاريع الإسبانية التي تهدف إلى ابتلاع المنطقة تمشيا مع وصية الملكة إيزابيلا[2] وعلى الرغم من استشهاد عروج في 1517، لم يضع حدا لهذا الخطر، لأن خير الدين الذي خلفه كان في مستوى المسؤولية المنوطة به، لذلك أفشل كل المؤامرات التي كانت إسبانيا من ورائها بتحالفها مع القوى المعارضة له كابن القاضي و أبناء سالم ابن التومي.

ثالثا: المحافظة على تلك المراكز يسمح لإسبانيا التحكم في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وعدم السماح للسفن الأجنبية بضرب السواحل الإسبانية التي تعرضت لغارات من قبل المجاهدين البحريين إنطلاقا من مدن المغرب الإسلامي، وعلى الخصوص الأخوين عروج وخيرالدين منذ نزولهما في أراضي الدولة الحفصية، ثم الإنتقال إلى جيجل و جزائر بني مزغنة، فأصبحوا يمثلون مشكلة بالنسبة لاستراتيجية الإسبان في المغرب الإسلامي.

1- لمزيد من المعلومات انظر: ded Cayetma Roseli(discurse enReal Academia de la historia Madrid 18-58 p 450-477

2- hipolite sancha de Sapramis، Gadizy la piraberia Turra Berberisca en el siecle XVI

رابعا: الإشراف على البحر المتوسط سمح الإسبانيا بالدفاع عن مملكتي غرناطة التي لها موانئ مقابلة للعدوة المغربية مثل مالقا والسربة وقرطجنة، تلك الموانئ التي كانت تواجه الغزوات.

الأســاليب:

سلك الإسبان أساليب متعددة للمحافظة على مراكزهم وقطع الطريق على الزيانيين والدولة الجزائرية الحديثة، إذ حاولوا تحرير تلك المراكز وتوحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الإسباني، ومن بين تلك الأساليب نذكر:

- **أولا: التــأثير عــلى القبــائل**

سلك قادة الإسبان-فيما يتعلق بالتأثير في القبائل العربية والبربرية-أسلوبين:

أولهما: التقرب من القبائل المجاورة لحصونهم واستغلالها لصالحهم عن طريق التجسس[1] على القبائل المعادية لهم والتي تشكل خطرا على المراكز الإسبانية، وقد انتبه العلماء إلى خطورة هذه السياسة لأن تحالف هؤلاء مع القوى المسيحية وتخلّيهم عن نصرة الإسلام سيكون له نتائج سلبية على الدولة الزيانية في البداية ثم الجزائرية فيما بعد[2] وقد عطّل هذا التحالف تحرير وهران والمرسى الكبير مدة زمنية طويلة.

1- الجامعي، فتح وهران،ورقة 17،ابن زرفة،الرحلة القمرية ورقة 37 جـ،محمد بن يوسف الزياني،دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران،ص:142،و قد خص المشرفين هؤلاء المتعاونين مع الإسبان بتأليف سماه بهجة الناظرين في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر،مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1346،ورقات 12-19 .

2- وقد هاجم الأدباء شيخ لقبيلة حميان لمساعدتهم الإسبان في بناء حصن مرجاج:
لا تكب الماء من قربة لمن يقول أنا حمياني ...أدفع الكلب مع ريبة وقل قلبه مازال نصراني
أنظر دليل الحيران ص:146 .

واعتبر أبوراس سبب استمرار هؤلاء في مولاتهم للإسبان ضعفا في الإيمان وهو ما يؤكده بقوله: «الأعراب الموالين للإسبان مثل حيذرة وشافع وحميان وأولاد علي و كل ذلــك من ضعف الإيمان»[1].

فهؤلاء الذين ورد ذكرهم عند أبي راس هم الذين وصفهم المشرقي[2] بضعف الإيمان، لكن الواقع عكس ذلك لأن سوء أحوالهم الإقتصادية والاجتماعية هو الذي جعلهم يتعاطون أموالا من الإسبان مقابل الخدمات التي يقدمونها لهم و تتمثل على الخصوص في الجوسسة.

وقد حدّد أبوراس[3] الكيفية فقال: «دسّ لهم الجواسيس المعروفين بالمغطيس حتى يرصدوا له الأماكن التي تمكنه الإغارة منها.

فكانوا يقومون بالمبادلات التجاربية في القرى والمداشر وعندما تبين لهم ضعف بعض القبائل وعدم استعدادها لمواجهة الإسبان، يتصلون بهؤلاء فيقومون بالغارة عليهم وهو ما يؤكده أبوراس[4] بقوله: « فيصكهم هنالك بخيله ورجاله فيقتل المقاتل ويسبي النساء والذراري».

- ثانيهمـــا الإغارة:

فالغارات حسب ما أوردته المصادر الإسلامية كانت كارثة بالنسبة للقبائل التي لم تستطع الدفاع عن مضاربها، مما دفع بالبعض إلى ترك قراهم والانتقال إلى المرتفعات الجبلية للتحصّن بها، وتجنيد حراس يحرسون مضاربها ليلا ونهارا، وعندما يشعرون باقتراب الإسبان وحلفائهم يخبرون

1- أبوراس،عجائب الأسفار، ورقة 13-14.

2- عبد القادر بن عبد الله المشرفي،المصدر السابق،ورقة 12.

3- أبوراس، نفس المصدر،ورقة 13؛الجامعي،المصدر السابق،ورقة 10.

4- أبوراس،نفس المصدر،ورقة 50.

السكان لترك مضاربهم والهروب إلى المرتفعات الجبلية المحيطة بقــراهــم أو مداشرهم، ومن بين النواحي التي تعرضت لغارة الإسبان نواحي الرابطة والكرط التي لا تبعد كثيرا عن معسكر[1].

يضاف إليها الأراضي الواقعة بين وهران ومستغانم وغليزان وعين تموشنت وسيدي بلعباس أي مضارب الأمحال ومجاهر وبني راشد وبعض بطون بني هلال كسويد وفليتة وحتى بنو عامر أنفسهم عندما يتوقفون عن مناصرة الإسبان.

وهذه القبائل عندما تعجز عن مقاومة الغارات الإسبانية على مضاربها تلجأ إلى الخضوع لشروط الإسبان فتقوم معاهدات بين الطرفين تحدد العلاقة بين الجانبين.

- ثالثهمــا: المعــاهــدات

من أبرز تلك المعاهدات، المعاهدة التي ورد ذكرها لدا دياجو سزور بين بني راشد والإسبان في وهران والتي تنص إحدى بنودها على أن يقدم بنو راشد أجورا بحوالي خمسة أو ستة آلاف جندي ويكون الدفع بالعملة الزيانية التي كانت لا تزال متداولة والعملة الإسبانية المعروفة باسم ايكوسو والأجرة تختلف بين المشاة والفرسان وبقية الرتب العسكرية.

نصت المعاهدة على أن بني راشد لابد أن يوفرّوا وسائل النقل للقوة الإسبانية في تنقلاتها ضد القبائل المعارضة لهم وتصدير المواشي لوهران.

1- قرية الكرط غير بعيدة عن مدينة معسكر تحتل مركزا استراتيجيا هاما لذا تعرضت لهجوم من قبل القوة الإسبانية أدى إلى تهديمها، ولا زالت أسوارها ماثلة للعيان و بعض الانفاق ، لأن قرية الكرط حاليا تقع إلى الجنوب منها، و قد قيل لنا خلال زيارتنا لولاية معسكر إن إمام مسجدها المشرفي يحتفظ بوثائق عن تلك المعركة لكننا لم نتمكن من استجوابه لمرضه ،أنظر المصدر السابق،ورقات 51 و ما بعدها.

كما نصت على تزويد بني راشد للإسبان بحوالي خمسة آلاف فنجوس Fangus من القمح و10.00 من الشعير وبقية المواد الغذائية الأخرى.

ومن بين القبائل التي ورد ذكرها في هذه المعاهدة أولاد موسى وأولاد ابراهيم وأولاد طلحة والقبائل المرتبطة بالإسبان في وهران والدولة الزيانية بتلمسان.

ونصت على التحالف مع الإسبان ضد الأتراك الذين تحالفوا مع الدولة الزيانية.

ومن بين القبائل التي ارتبطت بالإسبان بواسطة هذه المعاهدات قبائل ناحية مستغانم ومزغران زيادة على المدنيين فقد أبرم معهما الإسبان معاهدة قدرت مدتها بخمس سنوات قد أعيد تجديدها سنة1520م وسمحت للتجار المدنيين القيام بالمبادلات التجارية مع وهران مقابل تقديم ضرائب لفائدة الإسبان.

- التحــــالفـــات:

من أهم القبائل التي تحالف معها الإسبان بنو عامر، وقد لعب هؤلاء دورا كبيرا في الصراع الذي عرفته الدولة الزيانية في جميع مراحلها وتحالفوا مع القوى الخارجية كالمرينيين مما جعل «أبو عنان» يعمد لنقلهم إلى تسالة فاتصلت مجالاتهم منها إلى جبل هيدور وملاثة بضواحي وهران مما سهل للإسبان الاعتماد عليهم لقوتهم وانتشار نفوذهم.

- بطـــونهـــم:

من أبرز بطونهم أولاد عبد الله الذين كانت مضاربهم بوادي الثلاثاء من ملاقة يتميزون بالرّحلة وهو ما جعل المشرفي يعلق عليهم بقوله: «لهم جولات

عظيمة بالأرض عرفوا بتعاونهم مع الإسبان وخضوعهم لهم حيث كانوا يدفعون لهم الضرائب[1].

ومن بين بطون بني عامر أولاد علي[2] الذين لا تختلف سياستهم نحو الإسبان عن بقية القبائل المجاورة لتلك المراكز وكان دورهم يتمثل في حركة الجوسسة عكس القبائل الأخرى التي شاركت بفرقها في الجيش الإسباني حسب قول المشرفي[3]: « فكان منهم من تطلع على عورات الإسلام والإخبار بهم للكفرة ولهم غارة على المسلمين، فكان من بينهم المنحشون والمغطسون والرقاقصة وسائر ما فيه الضرر للمسلمين والنفع للإسبان.

أما أبو راس[4] فيحدد لنا كيفية التعامل مع الإسبان بقوله: « فكانوا عيونه التي يتطلع بها على عورات المسلمين ودورهم فيأخذ مالهم وينتهك حريمهم».

وما جاء به هذا النص تؤكده الوثائق الإسبانية لأن دورهم يتمثل في دور الجوسسة على القبائل والقوى المعادية للدولة الإسبانية من قبائل عربية وبربرية.

وقد حدد أبو راس[5] الكيفية فقال: « دس الجواسيس المعروفين بالمغطيس يرصدون له الأماكن التي تمكنه الإغارة منها».

1- المشرفي، بهجة الناظر، ورقة 13، أبو راس، المصدر السابق، ورقة 13.
2- أبو راس، نفس المصدر، ورقة 13.
3- المشرفي، المصدر السابق، ورقة 12.
4- أبو راس، المصدر السابق، ورقة 14، الجامعي، فتح وهران، ورقة10.
5- نفسه، ورقة 10.

وكانوا يزاولون التجارة العطرية حسب ما ذكره المشرفي[1] وعندما يتبين لهم ضعف القبائل وعدم تحضيرها يتصلون بالإسبان، فيقوم هؤلاء بالإغارة على تلك القبائل، وهو ما يؤكده أبو راس بقوله: «فيصكهم هنالك بخيله ورجله فيقتل المقاتلة ويسبي النساء والذراري».

يضاف إلى هؤلاء قبيلة حميان وهي من القبائل العربية مسكنهم ملاتة بأرض الحفرة وما والاها وعددهم يزيد عن ثلاثين دوارا كانوا يقدمون النصائح للإسبان وهو ما جعل المشرفي يعلق عليهم بقوله: «أن شيخ حميان هو الذي دبّر على الإسبان بناء حصن مرجاجو ولكنه قتل ووضعت جثته في أساس الحصن.

ومن هؤلاء القبائل بنو شافع[2] الذين كانت مضاربهم بالعين البيضاء المجاورة لسهل ملاتة و بني بوسعيد[3].

عرفوا بالشدة مما جعل الإسبان يتقربون منهم ويستعملونهم ضد القبائل المعارضة لهم وهو ما جعل المشرفي[4] يقول عنهم أهل مجد وبأس شديد وقتال عنيد فتقوّى بهم الإسبان وأن خدمتهم لهؤلاء تمثلت فيما يلي:

أ: عملية الجوسسة إذ كانوا ينقلون معلومات عن تلك القبائل للمراكز الإسبانية وهو ما دفع المشرفي للتعليق عليهم بقوله: «كانوا عيونهم البصيرة».

1- المشرفي، نفس المصدر، ورقة 14.

2- يقول محمد بن يوسف الزياني: وقعت للإسبانيين العناية بقلعة مرجاجوو دبروا في إقامتهم وصعب عليهم الماء فكان أول من أتاهم بقرب الماء لأجل إقامته شيخ حميان وقبيلته، دليل الحيران، ص 146. انظر أيضا الجامعي، المصدر السابق، ص 102.

3- أبو راس، المصدر السابق، ورقة50، المشرفي، نفس المصدر، ورقة13، قيزة وشافع وحميان: جارهم ما يتهنى و منهم ما يدخل جنّه ، دليل الحيران ، ص 146.

4- المشرفي ، نفس المصدر ، ورقة 13.

ب: استعمالهم في شن الغارات على تلك القبائل وبني وفي هذا الصدد يقول المشرفي: « اعتدوا بهم وأكثـروا من شـن الغـارات على الأقدميـن والأبعدين».

ومن بين تلك القبائل قيزة وقد ورد ذكرهم في بعض المصادر باسم حيذرة نسبوا إلى بني عامر ومساكنهم بنواحي فارقة وعند التحاق الونارة بهم انتقلوا إلى ملاتة وسكنوا ضواحي تمزغرت ووادي العسول[1]. أغلب هذه النواحي قريبة من الأبراج المحيطة بوهران.

- **تجنيد رجـال الديـن المسيحي:**

من بين الأساليب التي استعملها ملوك إسبانيا لمواجهة الدولة الزيانية، ثم الدولة الجزائرية فيما بعد، استغلال رجال من الكنيسة كانوا يكنون عداوة للإسلام والمسلمين في تجنيدهم واستغلال أموالهم لصالح الحمالات الإسبانية.

«ومما يؤكد ذلك أن هناك رسالة موجهة من الإمبراطور كارلوس القوي المعظم ملك ألمانيا ودون خوانة والدوقين والكونتات والمركزيين والمبشرين ومجالس القساوسة المكلفين بالأتاوة والضرائب والرجال القديسون لغرناطة وممثل المدن والقرى الأخرى والأماكن التابعة للقسيس الأكبر بطليطلة والذين لهم علاقة برسالتنا التي نتمنى لهم الصحة والعافية أن يحافظوا ويدفعوا الإعانة لمدينة وهران ومدينة بجاية والقرى التابعة لهما والحصون والمرسى الكبير»[2].

1- المشرفي، المصدر السابق، ورقة 13، أبوراس، المصدر السابق، ورقة 56.

2- 8 amxille de Plazas Peticien de zente Para aren y mezalquivir ،6، 1529 malaza af Co Rel no129 Co 7064-129.

يستخلص من هذه الرسالة ما يلي:

أن الدفاع عن الوجود الإسباني في أراضي المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية لا تخص السلطة الملكية الحاكمة في إسبانيا فقط أي جلالة الملك المعظم بل كل القوى الحية وعلى رأسها الكنيسة الكاثوليكية لأن الصراع هو صراع بين الإسلام والمسيحية لكن الانقسامات التي عرفتها أوربا خلال هذه المدة والتي لم تكن تخدم المصالح الإسبانية في أوروبا وتؤثر في مصالحها خارج أوروبا وعلى الخصوص التحالف الذي حدث بين الدولة العثمانية وفرنسا وارتباط الجزائر بالدولة العثمانية924هـ/1518م[1].

ومما زاد الأمر خطورة أن البابا الذي كان عليه أن يستمر في تأييده للإسبان وقف إلى جانب فرنسا ضد شارل الخامس الذي كان مناهضا للفرنسيين والإنجليز خلال هذه الفترة.

- الصــراع بين الإسبــان والعثمــانيين:

« ولعل مما زاد في خطورة الوضع الذي عرفته أراضي الدولة الزيانية وعلى الخصوص بعد سقوط موانئها الرئيسية وخضوع الأخرى إلى فرض ضرائب عليها من قبل الإسبان، تأثير رجال الدين في إسبانيا في قرارات الدولة بل أصبح بعضهم حكّاما فعليين للمدن الإسبانية الجنوبية التي كانت من

1- عن ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية يعلق صاحب غزوات عروج و خير الدين على ذلك بقوله : « وقد ظهر لي من الرأي أن نعتمد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه و نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان سليم نصره الله فيمدنا بالمال و الرجال و جميع ما يحتاج إليه من آلات الجهاد و لا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه و ضرب السكة عليه فرضى أهل المدينة و صوبوا رأيه في ذلك فأمرهم أن يكاتبوا على لسانهم كتاب إلى حضرة السلطان، أنظر غزوات عروج و خير الدين، ورقة 32.

قبل ضمن أملاك دولة بني الأحمر والعداوة التي يكنّها هؤلاء للإسلام وللمسلمين»[1].

«فالوثيقة التي ترجع إلى سنة 1529م توضح لنا بأن رجال الدين هم الذين كانوا يشرفون على شؤون المدن التي كانت تابعة لمملكة غرناطة قبل سقوطها سنة 1492م وأن تعيينهم يتم من قبل مجلس القساوسة».

ومما يؤكد ذلك أن المجلس خلال انعقاده في 1529/5/24م كلف "ريكو" لكي يكون رئيسا لبلدية مالقة والإشراف على الحرب بأراضي الدولة الزيانية وعلى الخصوص سواحلها التي اعتبرت في نظر السّاسة الإسبان الحدود الفاصلة مع الامبراطورية الإسبانية كما يحافظ على الأسطول الإسباني بمالقة ويجعله في أتم الاستعداد لمواجهة الأخطار المحدقة بالمدينة من قبل خير الدين وتزويد وهران والمرسى الكبير بالمؤونة والعتاد العسكري والمتطوعة.

كما تشير هذه الوثيقة إلى العلاقة الحميمية بين قائد وهران والمرسى الكبير ماركيس دوغماريس marges de Gomares الذي أطلق عليه لقب قائد وهران والمرسى الكبير ومملكة تنس وتلمسان والكالدي شيخ بلدية مالقة الذي يشرف على تقديم المساعدة المالية وتجنيد الفرسان والمشاة من مالقا والقرى المجاورة لها لمساعدة الحامية الإسبانية المتواجدة في كل من وهران والمرسى الكبير وتوضح الوثيقة ما يلي:

1- فالوثيقة المؤرخة في 1529،6،8 م ذكرت إن هناك لجنة تشكلت في مالقا malaza لمساعدة وهران والمرسى الكبير بقيادة رال كديلا Real cedula الذي تربطه بحاكم وهران و المرسى الكبير علاقات حميمة لإيقاف الخطر الذي يشكله خير الدين عليها واستمر عملها ما بين1527 م و 1529م، أنظر المؤرخة في1529،6،8 م، P 235.

أن الحامية الآنفة الذّكر تشتكي من قلة أفرادها، وأن الخطر محدق بها من خير الدين والقبائل المعارضة للوجود الإسباني التي تحالفت مع القوة التركية»[1].

أما الهزيمة التي ألحقها الأسطول الجزائري بالسفن الإسبانية التي تحت قيادة رامون برقويد عند خروجها من ميورقة لمحاولة إعتراض السفن الجزائرية عند اقترابها من الجزر الإسبانية[2].

كما أن الهزيمة التي ألحقت بالإسبان بعد سيطرة خيرالدين على حصن البنيون المقابل لمدينة الجزائر سنة 936هـ/1529م، مما سهل لخيرالدين إقامة مبنى يقي سفنه من الاضطرابات البحرية وتحركاتها السريعة نحو سواحل الإسبان.

يضاف إلى ذلك التحالف التركي الزياني الذي أثر في المراكز الإسبانية والقبائل الموالية لهم، مما دفع بشارل الخامس إلى احتلال هنين[3] القريبة من تلمسان لتضييق الحصار عليها.

كما تشير هذه الوثيقة إلى تلك المضايقات التي كان يتعرض لها الأسطول الإسباني من طرف خيرالدين.

وهناك رسالة من قبل بيدروPoder[4] الملازم أرسلها إلى الإمبراطور شارل الخامس بواسطة شيخ بلدية مالقة، ذكر فيها بأن خيرالدين بمساعدة الزيانيين تحرك بأسطوله البحري وبمسلميه وأعرابه المقيمين والمعسكرين

1- الوثيقة المؤرخة في 1529،6،8 م ، نفس المصدر، ص24.

2- لمؤلف مجهول، غزوات عروج و خيرالدين، ورقة 36-37.

3- احتلال هنين من قبل الاسبان كان سنة 938، 1531. انظر مرمول، المصدر السابق، ج2، ص:326.

4 - Fetion de zente Para Oren yMezalquivir Maliya، 8، 6، M. M. A. 129 F .

بتلك الناحية من الأرض القريبة من وهران، وإنهم عازمون على الإقتراب من حصون المدينة، وقد بدأ الإقتراب خلال الأربعة أيام الماضية .

كما قدّم هذا القائد الذي يشرف على وهران تقريرا عن وضعية المدينة، وعلى الخصوص ما يتعلق بالجانب العسكري، لأنها اعتبرت ضمن المدن التي كانت إسبانيا تخصص لها ميزانية تتعلق بصيانة تحصيناتها كالقصبة والحصون المحيطة بها[1].

أما الرد على الرسالة من قبل الامبراطور، فقد نص على ما يلي:

أ: يجب على قائد وهران إرسال قائمة بكل احتياجات المدينة من مساعدة مادية و معنوية، يكون ذلك عن طريق شيخ بلدية مالقة.

ب: إن الإمبراطور شعر بالسعادة بعدما وصلته هذه الرسالة من أحد قادته الذي أدرك خطورة الوضع في وهران، وإن الامبراطور سيرسل المتطوعة التي تحتاج إليهم المدينة والمؤونة، وإن البلاط سيتحمل تكاليف نقل هذه المساعدة من اسبانيا إلى وهران، والرسالة ستوضح لكم ما نحن عازمون عليه[2].

ج: إن الإمبراطور يؤكد بأن وهران والمرسى الكبير لهما أهمية بالنسبة إليه، ولذا فالمطلوب من قائد المدينة المحافظة عليها ومراسلة الإمبراطور مباشرة. فيما يخص احتياجات المدينة من مؤونة ومتطوعة، وإنه سيخزن كثيرا في حالة عدم تنفيذ طلب وهران من قبل المراكز السالفة الذكر بمالق

1- Ibid p.136

2- Fetion de zente Para Oren yMezalquivir Maliya، 8، 6، . A .M .M. F 129 .P 137

د: إن القانون الإسباني سيكون حازما فيما يخص المتهاونين من موظفي الدولة عن القيام بواجبهم تجاه وهران والمرسى الكبير في تقديم المواد الغذائية والأسلحة والمتطوعة.

وهناك وثيقة في شكل تقرير يتعلق بمجلس بلدية مالقا الذي خصص إحدى جلساته لإرسال المساعدة لوهران[1].

من أبرز ما ورد في التقرير أن المساعدة التي تقدم لوهران هي عمل ديني بالدرجة الأولى، ورغبة من صاحب الجلالة الامبراطور والشعب الاسباني الذي سيبذل جهوده لإنقاذ وهران في حالة الهجوم عليها، لأن أي تخاذل في حقها يعتبر خيانة[2].

وهناك رسالة[3] من الإمبراطور دون كارلوس، إمبراطور وملك إسبانيا والسيدة «اخوانة» أمه، وهي موجهة للنواب ورجال العدالة والفرسان بمالقة تتعلق بالرسائل التي كان قد أرسلها إليهم قومارس Gomares المشرف على مملكتي تنس وتلمسان والقائد العام لكل من وهران والمرسى الكبير. والرسائل يبدو أنها كانت ترسل من وهران إلى مالقة ومنها إلى الإمبراطور، لذلك أشار هذا الأخير بأنه قرأ الرسائل التي وصلته وأمضاها، وأن بيدرو دركو الملازم قد قال في رسائلة بأن خيرالدين قد قام بتحركات فعلية لمحاربة واستعادة وهران والمرسى الكبير بمساعدة الزيانيين والقبائل العربية الموالية لهم. وكانوا

1- Ibid p.138

2- Ibid p.139

3- الرسالة مرسلة من مدينة بلاد الوليد Vallodalid مؤرخة في 23 أوت 1527، 934.

يهدفون إلى تطويق وهران والمرسى الكبير برا وبحرا، ولعل العملية قام بها خيرالدين بعد تحرير البنيون[1].

وأن الإسبان المتواجدين بالمدينة يشتكون من قلة الإمدادات والمؤونة لأن حلفاءهم من القبائل رفضوا تزويدهم بما يحتاجون إليه من المواد الغذائية وهو ما جعل الامبراطور يأمر قوته بالوقوف أمام الأتراك والعرب والزيانيين الذين ولّوا وجوههم نحو إيالة الجزائر[2].

ب: وأن أوامر جلالته لابد أن تنفذ حتى لايقع ضرر يصيب المدينتين نتيجة لهذه المغامرة التي يقوم بها خيرالدين بمساعدة الدولة الزيانية، والتي ستؤدي إلى السيطرة على كل من وهران والمرسى الكبير.

ج: المحافظة على رجال الحامية في كل من وهران والمرسى الكبير حتى لا يقع لهم ما وقع لحامية حصن البنيون الذين قتل بعضهم وأسر البعض الآخر في يد المسلمين[3].

د: إيجاد العلاج الأنسب الذي يحول دون سقوط وهران التي تعتبر من أكبر المدن وأحصنها، وفي حالة سقوطها سيكون لها أثر في الوجود الإسباني في بلدان المغرب الإسلامي بسقوط المراكز الأخرى كبجاية ومليلة وسبتة، لأن أي نجاح سيحقق من قبل القوة الإسلامية سيكون حافزا للآخرين، لاستغلال ذلك النصر والزحف على أغلبية المراكز الإسبانية، لذلك يقترح الإمبراطور مايلي:

1- يذكر التقرير الذي يبدو أنه مرسل من قائد وهران الى مالقا، أن خيرالدين سيصل وهران بعد ثمانية أو عشرة أيام، و لذا فهو يحتاج الى المساعدة بأقصى سرعة(Ibid p.139).

2- Maliya Fetion de zente Para Oren yMezalquivir،8،6، P . M. A.M.F129 137. P.139

3- Ibid p.241

- الإسراع بإتمام التحصينات[1] اللازمة في أقصى سرعة لكي تحول دون إنجاح الهجوم على وهران والمرسى الكبير من الأتراك والزيانيين والمواليين لهم.

- إرسال الإحتياجات التي تتطلبها الحامية بأقصى سرعة، والمشرف على ذلك هو شيخ بلدية مالقا، الذي سيحدد تلك الاحتياجات، التي تتمثل في المواد الغذائية، والمقاتلة التي تحتاج إليهم وهران والمرسى الكبير.

- الإمبراطور الإسباني سيشرف شخصيا على إرسال هذه القوة والمساعدة المادية، لكي تحول دون سقوط وهران كما يسدد المصاريف المتعلقة بنقل هذه المساعدة، وتجنيد الجواسيس الذين سيتسربون داخل القوى المعادية، حتى تصل المعلومات للقوة الاسبانية في الوقت المناسب، مما يجعلها تضع خططا عسكرية لمواجهة الوضعية الصعبة.

- إن الملك الإسباني يصرّ بأنه في حالة عدم وصول هذه المؤونة من مالقة والنواحي المجاورة لها أنّه سيحضرها من نواحي أخرى، كما سيوفر البواخر التي تقوم بنقلها إلى وهران، وكل ذلك يندرج في إطار السيادة الإسبانية على هذه المدينة وغيرها من المراكز الأخرى في أراضي الدولة الزيانية أوخارجها، وتحت رغبة الشعب الإسباني الذي يضع في يدي المكلفين بتموين وهران كل الاحتياجات المادية والمعنوية من سلاح ومتطوعة ومواد غذائية.

1- Ibid p.241 ذكر في الوثيقة ، الأعضاء الذين شاركوا في الاجتماع الخاص بمساعده وهران و المرسى الكبيروهم: Juan de tarres -Juradas lias pisa-la pe de mescasa varez-juan diaz chinchlla-Ganzalo Fernande de plazencia-Francisc al .madrid cardale-luis de rivas-Ganzalo Fernando de ggalla -luis de

كما تشير هذه الوثيقة إلى أن السلطة الإسبانية كانت تخشى أيضا من حركة تمردية قد يقوم بها الجنود الإسبان داخل وهران أو المرسى الكبير والتي ربما ستؤثر في الحامية في الدفاع عن الميناءين.

- إن الاحتياجات التي طلبها قائد وهران قد أرسلت كلها إليه وإن الدولة مستعدة لتلبية حاجيات المركزين في المستقبل عند تعرضهما للخطر.

وهناك وثيقة أخرى تتعرض أيضا إلى الموضوع نفسه وهي عبارة عن رسالة أرسلت إلى رجال القضاء والنواب المنفذين بمالقا والمركيز غمارس القائد العام لتلمسان وتنس.

كما تعرضت إلى توغل خير الدين الذي وصف بالصعلوك في الأراضي القريبة من وهران والمرسى الكبير، كما وصلت معلومات إلى الدولة الإسبانية نصت على أن خير الدين دخل إلى مملكة تلمسان وبالتحديد من مدينة مسينة القريبة من وهران على بعد عشرة فراسخ من وهران، كما نصت الوثيقة بأن القيادة الإسبانية قد وصلتها.

الفصل الرابع

الأوضـــاع السيــاسيـــة
(1534-1554م)

عرفت هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية أحداثا خطيرة فبالإضافة إلى تنافس القوة الخارجية على أملاكها ومقدرتها ازدادت الأوضاع الداخلية تدهورا من جراء مؤامرات شيوخ القبائل الّذين أرتبط بعضهم بمصالح القوة المتصارعة.

استمرار الصراع بين أمراء الدولة:

عرفت هذه الفترة صراعا مريرا ومتصلا بين أفراد الأسرة الحاكمة حيت تولى السلطة في هذه الفترة القصيرة نسبيا خمسة أمراء وهم على التوالي:

(1) أبو محمد عبد الله:947 ـ 950 هـ / 1528 ـ 1540

(2) أبو عبد الله محمد: 947 ـ 1540

(3) أبو زيان أحمد: 947 ـ 950هـ / 1540 ـ 1543

(4) أبو زيان أحمد للمرة الثانية : 950 ـ 957 / 1544 ـ 1550

(5) مولاي الحسن : 957 ـ 1550

وقد اشتد الخلاف بينهم أكثر مما كان عليه من قبل، فأبرزت التقارير الإسبانية المنافسة بين أمراء الدولة ومن بينها تقرير الكونت الكوديتي إلى شارل الخامس[1] أبرز فيه الصراع بين مولاي محمد عبد الله الملقب بالسابع934ـ1540/947 وأبيه وأنه سيستغل الصراع بين الأمراء لفائدة الاسبان، حيث أن شارل الخامس أرسل قوة عسكرية استطاعت أن تسيطر

1- يوجد ضمن مجموعة من الرسائل، إلى الإمبراطور شارل الخامس، تتعلق بالدولة الزيانية. والأسطول الاسباني الذي وجه ضد خير الدين، قد قاده اندرية دورية Primaudaie,(Elie de la) XX 51-53, XIX,181- 183.

على هنين سنة938 هـ/1531 كما أسلفنا من قبل لأن الدولة الزيانية لاتستطيع إرسال قوتها لإنقاذ المدينة، على الرغـــم من قرب المسافة بين تلمسان وهنين، خوفا من اغتنام فرصة خروج القوة من تلمسان للاستلاء على المطالبين بالعرش، وهو ما يجعلنا نؤكد بأن المنافسة على من يحكم في تلمسان، من أبرز الأسباب التي سهلت للقوة الخارجية الإنقضاض على أملاك هذه الدولة وهو مالم يحدث في عصرها الذهبي[1] ومما زاد الطين بلة تدخل شيوخ القبائل في سياسة أمراء بني زيان ومن أبرز هؤلاء الشيوخ، عبد الرحمان بن رضوان شيخ قبيلة بني عامر، الذي كانت له علاقة بالسلطان الزياني، المطالب بالعرش، وهو مولاي أبوعبد الله احمد (ابن حفيد عبد الرحمان بن رضوان)[2] لأن من بين الوسائل التي استعملها شيوخ القبائل، للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة، مصاهرة أمرائها، وهذا لم يحدث قبل ذلك حيث كان، فعلا أمراء الدولة الذين تزوجوا بنات شيوخ القبائل هم الذين أثّروا في شيوخ القبائل، وفرضوا تعاونهم معهم، عكس هذه الفترة ألتي أصبح فيها الأمير ألعوبة في يد جده، وأخواله وهو ما حدث لمولاي أحمد الذي خضع لجده عبد الرحمان بن رضوان، المعروف بموالاته للاسبان. أما مولاي محمد الذي لازال يثق في القوة الإسبانية لتقديم يد المساعدة له، رسالة بعثها لشارل

1- لأن وجود حكام ذوي كفاءة أمثال يغمراسن و أبي تاشفين الأول ، اللذين حافظا على وحدة القوى الداخلية، بقمع بعض شيوخ القبائل، و التعامل مع البعض الآخر عن طريق توليهم مناصب في الدولة، كقيادة الولايات، لكن في هذه الفترة لم تتكتل تلك القبائل لمواجهة الخطر الخارجي، نتيجة للانقسامات التي عرفتها الرعية، لأن كل قبيلة كانت تتحالف مع طرف من أطراف الصراع، في تلمسان حسب مصالحها.

2- رسالة: عبد الرحمن بن رضوان، مؤرخة، في 7 أكتوبر، 943،1535هـ ربما اجابة الكوديتي، و الرسالة الأصلية باللغة العربية، في 943 هـ رقم 183 ضمن مجموعة Secritaria de estado, Lig 461. n 117:

الخامس سنة1535/943 يطلب فيها منه يد المساعدة، فإن الأمبراطور مال إلى مولاي أحمد، لأنه رأى بأن قبائل بني عامر، التي يحسب لها ألف حساب مؤيدة له لقرابته من شيخها عبد الرحمان بن رضوان[1].

أما مولاي محمد فقد رأى أنه من الأفضل تغيير سياسته بالتحالف مع الدولة الجزائرية فاتصل بالأتراك، وأعلن الولاء، وأمضى معهم معاهدة تبرز ارتباطه بهم، وهكذا نجد بأن هؤلاء الأمراء بدل أن يحافظوا على سيادة الدولة أصبحوا ألعوبة بيد القوى المتصارعة على أملاكهم.

وهذا ما جعل مولاي عبد الله، يعود إلى وهران مع ما بقي من الجند الإسباني، والقبائل العربية، و لم يكتف، بطلب النجدة من الكوديتي، بل انتقل إلى اسبانيا ملتمسا المساعدة من شارل الخامس، مما جعل الصراع يشتد بين الجزائر واسبانيا.

- أثر الصراع بين ولاة الجزائر وشارل الخامس على الدولة الزيانية:

يبدو من خلال الوثائق التي استطعنا الإطلاع عليها و المتمثلة في التقارير والرسائل المتعلقة بعهد السلطان مولاي محمد وعلى الخصوص الفترة الممتدة بين حكم خير الدين على تونس 941هـ/1534م[2] واحتلالها من طرف شارل الخامس1535/942م أثرت على سياسة أمراء الدولة الزيانية لأن أحداث المغرب الإسلامي يؤثر بعضها على البعض الأخر.

فالتنافس بين الخلافة العثمانية والإمبراطورية الأسبانية لم يكن مقتصرا على الجزائر فقط بل شمل تونس أيضا ولذا فإن السيطرة على تونس من قبل

1- الرسالة المؤرخة، في 1535،9،5. p21-140.

2- MEMORIAL historico Gamra Cronica, Francisco de Barbarrajo, en Espagnol, Madrid 1851, P 516

خير الدين أثر في علاقة الدولة الزيانية بأطراف الصراع والرسالة من قبل حاكم وهران إلى الإمبراطور شارل الخامس[1] Charles V تنص على أن مولاي محمد كلف أحد قادته وهو شيخ حميان (كذا)[2] بلإتصال بالإسبان ولكي يتعرف على نواياهم تجاه الدولة الزيانية وقد أخبر صاحب الرسالة أن مولاي محمد لا يريد الإرتباط بإسبانيا وأن العمل الذي قام به والمتمثل في إرسال وفد إلى وهران الهدف منه ربح الوقت في انتظار مساعدة ستصله من مدينة الجزائر. فهو من جهة يتصل بحاكم وهران ومن جهة أخرى ينتظر وصول المساعدة من قبل خير الدين الذي كان خلال هذه الفترة مشتغلا باحتلال تونس ولعلّ هذا ما دفع بمولاي محمد إلى الإتصال بالإسبان في وهران حتى يضمن عدم محاربتهم له، لتعاونه مع الدولة الجزائرية.

إلا أن النصارى استغلوا فرصة تواجد خير الدين في تونس ثم ذهابه والانتقال إلىالقسطنطينية فقاموا بحملة ضد تلمسان سنة942هـ/ 1535م.

1- أنظر رسالة 943 هـ، 1534 de licenc Amelorejo Correjidor d'Oran a sa majest I, Emperador,

2- ولعل المقصود به حميان وهؤلاء من بني يزيد بن غبس بن زغبة، كانوا يقطنون أرض الحفرة، لمزيد من المعلومات عنهم أنظر أبو راس عجائب الأسفار ورقة 15.

- الحملات التوسيعة الإسبانية على تلمسان ومستغانم:

1- الحملة الأولى عـلى تلمسان:1535/942.

تندرج هذه الحملة ضمن الحملات التي ستقوم بها إسبانية ضد عاصمة الدولة الزيانية، والهدف الأساسي من تسييرها هو إبعاد السلطان مولاي أحمد أبو زيان الثالث عن تلمسان، الذي كان مواليا للدولة الجزائرية، وتنصيب منافسه مولاي عبد الله الذي أعلن ارتباطه بالإسبان، مما جعلهم يقدمون له يد المساعدة التي تمثلت في فرقة عسكرية وأربع مدافع، في انتظار توافد القبائل الموالية للإسبان، بفرسانها لتقوية الحملة بعد أن اتصل بهم حاكم وهران الكوديتي الذي جعل قيادة الحملة لأحد القادة الإسبان مارتيناز[1].

وعندما وصلت الأخبار لمولاي أحمد عن تحركات الأسبان، واتجاههم نحو تلمسان، عمل من أجل إيقاف الحملة، قبل وصولها لعاصمة الدولة، فأرسل مزوره المنصور بن غانم الراشدي، لمضارب بني راشد من أجل تجنيدهم، ضد الأسبان وإغداق الأموال على أعيانهم، وكبار شيوخهم، كما فعل أيضا مع القبائل التي كان يخشى موالاتها للأسبان بعد أن علم بوصول رسائل لهم من قبل الكوديتي، طالبا منهم مساعدة مولاي عبد الله، وقد استطاع المزوار أن يحقق نتائج إيجابية، وعلى الخصوص عدم ضمان مشاركة القبائل في القوة الإسبانية، فاعتبر ذلك أول ضربة قاضية توجه لهذه الحملة[2].

1- قرار تعين الكوديتي مرتين فرناند يزالقرطبي بدون اليوم والشهر El Caudete Marten S imam Cas Secritaria est . de Le gajo n 234- . 2 Fernandez de Cordoba 1535 ،943 P .237

2- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص316 . انظر أيضا «Brunel (Camille) Guerra de Tlemcen», BSGO, 1891 P 227

أما قائد القوة الإسبانية، فقد اتضح له الخطر المحدق به وعلى الخصوص أنه لم تصل إليه الإمدادات التي كان يأمل في وصولها إليه بين الحين والآخر، وقد قطع المسافة بين وهران ونهر زير الذي يخترق سهل سيرات، ولم تصله خلال هذه الرحلة أي إمدادت، ومما تبين له بأن القبائل الموالية للأسبان نقضت العهد الذي ينص على إمداد هؤلاء بالرجال وما يحتاجون إليه من المؤونة، عند تحركاتهم وعلى الرغم من ذلك فان قائد الحملة[1]، كان مصرا على الوصول إلى تلمسان، مهما كانت الخسائر، لأن حسب ما أورده مرمول بأنه سرح للقادة الذين طلبوا منه التريث حتى يتضح الأمر، أجابهم بأن قومه لايولّون الأدبار أبدا[2] لكن هذا غير صحيح، لأن الظروف السياسية في المغرب الإسلامي هي التي جعلت هؤلاء لا يولّون الأدبار، لأن سلاطين الدول المغربية في أعزّ قوتها مثل ماكان عليه الحال، في عهد السلطان يوسـف[3] بـن تاشفين وأبو يعقوب المنصور، فإن الذين يولّون الأدبار هم الإسبان، وعندما دخلت هذه الدول عصر الإنبطاح أصبح الذين لا يولون الأدبار هم الإسبان وحتى في هذه المرحلة عندما تكون القيادة في مستوى الحدث يكون النصر لصالح القوة الإسلامية.

1- عن هذه الحملة: أنظر: رسالة الكودتي، الأمير تلمسان، مولاى بن محمد مؤرخة في934هـ،1535. Loz 29 F 107

2- مرمول، المصدر السابق، ج2 ، ص324.

3- من اشهر المعارك التي خاضها السلطان يوسف بن تاشفين معركة الزلاقة 1479أنظر ابن الاثير الكامل، 13ج بيروت1965، ص 151، من أبرز انتصارت أبويعقوب المنصورالموجود معركة الارك591، لمزيد من المعلومات عنهاأنظر بن عذاري البيان ج 5 ص.136.

- مراحل الحملة: حملة 943هـ/1535.

تقدّم مارتناز إلى نهر ستان حيث قضى الليلة وفي الصباح استمر في سيره حتى وصل إلى تفيدا التي تقع ضمن مضارب بنى راشد غير بعيدة عن القلعة، وفي محيطها وقعت المعركة الحاسمة بين الأسبان والقوة الزيانية بمساعدة قبائل الناحية، وبما أن قوة المغاربة حسب ما ذكر مرمول[1] كانت كبيرة، بينما القوة الإسبانية لا تزيد عن ستمائة جندي عمد القائد إلى التحصن بخرائب[2] المدينة لكي يضمن عدم ضربات فرسان القبائل، وحتى الفرقة الزيانية التي رافقت مولاي عبد الله، فضلت هي الأخرى التخلي عنه والانضمام لاخوانهم من المجاهدين، وهذا رأي مرمول كان من بين عوامل الهزيمة التي ألحقت بالأسبان.

أسباب فشلها: ويعتبر مرمول كعادته « أن عوامل الفشل لا تعود لقوة المسلمين الذين واجهوا الأسبان، بل لأخطاء القيادة الإسبانية، لأنه كان في إمكانها التحصن، وأن لا تدخل في مواجهة حتى تصل الإمدادات من مدينة وهران»، لكن من يضمن وصول الإمدادات؟، لأن وهران والمرسى الكبير كانتا تعانيان من قلة الإمكانيات المادية، والبشرية، ويتجلى دلك في التقارير المرسلة لملوك إسبانيا، وأنه لا يمكنهم القيام بأي عمل إلاّ بمساعدة الجند، والمتطوعين الذين يقبلون من إسبانيا، وعلى الخصوص المدن الجنوبية، كمالقة، والمرية، ومما يؤكد ذلك أن الكودتي قبل قيامه بحملة 950هـ/1543م على تلمسان ذهب لإسبانيا لتجنيد الجند.

1- مرمول، المصدر السابق، ج 2، ص307 .

2- هذه المدينة ورد ذكرها في الوثائق الإسبانية باسم تبيدة ،كانت موجودة على ضفاف وادي يسر ، بالقرب من تلمسان أنظر Brunel (Camille) Op. cit 296.

أما من حيث الجانب الإسلامي، فإنه في إمكانهم الحصول على إمدادات أخرى، وبذلك يمكنهم القضاء على الأسبان في مكان تحصينهم، يكون كلام مرمول غير صحيح بالنسبة للجانب العسكري بل محاولة منه للتقليل من قوة المسلمين كما فعل عندما تعرض للهجمات الإسبانية على الجزائر.

وهذه المعركة أكدّت أيضا بأن الصراع لم يكن مقتصرا على أمراء الدولة من جهة، والقوة المتنافسة على عرش بنى زيان من جهة أخرى بل امتدّ إلى قبائل الناحية، ففي الوقت الذي وقفت فيه بطون بنى عامر، إلى جانب شيخها عبد الرحمن بن رضوان في معركة تيفاد سنة 943هـ/1535 فإن المنصور بن غانم الراشدي جمع هو الآخر قوة من بنى راشد، لمواجهة ابن رضوان وحلفائه من الأسبان الذين بلغ عددهم حولي ستمائة بعضهم قتل في المعركة بينما فرّ ما تبقي، و يتجلى لنا ذلك، من الرسالة التى بعث بها الكودتي إلى الإمبراطور شارل الخامس[1] لإطلاعه على الخسائر التي لحقت بالقوة الإسبانية في هذه المعركة، وقد أخبره أيضا بأنه وصلته معلومات من تلمسان، عن طريق أحد اليهود تتعلق بالإمدادات التي وصلت عاصمة الدولة من بنى راشد، كما زوده بقائمة الأسرى الأسبان وقلعة بنى راشد تجمع بها حوالي ألفي شخص من الرجالة والفرسان، لوقف أي هجوم قد يشنه الإسبان وحلفاؤهم على مضاربهم وعلى الخصوص من طرف بنى عامر.

وتحسّبا لتأثير هذه المعركة على نفوذ الأسبان عمد الكوديتي إلى الاتصال بشيوخ القبائل ،وفي نفس المدة رحل خير الدين إلى الأستانا وتذبذبت سياسة

1- CCes .P.R, Lettre de Comte Vereuil, de la Can Perence qui a eu lieur. d'Alcaudet au cheikhs arabes du parti de Ben Redouan, Pour la reddiation des Otages, Arch. de simancas, et de legajo 463 14، P 95،4 1536.

أصحاب تلمسان والبايلاربيات كما عرفت هذه السنة «1535/941» تطورات كبيرة بنسبة للقوتين المتنافستين على ملك بني زيان والصراع بين مولاي محمد ومولاي عبد الله على العرش وعلى الخصوص بعد فشل الأسبان في إزاحة مولاي محمد أو ربطه بالإمبراطورية الأسبانية لأن هذا الأخير أصبح يلعب على الحبلين باستغلال أوضاع الدولتين الأسبانية والجزائرية ومما يؤكد ذلك أنه عندما علم بنجاح الحملة الأسبانية على تونس سنة «1535/942» خشي أن يؤثر ذلك عليه لعلاقته بالدولة الجزائرية فاتجه نحو الأسبان ووافق على معاهدة أغلب بنودها لصالحهم لأنه لا يوجد لديه حل آخر فخير الدين استدعي من طرف سلطان الخلافة العثمانية لتولي قيادة أسطولها، وأن خليفته لم تتضح بعد سياسته، لذا فإن الموافقة على المعاهدة هي ربح للوقت لا غير، وبالفعل وصل نص المعاهدة إلى تلمسان يوم 25 سبتمبر 1535م فأمضي من قبله، ومن أهم بنودها أن مولاي محمد سيقطـــع علاقاته بالدولة الجزائرية، وأن لا يشارك في أي مشروع خاص باستعادة وهران وحتى يتأكد البند، اشترط الأسبان على مولاي محمد أن يكون أحد أبناء المنصور ابن غانم مزواره ضمن رهائن قبيلة بني راشد لدى الكوديتي حتى لا يشارك في حالة هجوم الجزائر على وهران.

كما نص الإتفاق على إطلاق سراح الأسرى الذين أسروا في معركة كيفدا سنة«1535/941م» وأن ذلك سيتم بعد ثمانية أيام من إمضاء المعاهدة لكن عندما تولى حسن بن خير الدين شؤون الدولة الجزائرية استمر في نفس السياسة التي سلكها خير الدين تجاه الأسبان، وأول عمل قام به الهجوم على مدينة أرزيو قريبا من وهران محاولا منه تجهيز حملة كبيرة لاستعادة وهران والمرسى الكبير بعد حصارهما برا وبحرا مما جعله يكاتب مولاي محمد طالبا

منه يد المساعدة وكذالك بنى راشد والحشم وبقية القبائل الموالية لمولاي محمد[1]، والدولة الجزائرية.

فهذه التحركات كان لها رد فعل من طرف شارل الخامس، الذي أدرك خطورة الوضع، بالنسبة للمراكز الإسبانية، فأمر مجلس الإمبراطور، بعقد جلسة خاصة، خلال شهر نوفمبر وديسمبر، خصصها لشؤون الدولة الزيانية، التي أصبح أميرها من أتباع الدولة الجزائريـــة، وأنّ تحالف الدولتان يشكل خطرا على اسبانيا ومصالحها في المغرب الإسلامي وعلى الخصوص المغرب الأوسط، لذلك اتخذ هذ المجلس قرارت ينص بعضها على مايلى:

أ: تقديم يد المساعدة لعبد الرحمن بن رضوان، وحفيده مولاي عبد الله لإزحة مولاي محمد عن عرش الدولة الزيانية.

ب: تزويد مدينة وهران بحولي ثلاثة آلف جندي وتحصين قصبتها، والحصون المحيطة بها وبالمرسى الكبير.

ج: تزويد الحصون بمدافع جديدة بعيدة المدى من المدن الإسبانية الجنوبية، لذا أصدر شارل الخامس أمرا لحاكم مالقا بارسال السلاح بأقصى سرعة مع مجموعة من الجند يكون تحت قيادة الكوديتي مباشرة، لأن وهران والمرسى الكبير عرفتا مضايقات من الأسطول الجزائري، الذي أصبح يراقب تحركات القوة الاسبانية، مما سيشكل خطرا عليها وعلى الخصوص ما يتعلق بالإمدادات التي كانت تصلها من المدن الجنوبية الإسبانية[2].

---

1 –lettere‹de chatelain‹au Comte d'El Caudete‹Tlemcen‹ 26janvier1536 estada Legajo‹463Primaudaie ‹Op.cit‹p.33.

2 –letter de d ALONSO de Cordoba a son pere le Comte d'Elcaudete ‹ estodo , Legajo 463 Oran ‹ 25 ‹12 ‹1536 P943.

أما ابن رضوان فقد تشجع لوقوف الأسبان إلى جانبه ولكي يضمن استمرار مساعدتهم له ولحفيده مولاي عبد الله، أرسل للإمبراطور رسالة ضمّنها قوله: أن مولاي عبد الله زار أتباعه بداخل تلمسان وخارجها، وأنّه تلقى مجموعة من الرسائل من أعيان المجتمع التلمساني وشيوخ القبائل الموالية لهذه الدولة، وكذ لك من بقية المدن الزيانية الأخرى، وأنهم سيقفون إلى جانبه لإزاحة مولاي محمد، لكن هذا الأخير استمر في موالاته للدولة الجزائرية، وهو ما تشير إليه الرسالة التي بعث بها الكوديتي للإمبراطور، بعد المعلومات التي تحصل عليها من جواسيسه المندسين في الجزائر، وقد ذكروا له بأن هناك اتصالات بين حسن آغا من جهة، والدولة الزيانية من جهة أخرى، فمولاي محمد كتب إلى حسن آغا طالبا منه يد المساعدة، للوقوف أمام مولاي عبد الله وحلفائه، من بنى عامر واستعادة وهران والمرسى الكبير، وقد تمّ ذلك خلال محاصرة عبـــد الرحمن بن رضوان لتلمسان، وكان يهدف من وراء ذلك الدخول إليها وتنصيب مولاي عبد الله، وخلال تلك المدة راسل شارل الخامس طالبا منه القيام بحملة على مدينة الجزائر، وأنه سيزوده بثلاثة آلاف من الرماة[1]، لكي يتمكن من القضاء على حلفاء مولاي محمد.

لكن يبدو ان الأمور تغيرت لصالح بن رضوان، وحفيده مولاي عبد الله لعدم وصول الإمدادات له من قبل حسن آغا، وحتى لا يفقد عرشه تظاهر بموالاة الأسبان، لكن الكوديتي أصبح لا يثق به فزاد في تدعيـــم مولاي عبـ الله، وهو ما دفع به إلى الاتصال من جديد بالجزائر، مقترحا معاهدة على حسن آغا لكن هذا الأخير اشترط عليه إلغاء المعاهدة التي أبرمت بينه وبين

1- lettre du Comte d' El Caudete a sa majeste، Oran، 5، 6، 1536، ... arch، de simancas estado legajo، ...463

الأسبان «943 هـ/1535م»، مقابل تزويده بالجند وبعض المدافع، ولم تكن معاهدة سنة «1535/943» قد دخلت حيّز التنفيذ، مما جعل مولاي محمد يطلب من الأسبان تأجيل تنفيذها لمدة عشرين يوما لكي يتمكن من الحصول على الإمدادات من الجزائر أما مولاي عبد الله فكاتب هو الآخر للأسبان وطلب منهم مساعدته بخمسة عشر ألف رجل من أتباعهم، ومدافع لكي يتمكن من استعادة عرش الدولة الزيانية، وقد وافق شارل الخامس على مطلبه بعد أن زوّد الكوديتي بقوة عسكرية تقدّر بألفي جندي، كما أخبره بأنه سيقوم بهجوم على مدينة الجزائر، وطلب منه أن يتّصل بمولاي عبد لله وحلفائه من بني عامر لكي يتجندوا لمحاصرة الجزائر برا في الوقت الذي سيحاصرها هو بحرا.

بوصول هذه الإمدادات للكوديتي زاد الضغط على مولاي محمد، مما جعله يتقرب من الكوديتي ويوافق على إطلاق سراح الأسرى الأسبان وتقديم ما عليه من ضريبة الإمبراطور الإسباني، إلا أن الكودتي يريد إزاحته مغتنما فرصة سوء أوضاع الدولة، لأنها في هذه السنة عرفت أزمة اقتصادية نتيجة للجفاف الذي أصاب أراضي الدولة مما أدى إلى هلاك المواشي ونقص في الإنتاج الزراعي، زيادة على ماسبق أن مولاي عبد الله، اقترح على الكوديتي، في حالة تنصيبه على رأس الدولة الزيانية بعد إبعاد مولاي محمد أنّه سيقدم للدولة الإسبانية ثمانية عشر ألف دينارا بمجرد دخوله تلمسان وخمس عشر فيقية Fangues من القمح وخمسة آلاف فيقية شعير وخمسمائة ثور، زيادة على المساعدة التي ستقدم من القبائل الموالية له:

كما يضمن تقديم المواد الأولية والعمال لبناء حصنين في كل من أرزيو، وأرشقول وإمضاء معاهدة تقترح اسبانيا بنودها.

أما الدولة الجزائرية فكانت هي الأخرى على علم بهذه الاتصالات بين مولاي عبد الله والأسبان بواسطة عيونها، مما دفع بحسن آغا أن يحضّر هو الأخر سنة1540 لمشروع جديد يتعلق باستعادة وهران من الإسبان، وجنّد كل الإمكانيات المتوفرة لديه والمتمثلة في الأسطول الجزائري وأتصل بخير الدين لكي يقدم له الدعم حتى تتم محاصرة وهران والمرسى الكبير بحرا وبرا بواسطة القوة الجزائرية والزيانية مع حلفائهما في المنطقة.

وحتى يضمن نجاح المشروع عمد حسن آغا إلى احتلال برشك[1] واتخاذها قاعدة بحرية إلى جانب تنس ومستغانم لإيصال الإمدادات للقوة المهاجمة بأقصى سرعة، ولضمان استقرار الأوضاع الداخلية وتعاون الأمراء معهم أتصل بابن القاضي شيخ إمارة كوكو فأخبره بالمشروع وحثه على المشاركة وفعل ذلك مع مولاي محمد فأتصل به بواسطة محمد رايس واقترح عليه عدم السماح للقوافل التجارية المتجهة من تلمسان إلى وهران وإقليم بني راشد نحو وهران، أيضا في نفس الوقت تقوم السفن الجزائرية بمراقبة تحركات الأسطول الإسباني ولكن على الرغم من المساعدة المقدّمة من قبل بني زيان للدولة الجزائرية، فإن مولاي محمد أصبح يشعر بنهاية دولته لكثرة الطامعين فيها، فالوطسيون يريدون ضمها لدولتهم، وعلى الخصوص الأراضي الواقعة غرب تلمسان، وحتى حسن آغا يريد التخلص من بني زيان لكي يتم له توحيد

1- برشك من المدن الهامة على الساحل الجزائري بين تنس وشرشال لعبت دورا هاما في المبادلات التجارية بين الدولة الزيانية والدول الأوروبية وهي من مراكز مغراوة ويعتقد بعض الباحثين بأنها غير بعيدة عن جورايا حاليا.

الجزائر، لكن أكبر المشاكل التي سيواجهها هم الأسبان الذين رأوا في استلاء الدولة الجزائرية على تلمسان خسارة مادية تقدر بمائتي دينار ذهبية، وهي الأموال التي كان من المفروض أن يسدّدها مولاي محمد لصالح الأسبان في شهر جويلية1541.

2- حملة1541 على الجزائر وتأثيرها على إمارة بني زيان:

في الوقت الذي كان فيه حسن آغا يتهيأ للاستيلاء على دولة بني زيان كان الإسبان من جهتهم يحضّرون لحملة ضد الجزائر وقد علم بذلك حسن أغا فاتصل هو الأخر بمولاي محمد[1] طالبا منه أن يأخذ حذره من القوة الأسبانية.

في تلك الأثناء كان شارل الخامس يهيء نفسه للقيام بالضربة القاضية ضد مدينة الجزائر التي تعتبر من أكبر القواعد الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي المسيحي، ولذا عرفت في أغلب الوثائق بدار الجهاد منذ تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة 924هـ/1518م إلى الاحتلال الفرنسي 1830/1246، أن هذه القلعة سيكون لها تأثير سلبي في مشاريع شارل الخامس الذي يريد تنصير سكان المغرب الإسلامي تماشيا مع وصية الملكة إيزبيلا، لكن الجزائر وقفت موقفا شجاعا حيث تحطمت على صخرتها أحلام الإسبان وأصيب شارل الخامس بأكبر هزيمة لحقت بالتّاج الإسباني بصفة عامة وشارل الخامس بصفة

1- رسالة الكوديتي إلى شارل الخامس مؤرخة في 24،12،1540 أنظر A.G.S Estado leg 468. أنظر أيضا: مولاي بلحميسي ،غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 948هـ،1541. بين المصائر الاسلامية و المصائر العربية مقال بمجلة تاريخ و حضارة المغرب ع 6-7-1969. ص ص 34-56.

خاصة، حيث فقد في معركة الجزائر«948هـ/1541»[1]، أكبر قادته العسكريين وأسطوله البحري.

رفعت الهزيمة مكانة الدولة الجزائرية داخليا وخارجيا ففي الداخل تعهد السلطان الزياني إلى الارتباط بالدولة الجزائرية، وتسليم قلعة المشور لحسن آغا[2] قائد النصر على الجيوش الإسبانية، إلا أن هذ الأخير لم يكن يثق فيه لأنه سبق له أن وقف مع الأسبان ضده، وأن هزيمة هؤلاء هي التي أجبرته لموالاته، وهو ما دفع به إلى الاتصال بمنافسه ابو زيان أحمد الذي كان في البداية مواليا للقوى الإسلامية، إلا أن ضغط جدّه عليه جعله يتجه إلى الإسبان لكن حسن آغا رأى بأنه هو الأفضل فارتبط به.

3- الحملة الثـــانية على تلمسان:950 -1543

هذا فيما يخص الفترة التي سبقت حملة 1543، أما الحملة فإنّها تعتبر من أبرز الحملات التي أدت إلى احتلال تلمسان من طرف الكوديتي، والقيام بها يرجع إلى عاملين أساسين:

1: استمرار الصراع بين أمراء الدولة، مولاي عبد الله، ومولاي أحمد، فعندما فشل الأول في استعادة كرسي الحكم بتلمسان فضل الانتقال إلى وهران طالبا يد المساعدة فقدّم له الكوديتي فرقة من الجيش، كما طالب من شيوخ القبائل المتحالفة معه الالتحاق به، ثم تقدم على رأس هذه القوة إلاّ أنّه فشل في الوصول إلى تلمسان فتعرض له المنصور ابن غانم، وتمكن من تشتيت قوته

1- Primaudaie Documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique 1506 1574 R.A 1875 PP 169-175.

2- Bargest (J-J-L .) Complement de histoire des beni zeiyan p.

بوادي سنان، فعاد أدراجه إلى وهران، لكنه لم يجد الترحيب من الكوديتي الذي يبدو أنّه اتّهمه بأنه وراء الهزيمة التي ألحقت بالقوة الإسبانية (1535م)، مما جعله يتجه مباشرة لإسبانيا طالبا يد المساعدة من شارل الخامس الذي كان يعمل من أجل الثأر لهزيمته أمام مدينة الجزائر، فاستغل وصول هذا الأمير، لكي يحاول من خلاله القضاء على نفوذ الدولة الجزائرية بتلمسان واستعادة النفوذ الإسباني في أراضي الدولة الزيانية، بعد أن تأثر نتيجة الحملة949هـ/ 1541م، لذا كاتب الكوديتي في وهران طالبا منه تسخير كل إمكانياته لصالح مولاي عبد الله.

2: إن الهزيمة التي لحقت بالقوة الإسبانية بوادي سنان كان لها تأثير في الكوديتي، فرأى بأن إرسال القوة الإسبانية وتولي قيادتها بنفسه سيكون لها أثر في محو الهزيمة، وحتى لا يقع في الأخطاء السابقة عمد إلى تحضير هذه الحملة فاتصل بملك إسبانيا وطلب منه تزويده بأربعة ألآف جندي، منهم أربعمائة فارس لكي يتمكن من الاستيلاء على عاصمة الدولة الزيانية تلمسان.

ولمواجهة هذه الأخيرة، عمد الكوديتي إلى اتباع الوسائل الآتية:

1: إحداث الفتن بداخل البلاط الزياني، وبين القبائل الموالية لمولاي أبي زيان، حتي يؤدي إلى إضعاف قواته.

2: تحصين حصن أرزيو وارشقول، لكي لا يستغلا من قبل القوة الجزائرية إثر فترة خروجه من وهران.

3: تزويد الجيش بالآلات الضرورية التي تستعمل في تهديم الأسوار والتحصينات.

- **تحديد تاريـــخ انطلاق الحملة**

خرجت الحملة من وهران في 27 جانفي بقيادة الكوديتي ثم توقفت بمسرغين انتظارا لوصول الموالين للإسبان من شيوخ القبائل المجاورة لوهران، وفي 31 جانفي وصل الجيش إلى عين تموشنت فتوقف بالقرب من شعبة اللحم، في نفس الوقت الذي كان سوق الخميس منعقدا، مما جعل الجند يشترون ما يحتاجون إليه من الأحذية[1].

وقد التحق بنفس المكان قائد الجيش الزياني إبراهيم الزياني، فهاجم القوة الإسبانية بالليل، على إثرها تحركت القبائل القاطنة بالجبال المجاورة لعين تموشنت.وأعلنت الجهاد ضد الإسبان[2].

كما وصلت معلومات لقائد وهران بأن المنصور بن غانم في انتظار الإسبان مع قوته[3] وعندما وصل الجيش الإسباني إليه بدأت المعركة بين الطرفين على الساعة الثامنة من نفس اليوم، وقد دخل الإسبان المعركة بقوة تتألف من ألف وخمسمائة جندي، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية تعتبر شعبة اللحم الخط الدفاعي الأول للقوة الزيانية على طريق تلمسان وهران وهذا منذ «924هـ/1535م» حيث عمد المنصور بن غانم بتكوين حاميات متواجدة في كل من البطحاء[4] تيفادة لتوقف تقدم الأسبان.

1- Cueva, Op cit . P .243

2- Ibid، P 244

3- Cueva.Ibid , P 245,

4- البطحاء فضاء واسع عرفها أبوراس ببطحاء سيرات لا نعرف موقعها ولا تاريخ تهديمها لكن يبدو أنه كان خلال حكم الإسبان لمدينة وهران ،أنظرأبوراس عجائب الاسفار ورقة 93.

في "950هـ/2،2،1543م" وقعت أيضا معركة بين الإسبان والمنصـور بـن غانم في تيفادة[1]، وبعدها استمرّ تقدم الإسبان بالرغم من الإصابات التي لحقت بهم في هذه المعركة.

وبعد يوم من انتقالهم من البطحاء هاجمتهم القبائل العربية التي جندت ثمانمائة رجل، واستمرت المعركة طوال الليل، ثم تقدم الجيش الإسباني إلى وادي يسر[2]، خلالها عمد الإسبان إلى ترك قوة في سفوح تلك الجبال لحماية قوتهم الإسبانية عند اجتيازها النهر حتى لا تباغتهم من المؤخرة.

وفي ذلك المكان وقعت معركة بين القوة الزيانية والإسبانية، أما فيما يتعلق بتلمسان فإن سكانها قد خرجوا عنها يومي4 و5 فيفري مع أطفالهم ونسائهم واستقروا بالجبال المجاورة لها[3] ولم يبق بالمدينة إلاّ حوالي ألفي شخص بين الأهالي وأفراد الجالية اليهودية كما ترك مولاي محمد تلمسان يوم الثلاثاء1543/2/6 قبل وصول الجيش الإسباني لها، مما سهّل مهمة الكوديتي في الاستلاء عليها وبعد دخولها استقر بالمشور إلى جانب مولاي أبو عبد الله الذي تولّى حكم الدولة الزيانية للمرة الثانية وقد إحتفل باستعادة عرشه فتزوج من بنات أكابر تلمسان والسبب في ذلك هو محاولة منه التقرب من أعيان المدينة الذين لهم تأثير في المجتمع التلمساني، لأن ما قام به سيؤثر في علاقته بهم وهو ما حدث بالفعل، لأنه بمجرد خروجه من تلمسان لمحاربة أخيه مولاي أحمد الذي كان بجوار تلمسان، غلق السكان أبوب مدينتهم حتي لايرجع

1- عرفت أيضا بمعركة وادي الضعيف تيفاد تقع بالقرب من هذا الواد، أنظر، مرمول المصدر السابق، ج2، ص 316 .

2- وادي يسر يقع على الطريق الذي يربط بلعباس بتلمسان عن هذا انظر Ruff (P)، OP cit P .88

3- Ibid، P 88.

إليها، وهو ما يؤكده صاحب النص بقوله: « ولما خرج أبو عبد الله لقتاله ورام الرجوع منعه أهل البلد من الدخول وأعلنوا عليه التحالف مع القوة الأسبانية»[1] لأن هؤلاء عندما دخلوا المدينة أساءوا لها ولسكانها، ولمقدساتها الإسلامية، ولذا اعتقد بأن الذين كانوا وراء هذه الحملة أنصار الدولة الجزائرية، وعلماء تلمسان الذين سبق لهم أن تحالفوا مع قبائل الناحية للوقوف أمام الأسبان، وعندما خرج منها الأسبان، عادوا لتلمسان وعارضوا أميرها، وهوما جعلهم يصرحون له ويقولون "يا خادم الروم إذهب عندهم"، ثم فتحوا الأبواب لمولاي أحمد بعد ابتعاد مولاي عبد الله عنها نحو قبائل أنجاد الذي سبق له أن تحالف معهما وكان يعتقد استمرار موالاتهم له، وعندما وصل إلى مضاربهم ألقوا القبض عليه وقتلوه ثم بعثوا برأسه إلى الأمير الزياني.

ويبدو لي أن حركة سيدي يعقوب شيخ زاوية ندرومة لعبت دورا بارزا في القضاء عليه، لأنه تمكن من خلق تحالف بين قبائل، طرارة، ووجدة وأنجاد، لمواجهة القوة الإسبانية التي بها مولاي عبد الله لاحتلال عاصمة دولته، ولعل هؤلاء قد أصدروا فتوى في شأنه اتهموه فيها بالإرتداد عن الإسلام لتعاونه مع النصارى ضد المسلمين هذا فيما يتعلق بالسلطان الزياني.

أما الأسبان فإنهم قد واجهوا مقاومة شديدة قد حققت نتائج مرضية حالت دون خروجهم من تلمسان لأن مشروع الكوديتي ينص على احتلال كل أراضي هذه الدولة ،وربط تلمسان بالمراكز الإسبانية في كل من وهران والمرسى

1- ابن زرفة المصدر السابق76.

الكبير ومليلة[1] إلا أن تزعّم رجال الطرقية المقاومة أدى إلى تجنيد كل القبائل المجاورة لتلمسان وتحقيق بعض الانتصارات على القوة الإسبانية التي حاولت أن تتوسع خارج عاصمة الدولة، وهو ما دفع بالكوديتي أن يأمر قوته بالانسحاب يوم 1543/02/26 بعد أن كبّله أبوعبد الله بمعاهدة تنص على أن يكون الأمير من أتباع الإسبان مع دفع ضريبة سنوية تقدر بأربعة آلاف دينار ذهبية.

أما الخروج من تلمسان فكان يوم الثلاثاء 1543/02/28، رفقة المرضى والمعطوبين من جنده الذين أصيبوا خلال المعارك السابقة، وعند عودته واجه صعوبات منها الغارات المتواصلة على مؤخرة جنده مثلما حدث عند واد الصفيصف.

نتائج المعركة تتمثل فيما يلي:

أولا: أن السيطرة على تلمسان سمحت لمولاي محمد باستعادة عرشه مقابل الخضوع للشروط الإسبانية التي أقرّتها المعاهدة التي أبرمت بين مولاي محمد والكوديتي منها تمويل وهران بالمواد الغذائية وإعادة دفع الضريبة التي كانت تقدم من أمراء الدولة للأسبان[2].

ثانيا: أن هذا الإنتصار سمح لحاكم وهران أن يحضّر الضربة الثانية، والتي حدّد ميدانها مستغانم لأهميتها[3].

1- توجد لدينا رسالة للكوديتي تتعلق بهذه الحملة أرسلها من تلمسان لشارل الخامس مؤرخة في 1543،02،08 ذكر فيها خروج مولاي محمد من تلمسان بالتدقيق أنظر: A.G.S . Guerra Antigua leg 26 Fol 93.

2- uff (F), Op.Cit. p 106

3- Cueva , la guerre de tlemcen, P P 350 - 353 .

4- الحملة الأولى:

*** حملة مستغــانم950 هـــ/1543م**

أعطى الكوديتي هذه الحملة أهمية كبرى، فقد أرسل تقارير إلى دولته تؤكد خطر مستغانم على وهران وقال بالحرف الواحد: «لو بقيت مستغانم بيد القوة الجزائرية فإننا سنتحول إلى عبيد لهم لقربها من المراكز الإسبانية».

تعرضت الوثائق الإسبانية لهذه الحملة وحددت تاريخ انطلاقها بيوم15 مارس 1543 أي بعد 15 يوما من عودة الكوديتي من تلمسان والقوة المشاركة فيها تتألف من7 آلاف من المشاة و160 من الفرسان وأن هناك قوة لحلفاء إسبانية كان من المفروض أن تنضم إليهم حسب الاتفاق مع شيوخ قبائل الناحية وخاصة قبيلة مديونـــة التي شاركـــت بـــ: 300 فارس بينما المنصور ابن غانم و حميد العبد رأى في وقوفهما إلى جانب الأسبان تأثيرا سلبيا عليهما، مما جعلهما ينضمان إلى المسلمين[1].

وفي اليوم الموالي سار الجند حسب الأوامر التي أعطيت لهم مما جعلهم يبتعدون عن مطاردة سكانها، وفي اليوم الثالث اجتازت القوة وادي تبد، ولم تصطدم بالقبائل العربية، لكن في اليوم الرابع غيّروا طريقهم فاصطدموا بالسكان، فوقعت معركة بينهم وبين تلك القبائل، قتل فيها أكثرمن ثمانين فارسا من الأسبان.

1- عن حملة مستغانم أنظر Gueva op.cit pp125-147 وقد ورد في رسالة لأحد قادة الجيش الأسباني مايلي بعد المعركة: «وقطعنا القنطرة الواقعة على أحد الوديان القريبة من المدينة، ثم وصلنا إلى مكان تمركز القوة الإسبانية» Leon l'African, Description de l'Afrique, ed Epaulard تعرض للأهمية الإستراتيجية والإقتصادية لمستغانم في بداية القرن 16 p343 et Ch de La Verenne memorial de liego del costelle salire la costa de berleria en 1532 dans romera je p 509.

وإن الجيش كان بطيء الحركة لوجود معطوبين بين صفوفه[1]. كما ذكر صاحب الرسالة من المرسل إليه أن يقوم بتجنيد الجند لمساعدتهم، وأن الظروف صعبة للغاية، لأنه لم يبق للأسبان سوى ثلاث عشرة سفينة، واحدة بالمرسى الكبير وبعض السفن معطلة للعطب الذي أصابها وأن عدم تصليحها من قبل البحريين الذين لم يوجّهوا لتلك السفن عناية، والإسبان كعادتهم يتعرضون إلى عوامل فشلهم لكنهم لم يكونوا موضوعيين ويحاولون التقليل من دور الفرد الجزائري، لذلك جعلوا من فشلهم الذي أصابهم بمستغانم، أنه ناتج عن ظروف الطبيعة لأن صاحب الرسالة تعرض إلى الأمطار والثلوج التي أثرت في تحركات الجند، وكذلك الهجمات المتواصلة من قبل القبائل، الذين كانوا يعمدون إلى حرب العصابات لضرب القوة الإسبانية من الخلف[2].

كما أرجعوا أسباب الهزيمة إلى الخطة التي سلكها قائد الحملة، في تنقلها إلى مستغانم بعد نجاح الحملة الإسبانية على تلمسان، دون تحضير الجند للقيام بالحملة كما حدث بالنسبة لتلمسان، فالقوات منعدمة، والأسلحة الثقيلة غير موجودة، وبذلك لا يمكن السيطرة على مستغانم، ومما زاد الطين بلة عدم وصول السفن المحملة بالمؤونة[3].

يضاف إلى ذلك دور السلطان أبي زيان الذي أعلن الجهاد في الأراضي التي تمتد ما بين فاس ومستغانم وهذا نوع من المبالغة، لجأت إليه إسبانيا وحتى القوة الزيانية، التي قدرتها بخمسة وعشرين ألف فارس وأكثر من مائة

1- نفس التقرير Legajo,30F36 أنظر: Moulai Bel Hmissi. Histoire de Mestaganem 1982. pp 71-74.

2- نفس التقرير ورقة 37.

3- نفسه ورقة 39.

وعشرة ألآف من المشاة، زيادة على ثلاثين ألف من بني راشد تحت قيادة المنصور بن غانم[1].

لكن الباحث يرى أن من بين عوامل انتصار القوة الزيانية أن المعركة كانت مصيرية بالنسبة للجزائر فلو سقطت مستغانم لما كانت هناك دولة جزائرية استمرت ثلاثة قرون، ولذا فهذا النصر بيّن بأن وحدة الأمة سيؤدي إلى النصر، أما الأسبان فقد وجدوا صعوبات في الاستيلاء عليها على الرغم من أن تحصيناتها أقل من تلمسان[2].

هذا فيما يتعلق بالزيانيين أما شيوخ القبائل الذين كانوا وراء انتصارات مستغانم فقد عادوا لسياستهم القديمة المعتمدة على الخيانة، فالمنصور بن غانم الراشيدي رفض من قبل السكان، لأنّه كان من بين عملاء إسبانيا، على الرغم من الدور الذي قام به في معركة مستغانم وهو ما جعله يتّصل بالإسبان في وهران، كما أتصل حميد العبد بهم، وبذلك نجد الشيوخ الذين كان لهم تأثير في المنطقة مثل حميد العبد، والمنصور بن غانم، وعبد الرحمن بن رضوان، لم يستفيدوا من انتصار مستغانم بل عادوا لسياسة الانبطاح، لأن المصالح الذاتية تتعارض مع قيام وحدة وطنية تقودها دولة قوية، تستطيع أن تلحق ضررا

1- إن الأراضي التي تمتد مابين فاس وتلمسان كانت تابعة للدولة الوطاسية و لعل بعض رجال الزويا شاركوا في هذه المعركة لإنها كانت رد فعل لما قام به الإسبان في تلمسان بالإساءة إلى الأمكان المقدسة ودور زاوية سيدي يعقوب في نواحي ندرومة في تجنيداها لإنجاد وطرارة وبني بزناس ضد الإسبان.أنظر: Zavala (Francisco), Bandera espanola en Argel e Analisis historico de la dominacion espanol en Argelia desde 1500 a 1791.don Francisco Zavala Bandera es panida en Argel .

2- أنظر الرسالة السابقة المؤرخة في شهر فيفري 953هـ، 1546 G .A .leze. F 30

بالأسبان، وهو ما سهل مهمة الكوديتي في الانتقام من القبائل التي كان لها دور في الحملة على مستغانم.

ففي شهر جوان من نفس السنة قام الكوديتي بحملة تتألف من عشرة آلاف جندي خرجت من وهران إلى وادي تليلات، ومنها إلى سهل الهبرة، لضرب بنى عروج (راشد) ناحية معسكر.

وخلال نفس السنة «1544/951» بدأت شخصية مولاي أحمد تظهر كطرف في الصراع.

ففي البداية وقف إلى جانب مولاي عبد الله واتجه معه نحو جنوب تلمسان بعد دخول مولاي محمد لها، وقد سبق لهذا الأخير أن أمضى معاهدة مع الأسبان ولعب اليهوديان عكسو وأكاكس (Acax et Axo) دورا بارزا في التقارب بين مولاي محمد والكوديتي وتحضير المعاهدة التي أمضاها السلطان الزياني في 1544/10/28 وأهم ما ورد فيها إبعاد المنصور ابن غانم عن الأتراك لكي يضمن ولاء بني راشد للأسبان لأهمية مضاربهم من الناحية الإقتصادية والإستراتيجية وأن مولاي محمد سيدفع لشارل الخامس ما قيمته خمسة آلاف دينار خلال سنة 1544.

وفي السنة الموالية ستكون قيمة الضريبة ثلاثة آلاف دينار بينما شارل الخامس سيقدم فرقة عسكرية لبني زيان يتراوح عددها ما بين ثمانمائة وألف شخص تستقر بالمشور لحراسة الأمير الزياني، وخلال تلك المدة كان شارل الخامس يفكر في حملة ثانية ضد مدينة الجزائر مما جعله يقترح على السلطان الزياني أن يقدم له أربعة آلاف جندي يحاصر بهم الجزائر برّا فأجابه بالموافقة وأنه لا يكتفي بإرسال جنوده بل سيقودهم بنفسه.

- وفــاة مــولاي محمــد 951هــ/1544م.

لم يتوقف الصراع بين أمراء بني زيان بعد وفاة مولاي محمد في ديسمبر 1544 بل زاد عمّا كان عليه نتيجة لتكالب هؤلاء على العرش.

وهناك شخصيتان سيكون لها دور في الصراع هما مولاي منغين الذي سبق له أن تولى قيادة الجيش الزياني في معركة تيفادة 1535 والتي حقق فيها انتصارا على الأسبان وحلفائهم من بني عامر، ثم الأمير الثاني هو مولاي محمد.

وقبل التعرض لهذا الصراع بين الأميرين، يجدر بنا تناول موقف باشوات الجزائر من حكام الدولة الزيانية، فقد استغل حسن آغا غياب الكوديتي في إسبانيا لتضييق الحصار على وهران وإنزال قوة بمستغانم مع قطع مدفعية لمساعدة أمراء بني زيان الذين أعلنوا معارضتهم للإسبان وغير بعيد على مضارب قبيلة مديونة يتواجد مولاي مغنين على رأس قوة عسكرية زيانية تابعة لمولاي محمد المتوفى سابقا وهذه القوة كانت لها علاقة جيّدة مع القوة الجرائرية في مستغانم، وقد سبق لباشوات الجزائر أن اقترحوا على مولاي محمد أن يتنازل له على مستغانم مقابل دفع ضريبة تقدر بحوالي سبعة آلاف دينار.

لم يكن بنو زيان هم الذين أعلنوا الولاء للدولة الجزائرية، بــل نجــد كبــار شــيوخ القبائل أمثال حميد العبد والمنصور بن غانم الراشدي، وخارج أراضـ الدولــة الزيانية، عرفت هذه الفترة تحالفا بــين الخلافــة العثمانيــة والفرنــسيه واستمرار خير الدين في قيادة الأسطول العثماني مما منح دافعا قويا لحسن آغــا في مواجهة الإسبان وبعض الأمراء الموالين لهم، وحتى يتمكّن هــذا الأخيــــر فــي تنفيذ مشروعه المتعلق باستعادة وهران والمرسى الكبيــر، رأى أنــه مــن

الأفضل الاتصال بخير الدين طالبا منه يد المساعدة، وفي نفس الوقت زوّد موانئ برشق وتنس ومستغانم بالمؤونة وبالأسلاحة لكي يضمن وصولها بسرعة خلال حصار المراكز الأسبانية.

هذا فيما يتعلق بحسن آغا أما بنو زيان فقد وقف أميرهم إلى جانبه وأعلن على تسخير كل الإمكانيات المادية والبشرية من أجل تحرير وهران، وهذا يوضح لنا تذبذب سياسة أمراء هذه الدولة تجاه القوتين المتصارعتين، ولم يكن هذا الأمر مقتصرا على بني زيان فقط، بل امتدّ إلى شيوخ قبائل الدولة حيث أعلن حميد العبد شيخ سويد والمنصور ابن غانم شيخ بنو راشد بأنهما سيشاركان إلى جانب قوتهما مع جيوش الجزائر وبني زيان عند محاصرة وهران والمرسى الكبير.

يضاف إلى ما سبق أن المناطق المجاورة لوهران أصبحت تحت مراقبة بني زيان حيث كانت قوة أبو الحرز تتمركز في تلك الناحية وقطعت كل المسالك المؤدية إلى وهران والمرسى الكبير وأن القبائل الموالية للأسبان كأولاد موسى توجهت نحو الواحات الصحراوية مما سهل مهمة القوة الزيانية في غلق الطرق المؤدية إلى وهران وعدم تمويل المدينة بالحبوب والمواشي التي كانت تحصل عليها من هذه القبائل.

من جهة أخرى قام الأسطول الجزائري بمراقبة تحركات السفن الإسبانية في حوض البحر الأبيض المتوسط وعدم السماح لها من الاقتراب من وهران والمرسى الكبير لإيصال الإمدادات لهما، وفي بعض الحالات حاولت هذه السفن الاقتراب من الساحل فواجهتها السفن الجزائرية التي انطلقت من ميناء أرزيو، فوقعت معركة بالقرب من وهران في نوفمبر «950 هـ /1543م».

كما عمد حسن آغا إلى ترك الجزائر والتوجه نحو أراضي بني زيان على رأس فرقة عسكرية شارك فيها الزواويون وعند وصوله إلى مضارب قبيلة سويد أنضم إلى هذه القوة أحد أبناء حميد العبد وهو عمر ابن حميد، كما ارتبطت به قوة بني راشد بعد اجتياز مضارب القبيلة.

وبالموازاة مع هذه القوات البرية أرسلت أيضا من الجزائر خمسة وأربعون سفينة من الأسطول الجزائري تحت قيادة صالح رايس ،أما الأسبان فعندما عجزوا في مواجهة هذه القوات دخلوا في مراسلة مع حسن آغا لعنهم يؤثّرون عليه، كما كانوا يفعلون مع أمراء بني زيان، ومن بين تلك المراسلات رسالة جون مرتين Juan Martin مؤرخة في6 أوت «951هـ/1544م» والتي اقترح فيها على حسن آغا التخلي على الجزائر لصالح شارل الخامس مقابل تعيينه على رأس الجزائر وضمان استقلاليته عن الخلافة العثمانية ،إلاّ أن هذا الأخير أجابهم بأنه مسلم ولم يكن له التخلي عن إخوانه المسلمين.

- الاتفاق بين بني زيـــان و الأسبان لمواجهة حســن آغا:

بعدما فشل الأسبان في التأثير على حسن أغا و كسبه لصفهم توجهوا نحو أمراء بني زيان محاولين بذلك فصل حسن آغا عن خلافته من بني زيان وكبار شيوخ قبائل هذه الدولة، ومما سهل مهمتهم أن سياسة حسن آغا تمثلت أيضا في محاولة جعل أراضي بني زيان تابعة للجزائر مباشرة، ولتنفيذ هذه السياسة الأسبانية أرسل مبعوثان يهوديان لتلمسان من طرف إسبانيا هما أغوس واكسل فوصلا إلى تلمسان واتصلا بالأمير مولاي محمد واستطاعا أن يتحصلا على اتفاق معه أمضي من طرف أمير بني زيان في 28 أكتوبر«951هـ/1544م» وبمقتضى هذا الاتفاق يدفع مولاي محمد لصالح الأسبان ما قيمته خمسة آلاف دينار كما أسلفنا من قبل.

وبعد نجاح الأسبان في فصل مولاي محمد على حسن أغا بدأ التركيز على انضمام شيوخ القبائل لهم وقد اغتنموا وصول وفد من تلمسان إلى وهران أرسله مولاي محمد للكوديتي طالبا منه مساعدته في الضغط على المنصور بن غانم كي ينفصل عن الأتراك،وبالفعل استطاع الكوديتي بوسائله المختلفة منها الإغراءات المادية تحويل المنصور ابن غانم وحميد العبد إلى جانبه والوقوف معه ضد حسن آغا.

ومما زاد الأمر سوءا أن حسن آغا توفي في «951هـ/12/02/ 1544م» وبعد أربعة أيام من هذا التاريخ دخل مولاي محمد إلى تلمسان معلنا توليه شؤون دولة بني زيان،أما مولاي أحمد وعمّ المنصور غانم فقد اجتمعوا ببطون بني راشد في مدينة معسكر وقد أنضم إليهم من كان مواليا لهذا الأمير وبذلك استطاع شيخ بني راشد أن يحوّل كل بطون قبيلته لصالح مولاي محمد.

كما تمكن هذا الأخير أن يضمن ولاء السويد إلى جانبه وبعض القبائل الأخرى حيث اجتمع بهم سنة «952هـ/1545/02/22م» من القرب من تلمسان وبذلك ضمن موالاة أكبر القبائل، فزاد نفوذه و اشتد الصراع بينه وبين أمير تلمسان كما التحق به بعض أمراء بني زيان ومن بينهم مولاي أبو عبد الله الثابتي «952هـ/1545/04/28م».

أما المنصور ابن غانم فقد أعلن الحرب ضد مولاي أحمد، مما جعل هذا الأخير يتجه إلى الجزائر، طالبا يد المساعدة لمواجهة المنصور ابن غانم الذي استطاع دخول عاصمة الدولة، إلاّ أن دخوله تلمسان أدى إلى مواجهة بينه وبين التلمسانيين المولين لمولاي أحمد الذي تمكن في النهاية دخول تلمسان فـي 1545/07/02م بعد أن تركها مولاي مغنين المعروف بمولاي الحسن

وهــو أحد أبناء المنتصر كما فرّ قائده إبراهيم المنتصر لمضارب أولاد طلحة طالبا منهم الحماية.

ومن خلال اطلاعنا على مجموعة من الوثائق توصلنا إلى أن المجتمع التلمساني عرف هو الآخر انقسامات مثل ما حدث بين أمراء هذه الدولة، ففي الوقت الذي وقف البعض إلى جانب مولاي أحمد عند دخوله المدينة تلمسان نجد البعض الآخر بزعامة رجال بالمدينة يعلنون عدم الاعتراف بسلطــة بــني زيان، والعمل من أجل ربط تلمسان بالدولة الجزائرية وقد انضم إلى هؤلاء الموظفين السامين في عهد مولاي المنتصر الذي أبعد عن الحكم.

- حكم مــولاي أحمد ابن عبــد الله:

في شهر جويلية من سنة 1545م دخل مولاي أحمد لتلمسان وأعلن الولاء للإسبان مما جعل هؤلاء يحضّرون له معاهدة لإمضائها، أهم بنودها أن يدفع لهم أربعة آلاف دينار كضريبة وثلاثة آلاف دينار أجورا للجند العاملين في بلاط بني زيان، وتجنيد عشرة آلاف لمساعدة الإسبان لاحتلال مستغانم .

أما الجانب الاقتصادي فكان التركيز فيه على حرية المبادلات التجارية وتزويد مدينة وهران بما تحتاج إليه من حبوب.

إلاّ أن هذا الاتجاه نحو إسبانيا دفع برجال الطرقية برئاسة السيد محمد أفوغال مقاومة مولاي أحمد لأنهم رؤوا في المعاهدة المبرمة بينه وبين الإسبان خطرا على القوة الإسلامية، وعلى الخصوص ما يتعلق بالجانب العسكري فأعلنوا الحرب ضد مولاي أحمد.

وهكذا تتشابك أطراف الصراع فبالإضافة إلى رجال الطرقية القوتين المتنافستين(الأتراك والإسبان).

لكن السؤال المطروح كيف واجه مولاي أحمد هذه القوة، وللإجابة على هذا السؤال رجعنا إلى مجموعة من الوثائق، وقد تبين لنا بأنه لم يقم بأي عمل لإيقاف هذا الزحف نحو تلمسان، بل ترك عاصمته وتوجّه نحو الوحات الصحراوية لأن الإمكانيات المتاحة له لم تسمح له بالمواجهة، كما فرّ مزواره إلى فاس.

أما رجال الطرقية الذين توجد لهم زوايا على الطريق الذي سلكته الحملة فإنهم أيّدوها ماديا ومعنويا، وحتى الزوايا المتواجدة في الجبال نزل شيوخها وانضموا إلى الحملة ودخلوا مدينة تلمسان مع حسن باشا في نهاية أكتوبر سنة1545م وبعد دخول المدينة نصّب مولاي عبد الله علـــى رأس دولـــة بنـــي زيان وقد تمّت مبايعته بالمسجد الأعظم، وبعد المبايعة فرضت عليه ضريبة جديدة يقدمها للدولة الجزائرية.

إن دخول الأتراك لتلمسان جعل الإسبان يشعرون بخطر على تواجدهم بالمنطقة لذا قبلوا مساعدة مولاي أحمد الذي سبق له أن اتصل بالوطاسيين طالبا منهم يد المساعدة، إلاّ أنهم اشترطوا عليه أن يقدم لهم أكثر مما كان يقدمه للأسبان.

ولتنفيذ طلب السلطان الزياني توجه الكوديتي إلى إسبانيا وأعلن لمسؤليه أن الستة آلآف وستة مائة جندي الموجودة في وهران غير كافية لتحقيق مشروعه المتمثل في احتلال الدولة الزيانية ومستغانم ولذا لا بد من تجنيد قوى عسكرية أخرى وتجميعها في كل من مالقا وطجنة وتنطلق منهما نحو هنين لاحتلالها للمرة الثانية.

أما نائب الكوديتي دون مرتين القرطبي الذي تولّى الإشراف على وهران والمرسى الكبير في فترة غياب الكوديتي استغل الصراع القبلي واتصل ببعض الشيوخ كالشيخ المسعود من أولاد بن توسمار ومحمد العربي شيخ بني عقبة وأولاد ميمون وأبو عزنار من تسالة وهي القبائل المعارضة للأتراك.

- عـودة مـولاي أحمـد:

عاد مولاي أحمد من الوحات الصحراوية نحو المناطق الشمالية فوصل إلى أراضي دبدو وعندما علم به حاكمها ألقى عليه القبض ونهبت الأموال التي كانت معه ثم أطلق صراحه «953هـ/1546/01/22م» وخلالها اتصل بـه المنصور ابن غانم وتوجها معا نحو مضارب أولاد سيدي إسماعيل وبها تلقى رسالة من الكوديتي أخبره فيها بأن أحد إخوان المنصور وهو محمد شيخ بني راشد والشيخ سويد وعمران من بني عامر إتفقا على تقديم المساعدة له وهذا ما دفع بمولاي أحمد أن يبعث برسولان لإسبانيا هما رزيق وزحاف لطلب المساعدة له من مالكها مقابل إرتباطه بهذه الدولة، ولكي يضمن هذا الارتباط أنه سيرسل أبناء شيوخ القبائل وأعيان الدولة التابعين له رهائن لدى الكوديتي.

إذا كان الجانب الإسباني قد تحرك لصالح مولاي أحمد فما هو موقف الجزائر؟.

يلاحظ عن موقف الجزائر أنه تجلى في مشروع استعادة وهران وإرسال قوة عسكرية لمواجهة حلفاء الإسبان بالناحية، وهذه القوة تصدى لها المنصور ابن غانم الراشدي، وقد استعمل في مواجهته لها ألفي جمل وأن النزال كان من فوق الجمال ولأول مرة في دراستنا للدولة الزيانية نجد معركة تشارك فيها الجمال إلى جانب الجياد وانتهت هذه المعركة لصالح المنصور ابن غانم، وقد

سقط في ميدنها ابن حاكم تلمسان الحاج والي والمزوار ابن العورة والقائد يوسف وأحمد زيان الكبير وابن العسكري وأحمد بن رضوان وأحمد بن طراد وابن عبد الله بن منصور شيخ زاوية عين الحوت وابن حدوش العبد الوادي وابن الملاح.

في آخر زيارة لنا لإسبانيا وجدنا رسالتين لهذا السلطان ترجع إلى هذه الفترة.

أولهما رسالة أرسلت مع وفد من موظفي الدولة الزيانية وهما أحمد بن صعد ويعقوب بن يفار اللذان كلفا بتقديم هدية من السلطان الزياني للإمبراطور الإسباني[1] جاء في هذه الرسالة «وعندنا سعادة كبيرة في مقامك العلي، فرحنا بمجيئنا وما هو يأمرنا مقامكم العلي أن نبقى هنا حتي اليوم الذي تأمرنا أن نمشوا نعرفه برسالتنا ونعطوه الهدية التي جئنا بها من عند مولانا السلطان»[2] نحن جئنا نخدم ولا نغير والمسألة هي خدمة مقامكم، فهذه الرسالة توضح لنا بأن الأمير الزياني قطع كل علاقاته بالأتراك وارتبط بالأسبان، ولكي يؤكد هذه التبعية أرسل وفدا إلى إسبانيا للاتصال بالإمبراطور، وتقديم يمين الولاء له.

أما رد السلطان الإسباني فيليب الثاني[3]، فتمثل فيمايلي: «نحن ملزمون بخدمة مقامكم، في جميع المقاصد وأشار بأنه يسهل مع مقامكم السيد دون مارتن القرطبي، والقائد رجاف» كما أرسل السلطان الزياني رسالة أخرى[4]،

1- أبو زيان حكم مابين 950-1544،951-1545 أنظر: Barges, opcit p455

2- الرسالة توجد بسيمنكاس ضمن ملف العلاقة مع شمالى إفريقية تحت رقم E. 664 المرسلين هم أحمد حد ويعقوب بن يقار .

3- نفس الرسالة .

4- الرسالة توجد ضمن ملف العلاقات تحت رقم 49- E 466

أهم ما جاء فيها من عند مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله أن جميع ما أمر به عملناه، وما تواعدنا به أمضيناه، على نحن ما عقدناه معكم ولاعندنا إلا اعتقادكم، و قد وجّهنا إليكم جميع ما تحصل عندنا من النصارى، كما أمرتم، ومنعنا من المبادرة بإصرافهم إليكم، إلا مغيب محلتنا في حركة لبعض جبال الغرب، مع جميع جندنا، لأجل أن يصرفوا في الأمان التام صحبة الفرسان والأجناد، وأشفقنا عليهم من خوف الطريق فاقبلوا العذر في ذلك، ثم قال له لابد أن يصدر من مقامكم كتاب للقوطيط بالوصية على جمع أمورنا، وحفظ ما عقدناه من شروطنا هذه الرسالة نستخلص منها مايلي:

أولا: أن هناك معاهدة أبرمت بين السلطان الزياني وفليب الثاني، ولعل الوفد الذي ذهب إلى أسبانيا حمل نسخة من المعاهدة، ومن بين بنودها إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، الذين كانوا بتلمسان، وأغلب المعاهدات التي أبرمت بين أمراء الدولة الزيانية والأسبان نصت على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، بينما سكتت عن الأسرى المسلمين المتواجدين في مدن اسبانيا، والذين كانوا يعيشون ظروفا سيئة للغاية، وهذا يؤكد ضعف هؤلاء الأمراء لأنهم لم يفرضوا التعامل بالمثل، كما هو الحال في أغلب العلاقات بين الدول ولذا اعتبرنا هذه المعاهدة تؤكد على عدم وجود السيادة للدولة الزيانية[1].

ثانيا: أن الإمبراطور وافق على تقديم خدمات لهذا لسلطان لاستعادة ملكه، والذي سيتكلف بذلك هو حاكم وهران، لذ طلب منه الإسراع في مكاتبته، وأنه سيطبق بنود المعاهدة[2].

1- نفس الرسالة السابقة، Ruff (Paul): E466-49

2- Ruff, opcit, p 102

5- الحملة الثـــالثة: على تلمســـان 953 هـــ/1546م.

هذا من جانب الزيانيين أما الكوديتي، لكي يضمن الانتصار على القوة الموالية للدولة الجزائرية وحاميتها بتلمسان، انتقل إلى اسبانيا للاتصال بالإمبراطور والقيادة العسكرية حتى يبين لهم خطورة الوضع، والحصول على الإمدادات المادية والبشرية، وبعد اتصالاته بهؤلاء سمح له بجمع المتطوعة، الذين وصل عددهم إلى ألفي متطوع من المدن الجنوبية الإسبانية على الخصوص.

ثم عاد إلى وهران ومعه نصف العدد، بينما ترك النصف الآخر بمدينة مالقا، لكي ينتقلون على ثلاثة سفن متعددة السطوح وبعض الغليوطات.

لم يكتف الكوديتي بهذا العدد الذي جاء به من اسبانيا بل أضاف إليه ما كان بوهران والمرسى الكبير من جنود بلغ عددهم ثمانية آلاف من الفرسان والمشاة، بجمع هذه القـــوة بحصن كانسطيل وهنا اتصل بحلفائه من القبائل العربية والبربرية الذين سبق له أن زوّدهم بالسلاح ليواجهوا به المعارضين للأسبان، لكنهم سلموه ،فقبض على ما تبقىّ منهم وحوّلوهم إلى عبيد، أما شيوخهم وأعيانهم فقتلوا حتى يكونوا عبرة للآخرين.

وبعدها توجه إلى إحدى المدن القريبة من وهران عرفت في الوثائق الإسبانية باسم كوبيل[1]، توجد بين مضارب القبائل الموالية له مما جعلهم يتوافدون عليه، بمجرد توقفه بها يعرضون عليه خدماتهم.

1- لم نتعرف على مكان المدينة ولكننا سنحددها على الخريطة وأغلب الضن أنها توجد ضمن مضارب اولاد عبد الله الموالية للإسبان وبالتحديد بين عين تموشنت وسيد بلعباس من حيث توجد مضارب بنى عامر.

أما المنصور بن غانم فقد نزل باغبال وهناك توافدت عليه الإمدادات من القبائل الموالية للإسبان وحلفاء بني راشد، وهو ما جعل المزاري[1]، يعلق على ذلك بقوله: «واتتهم العرب بالخيول المسوّمة والهدايا المقوّمة ومن بين الذين انضموا للمنصور بن غانم الفارس برخون».

وقد بلغ عدد الجند الذين يوجدون تحت قيادته خمسة آلاف فارس من أتباع السلطان مولاي عبد الله ولم يقم بأي تحريك لقوته، حتى وصله الكوديتي، انتقلا معا إلى موقع أطلال مدينة سنان، ومنهما إلى رابطة الزاوش، فمكث بها نحو ستة عشر يوما ومنها تقدم إلى وادي سنان، وهناك حلّ وفد من التلمسانيين للاتصال بالأمير الزياني مولاي عبد الله يقترح عليه إخراج الأتراك من تلمسان شريطة أن لا يصحب معه الإسبان، ولكنه أجابهم بأن الذين طردوا أميرهم لا يستحقون الحياة، وأنه صحب معه الإسبان لذبحهم، ثم انتقلت القوة الإسبانية إلى نهر زير[2]، هذا فيما يتعلق بالقوة الإسبانية وحلفائها، أما القوة الجزائرية فيبدو أنها تحصّلت على معلومات تتعلق بتحريك الإسبان، مما جعلها تنطلق من الجزائر بمجرد حصولها على هذه المعلومات، حتى لا تسمح للإسبان وحلفائهم من احتلال تلمسان، وتنصيب عبد الله، كما يبدو أن القوة كانت كبيرة مما جعل الإسبان وحلفاءهم بعد أن تحصلوا على معلومات تتعلق بتحريك هذه القوة، وهو ما يؤكده المزاري بقوله: «ولما عبرت وادي

1- المرأي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص301.

2- وادي زير لعل المقصود به وادي مقره ضمن مضارب بني عامر لأنه ذكر بأنه يجتاز سهل سيرات الذي يشمل سهل الهبرة – وسيق .

سنان[1] جاءها الخبر، بأن الأتراك خرجوا من الجزائر في جيش عظيم، فتحولت القوة الإسبانية إلى مضارب أولاد عبد الله[2] ثم اغبال[3]، ومنه إلى وادي تيليلات وعندما وصلت إليه جاءه رسول من الأتراك يطلب من المزوار المنصور بن غانم السماح لقائد الحامية بتلمسان من التوجه إلى الجزائر دون التعرض له خلال اجتيازه لمضارب بني راشد، مقابل أن يقدم له ما يشاء من المال، وهوما أكده مرمول أيضا فقال: «أرسلوا وفدا إلى الكوديتي يتألف من القائد جعفر، وأحد المرابطين يطلبون منه ومن المزوار السماح للحامية التركية من مبارحة تلمسان»، فالنصان تؤكدهما الوثائق الإسبانية فيما يتعلق بانسحاب القوة الجزائرية، وعدم الإصطدام بالقوة الإسبانية التي تراجعت عن احتلال تلمسان، لأن حسن بن خير الدين عندما وصل بالقرب من وادي تليلات، جاءه رسول من الجزائر يخبره بوفاة أبيه خير الدين، ففضل الانسحاب عن المواجهة.

أما الكوديتي فعندما وصلته الأخبار بخروج الفرقة التركية من تلمسان أعاد حليفه إليها، ثم فكر في استغلال فرصة اهتمام حسن بن خير الدين بوفاة أبيه للقيام بالهجوم على مدينة مستغانم.

1- وادي سنان نسبة إلى قصر سنان الوارد ذكره عند البكري والذي يوجد بنفس المنطقة ولعل الوادبقي يحمل اسم هذه الشخصية أنظر البكري المعرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص:184.

2-أولاد عبد الله احد بطون قبيلة بني عامر لمزيد من المعلومات عنها أنظر المرازي سعد السعود، 2ص163.

3- عن اغبال، أنظر، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص326.

6- الحملة الثـانية على مستغـانم: «952هـ/1546م».

وحتي يسرع في الهجوم على مستغانم اتجه مباشرة لوهران لكي يحمل منها بعض المدافع، والهدف من هذه السرعة أنه يريد اغتنام فرصة عودة القوة الجزائرية للجزائر، وانشغال حسن بن خير الدين بوفاة أبيه، أراد أن يضرب ضربته المتمثلة في الاستيلاء على مستغانم، التي تعتبر قاعدة أمامية لمدينة الجزائر، تحميها من الهجمات الإسبانية لمواجهة المراكز الإسبانية، التي لاتبعد عنها كثيرا.

فأدرك الكوديتي الأهمية الاستراتيجية لها، ولذا بعد وصوله إلى وهران أخذ ما يحتاج إليه ثم انطلق نحوها سالكا طريقا غير مألوف، حتي لا تصل إلى المدينة معلومات تتعلق بتحركاته، فانتقل من نهر قوبلت الذي عسكر فيه قبل دخوله وهران، ويبدو أنه في جوار المدينة، ومنها إلى سيفاتي، وما وراءه إلى واد هبرة ونهر قسناق و مزغران، ومنها انطلق إلى مستغانم، حيث تحدّد الوثائق الإسبانية تاريخ وصـول الكوديتـي لضواحـي مستغـانم بيوم 1546/09/23م فعسكر فوق ربوة بجنده، وبدأ في قنبلة المدينة يوم الجمعة1546/09/27 فانطلقت منها أزيد من مائة طلقة في يوم وصوله إليها.

لم يكن لدى الحامية بداخل المدينة سوى مدفعيتين صغيرتين، ولم يكتف الكوديتي بقنبلة المدينة فقط، بل لجأ إلى الطواف حولها لمعرفة نقاط الضعف بها، وخلالها استطاع إلقاء القبض على اثنين بسبب غارة قامت بها فرقة إسبانية.

وقد أمر الكوديتي بإحضارهما إليه، لكي يحصل منهما على معلومات، تمكنه من التعرف على خبايا المدينة، وقد أخبراه بأن المدينة تحتوي على ثروة

كبيرة، لأن المدن والقرى المجاورة لها كانت تقوم بجمع أموالها بداخلها لحصانتها وحتى الدولة الجزائرية وضعت بداخلها ثروة جمعتها من القبائل الموالية لها، وفي هذا الصدد يقول مرمول: «إنها من أغنى مدن بلاد البربر، لأن المدن والقرى المجاورة لها جمعوا بها ثرواتهم، ونفس الشيء بالنسبة للدولة الجزائرية» لكن ما يعاب عليها أنها لم توجد بها حامية كبيرة، على الرغم من الأهمية الاستراتيجية، حيث صرح هذا الأسير للكوديتي أن عدد أفراد الحامية لا يزيد عن أثنين وأربعين رجلا، كانوا يرغمون سكان مستغانم للدفاع على أنفسهم، وقدر عدد سكانها بأنه يزيد على أثنى عشر ألف[1].

- **مراحـــل المعـــركـــة:**

هذه المعلومات التي تحصل عليها الكوديتي جعلته يستعد للهجوم على المدينة بأقصى سرعة قبل وصول الإمدادات من الجزائر، فقام بقصف المدينة ثلاثة أيام متواصلة إلاّ أنه لم يستطع أن يؤثر في تحصيناتها، ويفقد جزءا كبيرا من البارود، مما دفع به إلى إرسال سفينة شراعية لوهران لكي تعود بالمؤونة والسلاح[2] الذي يحتاج إليه.

لكن السفينة لم تعد إلاّ بعد يومين على الرغم من قرب المسافة بين مستغانم ووهران، مما أتاح للقوة الجزائرية بإيصال الإمدادات إلى المدينة، كما تمكنت الحامية التي تركت تلمسان من الوصول إلى مستغانم، والدخول إليها يضاف إلى هؤلاء وصول القبائل الموالية للدولة الجزائرية، كما تجند علماء الناحية

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 353، ومن بين الذين تعرضو السكان مدينة مستغانم خلال هذه المدن الحسن الوزان الذي ذكربأن سكانها نزحوا منها نتيجة للضغط الذي مورس عليهم من قبل القبائل البدوية المجاورة لهم ، أنظر وصف إفريقيا ، ص: 53.

2- RUFF, op.cit. p107.

للدفاع عن مستغانم، وقد استطاعوا أن يجندوا عددا من الناس، قدر مرمول عددهم بخمسة وعشرين ألف مغربي، وعلى الرغم من أن الرقم ربما مبالغ فيه لكي يقلل من خسارة جنده، لكن ذلك لم يضع حدا للهجومات التي تشن من قبل القوة الإسبانية على المدينة، وقد تمكن الكوديتي من إحداث ثلمة بأحد الجدران، مما جعله يأمر جنده بالصعود إليها، لكن شجاعة الحامية حالت دون استغلالها لصالح الأسبان، وعلّق على ذلك مرمول[1] بقوله: « أن الواحد منهم كاف لحمايتها وما كان يسقط منها أحد حتى يخلفه الآخر» وبذلك فاستمرار القتال تحوّل لصالح القوة الجزائرية، لأن الإسبان تعرضوا لخسائر بشرية لأنهم يحاربون مكشوفون، مما جعلهم يتقهقرون في الفوضى، وقد سمح للقوة الجزائرية بشن هجمات متواصلة، وحاول الكوديتي وقف هذه الهجمات لكنّه فشل بعد أن خرجت القوة الموجودة بداخل المدينة فانضمت إلى الفرق الأخرى، فأحدثت فوضى في صفوف الأسبان، الذين تقهقـــروا من جديد وقد حاول ابن الكوديتي ولويس دي رويدة، إعادة تنظيم القـــوة إلاّ أنهما فشلا أيضا مما دفع بالكوديتي إلى اتخاذ قرار الانسحاب يوم1546/09/30م والعودة لوهران.

هكذا فشل الكوديتي في تنفيذ مشروعه المتمثل في احتلال مـــستغانم للمـــرة الثانية، مما جعله يصب غضبه على القبائل النائية ويـــسلك إتجاههـــا سياســـة الأرض المحروقة سلبا ونهبا وقتلا وأسرا وهو ما دفع بالقبائل التي لم يمسها

1- مرمول المصدر السابق، ج2 ص354.

الهجوم بالاتصال به، ومن بين هؤلاء القبائل شيخ قيزا وبوصفر وأحمد الفشتاني، شيخ مصغرين[1].

وقد وقع الاتفاق بينهم وبين الكوديتي على عدم مواجهة مضاربهم بحضور كبار ضباطه وبعض أفراد من الجالية اليهودية يتقدمهم موسى زطورا.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الكوديتي ركز في سياسته خلال هذه الفترة على ضرب القبائل بعضها ببعض، مما جعله يرسل الموالين له من تلك القبائل لمراقبة تحركات القوة الجزائرية والقبائل الموالية لها، ومن أبرز هذه القبائل التي اعتمد عليها أولاد موسى وأولاد عبد الله وأولاد علي وأولاد خيرة وأولاد عزي، كما دخلت هذه القبائل في صراع مع القبائل الموالية للجزائر.

- التدخـــل التـــركـــي:

في الوقت الذي كان الكوديتي وحلفائه يحضّرون لهجوم على القبائل الموالية للدولة الجزائرية، وصلت معلومات من عيون الكوديتي في الجزائر تذكر بأن الحاج علي باشا استقبل وفدا من تلمسان يقوده قاض الجماعة يطلب منه المساعدة فوافق على طلبه وصرح له بأنه سيتوجه إلى تلمسان، وأن القبائل المتواجدة بالقرب من وهران ستقدم لهم يد المساعدة، لأن تلك القبائل استغلت من قبل أطراف الصراع مما حال دون خلق وحدة وطنية، ومما يؤكد ذلك أن الكوديتي نفسه اتصل بالقبائل الموالية له التي سبق لنا ذكرها.

1- أنظر رسالة الكوديتي للمزوار المنصور بن غانم المؤرخة في 1547،01،11. A.G.S. estada leg 472

ومما زاد الأمر خطورة بالنسبة للإسبان، تعرض وهران لضائقة اقتصادية نتيجة لعدم تزويدها بالحبوب مما دفع بالكوديتي أن يأمر بإخراج السكان المدنيين منها لأن ما بقي من الحبوب لا يسد رمق الجنود[1].

وللتقليل من أثر الضائقة عمد حاكم وهران إلى الهجوم على القبائل الآمنة لنهب طعامها وقد تمّ ذلك في 1547/06/08م والقبائل التي تعرضت لهجومه هي زفانة ودوار ولاد تميم والأراضي المحصورة بين مضارب حميان وأولاد سيلان وعقبة، لكن هذه الهجومات لم تحل مشكلة انعدام الحبوب في وهران، وهو ما جعل الأسبان يطلبون من قرطجنة تزويدهم بما يحتاجون إليه من حبوب، فوافق على طلبهم إلاّ أن الحمولة القادمة من قرطجنة إلى وهران استولت عليها البحرية الجزائرية قبل وصولها لوهران.

- استيلاء الأتراك على تلمسان في آخر فترة مولاي أبو عبد الله:

يلاحظ الباحث أن مولاي أحمد بعد دخوله إلى تلمسان عمد على ربط علاقاته بالإسبان في الوقت الذي أرتبط فيه المزوار المنصور ابن غانم بالأتراك نتيجة لتأثير الوالي الصالح سيدي أمحمد أفوغال الذي لعب دورا هاما في التأثير على سياسة ملوك بني زيان ووسكان دولتهم خاصة الموردين التابعين له.

كما وقع أيضا تغيير حاكم تنس حميد العبد شيخ سويد وحل محله القائد محمد، ولعل السبب في ذلك يندرج ضمن محاولة الدولة الجزائرية التحكم في المدن الاستراتيجية وأن لا تتركها بيد شيوخ القبائل التي كانت سياستهم متذبذبة

1- رسالة الكوديتي إلى الأمير فيلب الثاني مؤرخة في1547،12،17.A،G، S Guerra an .tigua leg 32 F 91

بين أطراف الصراع، وفي نفس السنة غيرت القبائل الموالية لموالاة أحمد تأييدها له، وأرتبط بعدوها اللدود مولاي عبد الله، وقد حدث ذلك بالنسبة لبني راشد الذين كانوا موالين مع شيخهم المنصور ابن غانم للأتراك[1]، فثاروا ضد هؤلاء بعد دخولهم لقلعة بني راشد فلجأ هؤلاء إلى جبل روميلا لمواجهة القوة الجزائرية التي كانت بقيادة محمد قائد تنس، وأول هجوم شنته هذه القوة كان على مضارب بني راشد مما أدى بالمنصور ابن غانم إلى طلب المساعدة من الأسبان، وأن هذه القوة الجزائرية كانت تؤيد مولاي عبد الله، وبعد انتصارها على أتباع مولاي أحمد دخلت تلمسان يوم 1548/04/19م[2]، وفي نفس اليوم خرج مولاي أحمد ومزواره المنصور ابن غانم من عاصمة الدولة واتجها مع أنصارهما نحو فيقيق برفقة أولاد طلحة، والاتجاه نحو الواحات الصحراوية هي سياسة اتبعها أمراء بني زيان منذ عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني كما توضح أيضا بأن هؤلاء الأمراء قوتهم مرتبطة بقوة القوى الخارجية التي تتصارع على أرضهم من إسبان وأتراك.

وفي بعض الحالات كان الحكم بيد أسيادهم، فمولاي أبو عبد الله عندما نصّب أميرا من قبل الأتراك على تلمسان كانت أمور الدولة كلها بيد القائد التركي.

أما خارج تلمسان فقد سيطر الأتراك على سهل هبرة وسراط وقلعة هوارة، مما سمح لهم التحكم في الأنشطة الاقتصادية المتمثلة في الزراعة والمسالك التجارية وجبي الضرائب من القبائل التي خضعت لهم.

1- رسالة أندري للأمير فيلب الثاني مؤرخة في 1548. Ibid F 20 a 115.

2- وثيقة ممضاة من قبل جون A.G S estado leg 473 Juhun

هذا فيما يتعلق بالصراع بين القوة الجزائرية والإسبانية والزيانية، أما مواجهة القبائل من طرف الأسبان ترتكز بالدرجة الأولى على القبائل التي سبق لها أن وقفت ضدهم ومنها التي توجد مضاربها بأم العسكر (معسكر) والنواحي المجاورة لها حيث مضارب بني راشد وهوارة وبعض بقايا القبائل البربرية الأخر أمثال بني ومانو وبني يلومي أما القبائل المتحالفة مع الإسبان والتي استعملت من قبلهم لضرب القبائل الآنفة الذكر، فهي قبائل بني هلال والأماكن المستهدفة، الرابطة، والكرط المجاورة لأم العسكر، وقائد الجيش العامري هو رابح بن صولة، أحد فرسان أولاد علي بطن من بني عامر، وأولاده يقال لهم الصواله إحدى دواوير أولاد علي، وقد استعمل مرارا لضرب القبائل المعادية لهم.

انطلقت الحملة من وهران فاجتازت الكرمة وتيارت ثم وادي التفراوي ثم جبل عبد الله لبلد ما خوخ ومنها القطارة ثم زبوجة المطلة على وادي الحمام، وقد استراحت بها القوة الغازية وبعدها انطلقت القوة نحو تيطروة، بينما اتجه البعض الآخر نحو الكرط[1] ففعل بهاتين القريتين ما أراد له فعله، ثم كرروا غزوهم على الكرط إلى أن استحلوا ما كان به وفرّ من بقي به وهم سبب خرابه.

1- قرية الكرط توجد على بعد حوالي خمس كلم من مدينة معسكر، والقرية القديمة لاتزال آثارها ماثلة للعيان ومنها السور وقد تحدثنا مع سكانها فذكروا لنا بأنها تحتوي على مجموعة من الأنصاب تم ردمها لأن أراضي القرية أصبحت تزرع.

فالذي يستخلص من النص مايلي:

أ: أن صاحب النص استطاع أن يبين لنا الأمكنة التي مرت بها هذه الحملة انطلاقا من وهران، وأغلبها مضارب لقبائل بربرية وعلى الخصوص هوراة، بنى راشد وهي اليوم تندرج ضمن ولاية غليزان، ومعسكر وأما قبائل بني عامر فكانت مضاربها بعين تموشنت وسيد بلعباس.

ب: أن الحملة تندرج ضمن الصراع القبلي الذي عرفته أراضي الدولة الزيانية وعلى الخصوص بين القبائل الكبرى كبني عامر وبني راشد.

فالأولى موالية للدولة الجزائرية، لأن المصادر تذكر بأن الحشم الاسم الحديث لبني راشد من أنصار الدولة الجزائرية منذ عهد الأخوين عروج وخير الدين. الأماكن التي هاجمها أولاد علي من بين المراكز الاستراتيجية فقرية الكرط غير بعيدة عن معسكر.

ج: أن قرية الكرط التي قمنا بزيارتها في صائفة 1993 رأينا أثار الدمار الذي أصابها من الحملات الإسبانية وحلفائها من القبائل العربية التي وجهت لها، ولا تزال الأساطير المتداولة بين سكانها تتعرض لهذه الحروب وأن أحفادهم أعادوا بناء قريتهم إلى الجنوب من القرية التي دمرت خلال هذه الحروب بين بني راشد وبني عامر.

وأن رابح بن صولة كان من أخطر شيوخ بني عامر الموالين للأسبان على بني راشد وهو ما يؤكده الكاتب بقولـــه: «ولما كبر رابح بن صولـــة وعمي قعد عن الغزو، فأغار الحشم على أولاد علي فألقوه بالمراح فقتلوه»[1].

1- ارشيف سمينكاس من مجموعة الشؤون العسكرية .Legajo XL F 184

يستفاد من هذا النص مايلي:

أن شيوخ القبائل لعبوا دورا هاما في الصراع الذي عرفته الدولة الزيانية في هذه الفترة، فبدل أن تتوحد هذه القبائل مع الدولة الجزائرية الحديثة للتخلص من المراكز الإسبانية، نجد البعض منهم يحثّ هؤلاء على الإنقضاض على مدينة الجزائر و مواجهة القبائل التي ترفض السيطرة الإسبانية وتعمل من أجل خلق وحدة وطنية لتحرير وهران والمرسى الكبير، هاهو أحد الشيوخ يخاطب الكوديتي بقوله: «احنا معك وعلى حبك وجاءنا كتابك وعرفنا مافيه ومحبك من عند السلطان على خير فرحنا بهمتك ونعرفلك الترك قضاء الله فيهم الحاجة ونحن على خدمتك وحب القائد منصور بن غانم»، هذه الرسالة تشمل ثلاث نقاط أساسية:

أ: استمرار التحالف بين الأسبان وأولاد سليمان لخدمة مصالح إسبانيا وقد تحالف هؤلاء مع السلطان الزياني مولاي أحمد للعلاقة التي تربطه ببني عامر لأن أمه عامرية بنت عبد الرحمن بن رضوان شيخ بني عامر.

ب: أن سلطان الزياني لا يزال في موالاته للإسبان، ويبدو أن صاحب الرسالة من بين موظفي الدولة الزيانية، أو من الذين تربطهم علاقة خاصة بالأمير الزياني.

ج: أن تلك القيادة القبلية كانت تتجه إلى وهران وتستقبل من طرف قادة الاسبان في كل من وهران والمرسى الكبير وتحدث المشاكل للدولة الجزائرية الحديثة وبني زيان عندما يتحالفون معها.

وهناك بعض الأمثلة عن شيوخ القبائل الذين قدّموا خدماتهم للأسبان، لكن بالنسبة للبربر نجد من أبرزهم بني راشد[1]، بقيادة شيخهم المنصور بن غانم .

فالدّارس للدولة الزيانية يلاحظ بأن هذه العائلة من العائلات التي كان لها تأثير في سلاطين الدولة الزيانية، فالصباغ في كتابه (البستان) يذكر بأن الذي كان قائدا لقلعة بني راشد عندما اشتد الصراع بين أحمد بن يوسف الملياني والدولة الزيانية هو غانم الراشدي الذي يبدو أنه لم يتقيد بمطالب بني زيان الخاصة بالقبض على الملياني، ولم يرسله إلى تلمسان بل طالبه بالانتقال إلى يلل عند بني وغد.

وهنا مجموعة من أفراد هذه القبيلة تولوا وظيفة المزوا ر في تلمسان لأن في مرحلة ضعف الدولة كانت الوظائف الأساسية تعطى للقبائل القوية.

ومما يؤكد تأثير هذه القبائل على سياسة أمراء بني زيان، فإن الأمير مولاي أحمد كان قد تخلى عن التبعية للعثمانيين في الجزائر مما جعل هؤلاء يكلفون حامية تركية لمحاربته هو وحلفائه من أولاد سليمان[2] وبني راشد، لأن المنصور ابن غانم كان قد ربط علاقاته بالأسبان خلال هذه المدة، وأن هناك تحالفا بين بني راشد و أولاد سليمان، ولتوضيح هذا الدور الخطير نذكر على سبيل المثال الرسالة التي بعثها الوحش رسالة إلى الكوديتي وقد جاء فيها «راحتنا على حبك وخدمتك لا نبدل ولا نغيّر ونعرفك الله يجزيك حين نتجه للصحراء نحن وجميع العربان على خدمتك، نزلنا على باب وهران واجتمعنا

---

1 -عن دور بن راشد أنظر :
Bodor (Francis) : Notice historique sur Nemours et Trara depuis l'antiquité jusqu'à l'arrivée des Français in B.S.G.O1935 Cazenave (J).
Les Gouverneurs d'Oran pendant l'occupation Espagnole de cette Ville p 51 et p 56 ,1509-1782 in R.A.1937.tome 81
2- Cazenave (J) Op Cit P

نحن والسيد ابنكم دون مارتين واستعمل معنا الجود الله يبارك فيه ويجزيه خيرا[1] ».

نستنتج من هذه الرسالة مايلي:

أ: استمرار التحالف بين أولاد سليمان والكوديتي في وهران خدمة المصالح الإسبانية بالناحية.

ب: أن هذه القبائل كانت تقصد الواحات الصحراوية في فصل الخريف للقيام بالنشاط التجاري وخلال غيابها يضعف نفوذ الإسبان بتلك الناحية وهو ما جعل صاحب الرسالة يقول: للكوديتي الله يجزيك حين نتجه للصحراء[2]، ومن شيوخ بني راشد الذين لهم دور في أحداث هذه الفترة عبد المنصور بن عبد الله بن غانم الذي تحالف مع الكوديتي فقد جاء في رسالة وجهها لهذا الأخير قوله: « وان نقبّل يديك على ما أنتم توعدوني وأنت أعزّك الله عملت عمل الفرسان بالجود والخير أنت موضعه ونعرفك أعزّك الله كيف يا سيدي أتلاقينا مع محلة الترك وفسادهم فساد الحق ولا خوف من الترك ولا أرى فيه وكبار أهل البلد الذين كانوا عاملين على الترك تخلصوا لكل وإن مابقي في تلمسان من الأتراك غير خمسين كما يذكر أيضا أن المسعود وكافة المراهين مسلّمين عليك ومقبّلين أيديك على ما وعدتهم وقالوا هذا هو الواجب عليك لأنهم أولادك»[3].

1- رسالة الوحش إلى الكوديتي أرشيف سيمنكاس من الشؤون العسكرية .- Legajo 30 F 30 31

2- نفس الرسالة ورقة 30

3- رسالة المزور والمنصور بن غانم الراشيدي مؤرخة في فيفري Legajo 29 F 301546

الشيء الذي يمكن التوصل إليه من الرسالة يتمثل فيما يلي:

أ: ضعف الأسلوب الذي كتب به مما جعلنا نجد صعوبة في التعرّف على محتواها.

ب: أن المنصور بن غانم أصبح من المؤيدين للأسبان منذ سنة 953هـ/1546م وأنه قاد حملة ضد الأتراك في تلمسان وحلفائهم المعارضين لمولاي أحمد وأن الحامية التركية في المدينة لا يمكنها المقاومة لأن عدد أفرادها لايزيد عن خمسين محاصرين بداخل المشور.

ج: أن الكوديتي لايزال يحتفظ ببعض الرهائن من أبناء بني راشد لكي يحافظوا على موالاتهم له، لأن بني راشد كانواغيرمتمسكين بموالاتهم له.

أما الرسالة الثانية فأهم ما جاء فيها «كتبنا لكم من فحص دبدو وقدم علينا عربنا وأولاد حرج و بني عامر وبني راشد وسويد وجابونا ودخلنا معهم، وكتبنا لكم كتابا هذا من ملاتة فحص وهران على خير وعافية»[1].

فالذي يستخلصه الباحث من هذه الرسالة يتمثل فيما يلي:

أ: أن هذه الرسالة كتبها المنصور ووضح فيها خروجه مع السلطان الزياني وبعض أعوانه متوجهين إلى فاس بعدما أصبح به خلال الحملة التي قادها حسن باشا ضد تلمسان سنة942هـ/1545م وتؤكد الرسالة المصادر الإسلامية فتقول بأن مولاي أحمد بارح تلمسان وعندما وصل إلى دبدو قبض عليه أمير دبدو وأخذ أموله.

1- رسالة المزور الأنفة الذكر المؤرخة في فيفري 1546 Legajo 29 F 30

ويبدو من الرسالة أيضا أن القبائل الحليفة له تقدمت إلى دبـدو لتخليـصه ونقله إلى فحص ملاته المجاورة لوهران لكي يكون تحت الحماية الإسبانية.

لم تكن مراسلات المنصور بن غانم مقتصرة على الكوديتي بـل الـبعض منها وجه لملك إسبانيا وأن المنصور يتكلم باسم السلطان الزياني. هـذا فيمـا يتعلق بالقبائل، وهناك خطر آخر يتمثل في التدخل السعدي.

7- التدخـل السعـدي:

قبل التعرض إلى الصراع بين باشاوات الدولة الجزائرية وملـوك الدولـة السعدية، يجدر بنا أن نذكر بأن تلمسان كانت محل أطماع الدول التي نـشأت في المغرب الأقصى، وعلى الخصوص في عهد الدولة المرينية، حيـث قـام سلاطينها بالهجوم على تلمسان[1] .

ولهذا لا نستغرب إذا كان السعديون قد فكروا في السيطرة على تلمسان بعد سقوط الدولة الوطاسية، والاستيلاء على فاس، بعد أن وجدوا معارضة من قبل رجال الفكر في المدينة، وقد أدى دخولهم فاس إلى مقتل مجموعة من علمائهم من بينهم العالم الجزائري عبد الواحد بن الشيخ أبي العباس الونشريسي[2]، الذي قتل عند خروجه من مسجد القرويين بعد انتهائه من إلقاء درسه، والسؤال الذي يطرح: ما هي دوافع الأزمة وانعكاسها على العلاقة بين الدولة الجزائرية والسعدية وحتى الزيانيين وحلفائهم.

1- الهجوم الأول قاده يوسف بن يعقوب المريني(695-1286،706-1307)، فحاصر تلمسان أكثر من ثمان سنين، انظر: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1 ص118-120، ابن خـلـدون عبد الرحمن، العبر، مجلد7 ص 196-441.

2- أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أحمد بن يحي الونشريسي قتل في آخـر955هـ،1548، لمزيد من المعلومات عنه، ابن عسكر، دوحة الناشر، ص52-54.

- العلاقــة بين الزيــانيين والسعــديين

لكن لماذا هذه العلاقة السيئة بين الدولتين اللتين قامتا على أساس محاربة القوة المسيحية المسيطرة على موانئ المغرب الإسلامي، فمن المفروض أن لايكون هناك تعارض بين الدولتين، بل على العكس، كان لابد أن يتحالفا معا لمواجهة البرتغاليين، والاسبانيين، الذين يحتلون مراكز استراتيجية هامة على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. إن سوء التفاهم بين الدولتين يرجع إلى ما يلي:

أ: إن رؤساء الدولة الجزائرية الحديثة كانوا يريدون ضمّ المغرب الأقصى بدعوة توحيد المغرب الإسلامي لمواجهة القوة المسيحية، فهم حماة الدولة الإسلامية، وقد عانوا الشيء الكثير من أمراء الدولة الزيانية، الذين أخروا حركة تحرير وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني، ولعل هذا التحالف مع القوة المسيحية سيعمد إليه السعديون، بعد قيام دولتهم، ولذلك فهم لا يسمحون لهم بتجاوز الدور الذي يمكنهم القيام به، بعد الاتفاق مع الدولة الجزائرية التي تمثل إحدى ولايات الخلافة الاسلامية، المسؤولة عن العالم الإسلامي.

وقد أشهر السعديون نسبهم الشريف[1] الذي يؤهلهم أكثر من غيرهم لقيادة العالم الإسلامي، أو قسم منه، وعلى الأقل المنطقة الشمالية للقارة الإفريقية الممتدة من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي والمغرب الإسلامي، الذي يدخل ضمن استراتيجية السعديين و قبلهم المرينيون.

1- قيل أنهم من بني سعد بن بكر بن هوزان الذين تنتمي إليهم حليمة السعدية و قيل أنما لقبهم العامة بالسعديين لأنهم سعدوا بدولتهم و قيل أنهم من ولد النفس الزاكية ، أنظر الافراني محمد ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، المطبعة الحجرية بفاس ، بدون تاريخ ، ص 14.

ب: الصراع بين الطرقية وعلى الخصوص بين القادرية والشاذلية، فقد لعب أتباع محمد بن يوسف الملياني دورا بارزا في نجاح عروج، وخير الدين ضد أمراء الدولة الزيانية وهو ما تؤكده النصوص التاريخية، التي أبرزت لنا دور الملياني وطلاّبه، وهم من أتباع الشيخ زروق [1] في مواجهة الأسبان، حيث كانوا يهيئون الناس نفسيا قبل المواجهة، وهم الذين اتّهموا الدولة الزيانية بأن سلطتها لا تختلف عن السلطة اليهودية.

كما يذكر النص أن محمد الخروبي [2] الذي كان من أتباع الطريقة الزروقية قام بدور مهم في ربط مملكة تلمسان بالدولة الجزائرية في الفترة الممتدة ما بين سنة1542/942 و1549/956.

ج: الصراع القبلي الذي عرفته المنطقة، إذ نجد بعض القبائل التي كانت معارضة لكل من الأسبان والزيانيين، قد ارتبطت بالقوة الجديدة المتمثلة في السعديين، ومن بين هؤلاء قبائل ترارة [3]، وأولاد علي، وأولاد طلحة، الذين توجد مضاربهم في أنجاد [4] وضواحي هنين، وندرومة ووجدة [5]، وبعض قبائل الناحية المتحالفة مع بني راشد الذين كانوا تحت قيادة المنصور ابن غانم،

1- هو أبو العباس أحمد بن عيسى البرفوصي الفاسي عرف بزروق ، توفي بمسراتة عام 899 هـ ، 1493م انظر ابن عسكر ، المصدر السابق ، ص 48-50.

2- أبو عبد الله محمد الخروبي السفاقسي : ورد على فاس مرتين، الأولى أيام السلطان أبي عبد الله الشريف 959هـ ، 1554م توفي سنة . 963 هـ ، 1555م ابن عسكر ، ص 126-127.

3-عن طرارة ، انظر: مرمول، المصدر السابق، ج2 ، ص:

4- الكاد أو أنجاد : منطقة متكونة من سهول تقع بين مدينة وجدة و نهر الملوية ، و يخترقها نهر إيسلي. ولمزيد من المعلومات عنها، انظر: الحسن الوزان،المصدر السابق، ص: ــ مرمول، المصدر السابق،ج2،ص: .

5- وجدة : تقع على بعد ثمانين كلم من تلمسان، كانت تابعة للدولة الزيانية.

والقبائل العربية، والبربرية، الذين كانوا من أنصار إمارة دبدوا، وهي من مخلّفات الدولة الوطاسية، ثار هؤلاء ضد القوة السعدية بعد انهزامهم في تلمسان.

وما يقال عن هذه القبائل ينطبق أيضا على أعيان تلمسان، حيث وجد من بينهم من كاتب محمد الشيخ، يطلب منه إنقاذهم من الأتراك في الجزائر.

- **الحملة السعـدية على تلمســـان:**

بعد سيطرة محمد الشيخ على فاس[1] بدأ في تحضير نفسه للمواجهة مع الدولة الجزائرية الحديثة، وقبل هذه المدة عمد الوطاسيون إلى إقامة مجموعة من التحالفات مع الحامية الإسبانية في مليلة والكونت الكوديتي في وهران، الذي كان يعمل من أجل القضاء على الدول الإسلامية في المغرب الإسلامي، وإقامة امبراطورية إسبانية تشمل كل المنطقة، وهو ما جعله يقوم بمراسلة الوطاسيين وحثهم على مواجهة القوة الجديدة المتمثلة في السعديين، التي ربما ستعمد إلى خلق تحالف مع الدولة الجزائرية[2]، مما سيجعل المصالح المسيحية أمام أخطار لايمكنها التخلص منها.

كما تعاون الوطاسيون مع أمراء الدولة الزيانية، وعلى الخصوص مولاي أحمد، الذي كان من أنصار الدولة الجزائرية، ثم تحالف مع القوة الإسبانية في وهران[3].

1- الاستيلاء على فاس سنة 956، 1549 : انظر، الأفراني، المصدر السابق، ص:116.

2- Lettre du comte d'Alcaudete a Maximilles et la Maxie d'Autriche وهران 26،4،1549، تناول فيها خطر تحالف القوى الإسلامية على اسبانيا.

3- Instruction du comte d' Alcaudete pour don Martin et pour Pedre de castra 3،7،1549.

وأن هذه التحالفات وتأثيرها في المستقبل في الدولة السعدية وطموح محمد الشيخ جعلته يندفع نحو تلمسان، التي كانت تتميز بشدة الانقلابات، فكان أمراؤها يتحالفون تارة مع الأتراك وتارة مع الإسبان حسب الظروف والمصالح، وقبل التحرك السعدي في اتجاه تلمسان تمكن الأتراك من تنصيب مولاي محمد بدلا من أخيه المدعم من قبل الإسبان، وأقاموا حامية عسكرية بالمدينة، وكان ذلك سنة 955هـ/1548، لكن تعيين مولاي محمد أدى بالكوديتي إلى دفع الموالين له إلى خلق مشاكل لمولاي محمد والحامية التركية بداخل المدينة، ويبدو أن محمد الشيخ كان على اطلاع بواسطة عيونه في تلمسان، وبعض أعيان المدينة الذين بدأوا يرغبون في ضمّ تلمسان للدولة السعدية.

تذكر بعض المصادر أن هناك اتصالات بين محمد الشيخ ومولاي أحمد الذي كان أميرا على تلمسان، وهو ما جعله يحاول اللجوء إلى فاس، وخرج فعلا من تلمسان متوجها إليها مع بعض الموالين له، ومن بينهم مزواره المنصور بن غانم، إلا أن أمير دبدوا[1] اعترضه وسلب ما كان معه ومع اتباعه من الأموال كما أسلفنا من قبل.

كما اتصل محمد الشيخ بأعيان تلمسان وعرضوا عليه تسليم مدينتهم له، ونستدل على ذلك من خلال الوثائق الاسبانية التي تمكنا الإطلاع عليها وعلى

1- رسالة مولاي احمد للملك الاسباني فيليب الثاني المؤرخة في 14،2،539 هـ ، 1546.
انظر أيضا: Elmaudden Abderrahmane، The charif and the podishah some remarks on marrocan ottoman relations in the 16 th century en hesaueris tamuda . Vol XXVIII fasc unique 1990 p. 7-1

الخصوص التقارير التي كانت ترسل من قبل الكوديتي، وقائد الحامية الإسبانية في مدينة مليلة.

ومن بين تلك الرسائل رسالة من الكوديتي[1] إلى ملك اسبانيا يذكر له بأن المزوار ومولاي محمد أبرما معاهدة مع أتراك الجزائر ولا تزال سائرة المفعول، وأن مولاي محمد والمنصور بن غانم وشريف مغرب يؤيدون التحالف ضد الإسبان، وأنهم يحضرون حملة على وهران، وطلب الكوديتي إرسال إمدادات له على وجه السرعة، وأقترح ألف جندي، في البداية وما بين ألفي وثلاثة في المرحلة الموالية.

ونلاحظ أيضا إلتحاق عدد من الأتراك بالمغرب الأقصى للدخول في خدمة محمد الشيخ والهدف من ورائها التخلص منه للخطر الذي أصبح يمثّله بالنسبة للإيالة الجزائرية بوجه خاص والخلافة العثمانية بوجه عام.

- الحملة عـــلى تلمســـان

المرحلة الأولى:

أما الحملة السعدية على تلمسان فيبدو من خلال الوثائق الإسبانية والمصادر المغربية[2] أنها مرت بمرحلتين وقبل القيام بها عمد محمد الشيخ إلى عقد تحالفات مع القوى المغربية المتمثلة في أمراء بني وطاس وهم مولاي عمار الذي كان حاكما لمدينة دبدو وأبو حسون[3] الوطاسي، وهدفه من وراء ذلك

1- انظر Lettre du comte d'alcaudette A maximilien et a Muree d'Autriche، Archive generale de simancas estada Legajo 474.

2- الافراني ، المصدر السابق ، مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم ، ورقة .

3- Lettre des aulad Ahmed ben yasin Abou hassen، archive G, de Simancas estada انظر Legajo 475.

ضمان الحماية لقوته في حالة انسحابها من تلمسان أو ايصال إمدادات لها في حالة اشتداد الحصار عليها من قبل الدولة الجزائرية.

كان تحرك القوة السعدية من فاس1549 وكان أتباعها في تلمسان على علم بتحرك هذه القوة لوجود قوافل كانت تربط بين المدينتين، وبعد فترة قليلة تبين لهم أن القوة غيرت اتجاهها نحو المراكز البرتغالية في شمال المغرب الأقصى [1] في اتجاه مدينة أصيلا التي قررت السلطة البرتغالية التخلي عنها، ولكي لا يستولي عليها أبو حسون الوطاسي لا بد من تجنيد القوة السعدية للسيطرة عليها واتخاذها منطلقا واستعادة مدينة طنجة التي كانت هي الأخرى محتلة وهو ما جعل مشروع السيطرة على تلمسان يتأخر.

- المرحلة الثـــانية957هـــ/1550 م.

أما الحملة الفعلية على تلمسان فتحدد المصادر تاريخها بأنها كانت في957هـــ مايو1550م، وكان الجيش السعدي يتشكل من فرسان ومشاة بلغ عددهم ما بين سبعة آلاف وثمانية الاف، تولى القيادة أبناء محمد الشيخ، وهم محمد الحران ومولاي عبد الله ومولاي عبد القادر، وفي شهر جوان دخل السعديون تلمسان بدون مقاومة، وأقاموا بها حامية سعدية تتشكل من ألف جندي.

ثم انسحب القائد السعدي مولاي الحران، لقمع الثورة التي قام بها عمه مولاي أحمد، في سجلماسة مغتنما فرصة توجه القوة السعدية لمدينة تلمسان، وعلى الخصوص قوة الحران الذي كان مقيما بالسوس.

1- لم يتمكن أمراء بني وطاس و على الخصوص أبي العباس الأعرج من مطاولة البرتغال حتى النهاية فظل هؤلاء يشكلون خطرا محققا على منطقة السوس وشمال المغرب الأقصى.

- موقف الدولــــة الجزائريـــة

وعندما علم حسن باشا بسيطرة السعديين على تلمسان جنّد قوة تضمّ أزيد من عشرة آلاف[1] حسب الرواية المغربية التي تقلل من القوة السعدية، وتضخّم القوة الجزائرية، لكن الوثائق الإسبانية تقدر العدد بخمسة آلاف جندي من بينهم الأندلسيون، وأهل الجزائر وبعض القبائل الموالية لهم، وعلى الخصوص قبيلة سويد العربية والقبائل الموالية للدولة الزيانية. وعندما علم محمد الشيخ بوصول هذه الامدادات أرسل قوة جديدة تتألف من حوالي عشرين ألف جنديا.

وبهذه القوة تحرك السعديون نحو شرق تلمسان من أجل السيطرة على مدينة مستغانم، التي أصبحت محلّ تنافس بين القوى المتصارعة، إلاّ أنّهم فشلوا في الوصول إليها، لكثرة الضربات التي تلقوها من قبل القبائل الموالية للدولة الجزائرية والزيانية، فانسحبوا إلى تلمسان في الوقت الذي كانت فيه القوة الجزائرية تتقدم من الجزائر في اتجاه تلمسان، بقيادة حسن قورصو 957هـ/1550.

وفي تقرير أرسل من وهران مؤرخ في26 أوت 1550، ذكر فيه الكوديتي أن حسن قورصو اجتمع في الشلف مع كل القوى التابعة للدولة الجزائرية، ومعه ثلاثون مدفعا، وقد اتّخذ طريقه نحو سهل سيرات، وهناك انضمت إليه قوة من بني راشد تحت قيادة المنصور بن غانم.[2]

1- الأفراني، المصدر السابق، ورقة 16. انظر أيضا Lettre de Miguel de perea a maximilien et a Marie d'autriche, Melila, 14-03-1550, arch. G. de Simancas estado Legajo 83. عبد الجليل التميمي، رواية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية المغربية في القرن16، المجلة التاريخية المغربية، ع 29-30 تونس 1983.

2- Ibid, de don Martin, don Phillippe Oran 14، 11، 1551 Ibid, don Martin, A. Maximillien et A. Marie d' Autriche, Oran 26، 8، 1550 . Archive G. de simancas estado Legajo 475.

وعندما علم محمد الشيخ بتحركات القوة الجزائرية أرسل تعليمات لابنائه يحثهم عن التخلي عن تلمسان قبل وصول القوة الجزائرية، لكن هذه القوة لم تتمكن من الانسحاب، فاصطدمت بالقوة الجزائرية، بالقرب من وادي بوغرون شرق تلمسان، فتحطمت القوة السعدية، و قتل الحران مع مجموعة من قادة الجيش، وعند الانسحاب من المعركة تمت عملية المطاردة، فأدت إلى هلاك نسبة كبيرة من الجيش، الذين تخلوا عن عتادهم ومؤونتهم، وبذلك حقق القائد التركي انتصارا كبيرا على القوة السعدية ودخل تلمسان منتصرا، ثم عاد إلى الجزائر بعد أن ترك بها ألفا وخمسمائة جندي لحمايتها.

نتائج هذه المواجهة تمثلت فيما يلي:

أ: أنها وضعت حدا لطموح محمد الشيخ الذي لم يعد يفكر في القيام بهجوم على تلمسان، لأنه واجه أكثر من تمرد ضد سلطته بعد الهزيمة التي لحقت بقوته، فقد ثار ضد ملك دبدو، وبادس الذين كانت لهما علاقات وطيدة مع شيوخ قبائل الجهة الشرقية المجاورة للدولة الجزائرية.

ب: أنها وضعت حدا لطموح هؤلاء السلاطين، ووضعت الحدود بين الجزائر والمغرب الأقصى، في المستقبل لأن تلك الحدود لم تتغير لحد الآن.

- الـــجيـــش:

الدارس للجيش في دول المغرب خلال العصور الوسطى يجد صعوبات كبيرة لقلة المصادر التي تؤرخ التاريخ العسكري ماعدا بعض الإشا[1] الخفيفة في بعض المصادر.

ولعل هذه المعضلة ترجعنا إلى كتاب أبي حمو موسى الثاني واسطة السلوك الذي تناول فيه الجيش الزياني في عصره الذي تميز بكثرة الحروب

ضد القوى الخارجية ،المتمثلة في الحفصيين والمرينيين وكذلك القبائل كمغرواة وبني توجين وبني عامر وسويد وحتى مع أقرب المقرّبين له وهو ابنه أبوتاشفين الثاني فبعض المعلومات الواردة في الكتاب هي[1] تجارب واقعية عاشها هذا السلطان مع سلبياتها وإيجابياتها وقد تركها لابنه ولمن يأتي بعده للاستفادة منها، إلا أنه يبدو لي أنّ ما ورد في الكتاب من نصائح لم يطبق في الميدان حتى من قبل أبي حمو موسى الثاني نفسه، ولو طبقت بعض تلك النصائح لما وصلت الدولة الزيانية إلى تلك الوضعية خلال فترة موضوع البحث.

أما فترة البحث فإنّ اعتمادنا كان منصباّ على الوثائق الإسبانية خاصة التقارير التي تناول فيها أصحابها بعض المعارك.

- عنـــاصر الجيـــش:

لعل أول سؤال يتبادر إلى ذهن الباحث ماهي العناصر التي يتشكل منها الجيش الزياني وقد أجاب على السؤال السلطان أبو حمو موسى الثاني بقوله (ينقسم الجيش إلى أربعة أقسام خاصتك وقبيلك وانصارك ومماليكك)

- **أولا الخاصة:** أي أقرب المقربين للأمير ويتشكلون من أخلص شيوخ القبائل وعشائرها للدولة، والدور المنوط بهؤلاء استشارتهم والتعرف على أسرار القبائل التي ينتمون إليها ويقومون أيضا بدور تجنيد أفرادها حين تتعرض الدولة لأخطار خارجية، ولكي تستمر موالتهم للدولة لابد من إنزال كل واحد منهم في منزلته وترتيبه على قدر ما يليق به، ولعل أول من سلك هذه الطريقة

1- أبو حمو موسى الزياني: وسطة السلوك مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم1374.

السلطان يغمراسن بن زيان عندما استقدم القبائل العربية واستغلّها في مواجهة أعدائه من المرنيين والحفصيين والقبائل الزيانية1.

أما في فترة موضوع البحث نجد ضعف الموالاة من طرف القبائل البربرية والعربية ولأنها استقلت عن الدولة واستولت على ما كانت في حاجة إليه من أراضي بفضل قواتها ولذا فهي ليست في حاجة إلى إقطاعيات من قبل أمراء بني زيان.

يضاف إلى ذلك أن المجتمع الزياني لم يكن متماسكا مثل ماكان عليه الحال في عصر قوة الدولة، فالقبائل التي كانت تموّل الدولة بالجند أصبحت تزود بـه أعداءها ومن الأمثلة على ذلك ماحدث لقبيلة بني عامر التي جندت قوتها لصالح أعداء بني زيان من الأسبان[2] وكذلك قبيلة سويد بزعامة شيخها حميد العبد حاكم تنس، لكن هذا لايمنع أنه في بعض الأحيان تتجند تلك القبائل وتتوحد لمواجهة القوى الخارجية مثل ماحدث خلال الهجومات الإسبانية على مستغانم ومزغران1547/1543[3] 1553

- **ثانيا:** قبيل الملك ،المقصود به قبيلة بني عبد الواد[4] وخاصة البطش الذي تنسب إليه الأسرة الحاكمة وحتى يمكن المحافظة على عصبية القبيلة وقوتها يجب أن لايوجّهه الأمير لغيره ولا يمنعهم من خيره ويختص منهم من يكون محبا ناصحا مخدوما وتقديم الأشياخ على المجموع:

1- ابن خلدون العبر مجا7 ص222-213 يحي بن خلدون بقية الرواد،ج 1، ص 39 .
2- الفصل الأول من هذه الرسالة ص 97.
3- الفصل الثاني من الباب الأول ص92 و ما بعدها.
4- ابن خلدون العبر ص 165

لكن من خلال دراستنا لهذه الدولة منذ تأسيسها إلى تاريخ سقوطها لاحظنا أن العصبية القبلية بدأت تضعف منذ تأسيسها نتيجة للصراع بين بطون القبيلة، مما أدى ببعضها إلى التحادف مع أعدائها والهجرة إلى الخارج (مضارب القبيلة).

وخلال فترة موضوع البحث زاد الضعف أكثر مما كان عليه من قبل نتيجة لموقف الأمراء من شيوخ القبيلة ،فتنصيب الأمراء لم يستشر فيه شيوخ بني عبد الوادي مثل ماكان عليه في العصر الذهبي للدولة كما أن الصراع المستمر بين أمراء الفترة الأخيرة من عمر الدولة الزيانية جعل بني عبد الوادي ينقسمون على أنفسهم، مما حال دون تجنيد أفرادهم لصالح الدولة فقل الجيش، لكن هذا لايمنع من استمرار وجود قادة ينسبون إلى بني عبد الوادي[1] هذا فيما يتعلق بالمتطوعين، أما الجيش النظامي فيتشكل مما يلي:

أولا: ويكون تواجدهم باستمرار إلى جانب الملك إلى الإقامة بعاصمة الدولة تلمسان وإما تنظيم هذه المجموعة فهو لا يختلف عن ما هو مألوف في الجيوش الإسلامية ميمنة وميسرة ومقدمه وسياقة بحيث تكون صورة الجيش مثل الطير يمثل الملك فيه القلب النابض.

الميمنة تتشكل من أشجع الجند وأقواهم لأنهم هم الذين سيصطدمون بقوة العدو في حالة الهجوم أوالدفاع.

والميسرة يكونون من مشاهير الفرسان وبما أن الجيش الزياني في العصر الذهبي كان الجزء الأكبر منه من قبيلة بني عبد الوادي[2] الزيانية وزناته تشتهر

1- أنظر رسالة المنصور بن غانم حاكم وهران الكونت دون الكوديني الموجودة بأرشيف سيمتكاس مجموعة الشؤون العسكرية الملف رقم 6 ورقة 37

2- أبو حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 44.

بالفروسية، وأن قائد هذه الفرقة لابد أن تتوفر فيه شروط منها أن يكون عالما بأساليب الحرب، قد مارسها المرة بعد المرة.

وأما المسافة فهم الذين يتصلون بالأمير مباشرة لذا يجب أن يكونوا من الحماة، يبدو لي أن الدولة الزيانية قد حافظت على هذا التنظيم حتى نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي لأن القوة التي واجهتها خلال تلك المدة، أسلحتها لا تختلف عن أماكن لدى بني زيان إلاّ أنه خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وقع تطور كبير في تنظيم الجيش والأسلحة المستعملة التي لم يواكبها التطور بالنسبة لبني زيان وبقية بلدان المغرب الإسلامي والأمثلة على ذلك كثيرة منها ، أنّ القوة الإسبانية المحتلة للمرسي الكبير والتي لا يزيد عددهاعن الستة آلاف جندي استطاعت أن تواجه قوة زيانية تتشكل من عشرين ألف جندي قدمت لاستعادة المرسى الكبير ومنعتها من التقدم إلى أسوار المدنية باستعمالها المدفعية المرابطة بحصون المدنية[1]. وحتى الوثائق الإسبانية تشير لشجاعة جند بني زيان بل التفوق يرجع بالدرجة الأولى إلى نوع السلاح، لهذا نلاحظ أن قوة بني زيان في بعض الأحيان لجأت لما يعرف بحرب العصابات وأحسن مثال على ذلك أن الكونت الكوديتي عندما كان عائدا من تلمسان، اعترضته فرق من الجيش الزياني استعملوا في مواجهاتهم المباغتة[2] ثم الانتقال إلى الجبال الصعبة وإسقاط الحجارة على الجيش خلال اجتيازه المناطق الجبلية الصعبة.

1- أنظر الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة ص 28.

2- الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة ص 83.

وعندما كان يحصل على السلاح الذي يأتيه من الجزائر يكون النصر لصالحة مثل ماحدث في معركة تيفادا.1536 التي أسر فيها أكثر من ستمائة جندي إسباني زيادة على حلفائهم من بني عامر.

وأما القسم الرابع من أقسام الجيش فهو يتكون من العناصر الأجنبية وهم الأعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان ويكون قدر هؤلاء قدر الحماة والأنصار[1] والهدف من وراء ذلك خلق توازن بين عناصر الجند وعند خروج عنصر من العناصر ضد الأمير يمكن أن يشغل العناصر الأخرى في قيمته.

استعملت الدولة الزيانية العناصر الآنفة الذكر في عصرها الذهبي خاصة منذ عهد يغمراسن إلى نهاية السلطان أبي تاشفين الأول.

فالأعلاج هم العبيد القادمون من البلدان الأوروبية وقد سبق للدول الإسلامية استعمال هؤلاء الذين عرفوا بالصقالبة وخلال عهد السلطان أبوحموموسى الأول تولىّ أحدهم وهو مفتاح قيادة الجيش الزياني وأن تواجدهم بكثرة يرجع في رأينا إلى ازدهار المبادلات التجارية بين بني زيان والدول الأوروبية وما يقال على هؤلاء ينطبق أيضا على الأفواج الذين قدموا من إفريقية بواسطة القوافل ،لأن تجارة العبيد عرفت مرحلة الإزدهار خلال العصر الذهبي للدولة. وأما الأغزاز فهم مهاجرون من أصل كردي قدموا من المشرق بعد سقوط بغداد تحت ضربات المغول سنة 655هـ/ استخدموا في جيوش دول المغرب الإسلامي ومنها الدولة الزيانية وخاصة في عهد السلطان أبي تاشفين الأول حيث تولىّ موسى الكردي قيادة الجيش وحقق انتصارات كبيرة لصالح بني زيان ثم نكبه ولعل ذلك أثرّ على هؤلاء.

1- الباب الأول: الفصل الثالث من الرسالة ص23

وأخيرا النصارى، بدأ استعمالهم منذ عهد يغمراسن بن زيان واستمر تواجدهم حتى هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية.

فرقة مماليك الملك، ضعفت هي الأخرى خلال فترة موضوع البحث بسبب العوامل التالية منها ضعف الحالة الاقتصادية لأن الوصفان والعلوج كانوا يشرون من أسواق العبيد فضعف التجارة الخارجية بسيطرة الأوروبيين على أسواق العبيد في إفريقية، وانعدام الأمن في الطرقات حال دون وصول الأعداد التي يحتاج إليها الجيش الزياني.

وما يقال عن الزنوج ينطبق على العبيد الأوروبيين، لأن أوضاع أوروبا خلال فترة موضوع البحث تغيرت كما كانت عليه في العصور الوسطى مما قلل من استغلال رجالها كعبيد.

كما كان للصراع بين أمراء بني زيان دور في التخلص من عنصر الأغزاز الديني لم يرد ذكره خلال النصف الأول من القرن10 هـ/16م.

أما التفرقة وخاصة من إسبانيا قلّ استعمالهم عما كان عليه في الماضي لعدم الثقة فيهم لأن أمراء بني زيان دخلوا في حرب مع الإسبان الذين يحتلون أراضيهم زيادة على ما سبق فإن تجنيدهم يحتاج إلى أموال أكثر مما كان يدفع لغيرهم من عناصر الجند.

- قيـــادة الجيـــش:

فيما يخص القيادة، يرمي السلطان أبوحموموسى الثاني أن يكونوا من أنجاد جندك صادقين في محبتك، وافين بوعودك ذوحزم وكفاية ومعرفة ودراية لايصلون إلى الرغبة بمضرّة بل يسدون الثغور ويصدّون العدو اللّدود،

ويحطّون البلاد ويمنعونها من كل باغ وعاد[1]. يستنتج من النص أن هناك شروطا في تولي قيادة الجيش الزياني إلاّ أنها لم تحترم في جميع المراحل التي مرّت بها الدولة الزيانية فالكفاءة إذا وجدت يكون التصدي لها من خلال المؤآمرات التي تحدث بداخل قصور بني زيان فقد تمت تصفية موسى الكردي بعد انتصاراته.

وعن علاقة الجيش بالرعية ،فالمصادر التي بين أيدينا تعرضت إلى عملية النهب والسلب التي عرفتها أرياف الدولة الزيانية. وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل لها علاقة بهذا الموضوع وخاصة في مرحلة انحطاط الدولة. أما فترة موضوع البحث فإن أهم مصدر تناول موضوع القيادة هي الوثائق الإسبانية ومن خلالها تستنتج بأن القائد العام للجيش هو المزوار الرجل الثاني في الدولة[2].

وخلال وفاة مولاي أبو عبد الله 1534[3] كان قائد حرس الأمير أحد أفراد الأسرة الزيانية أبو زيان إلى جانبه القائد على التركي يضاف اليهما مولاي مغنى وابن طرد من الأسرة الحاكمة.

كما ورد اسم قادة آخرين وهم ابن حدوش العبد الوادي وابن المـــلاح وأبـــو شيمة الملياني وابن هلال وابن عمور.

وتنظيماتها وهي المتمثلة في استعمال الجوسسة ضد العدو وفي هذا الصدد يقول: يجب أن يكون لك جواسيس في بلاد العدو يراقبون أفعاله وعيون تلاحظ

1- أبو حموموسى الزياني المصدر السابق ورقة 35

2- من أبرز العائلات الراشدية الذين تولوا هذا المنصب خلال فترة موضوع البحث آل غانم الراشدي ومن أبرزهم المنصور ابن غانم انظر الباب الأول الفصل الثالث من هذه الرسالة ص 82.

3- نفس الباب والفصل ص 83.

أعماله وتشاهد أحواله لإظهار قوته ليلا ونهارا يسألون عن أحوال العدو سرا وجهارا، فكلما زعم هذا العدو خداما وأظهر فيك أطماعا جاءت الجواسيس باخباره[1].

وظّف بنو زيان هذا السلاح في العصر الذهبي واستعملوا وسائل الجوسسة للحصول على معلومات تتعلق بقوة العدو وقد تعرضت المصادر إلى الموضوع إلاّ أنها لم تعطه ما يستحق، فقد ذكر أن السلطان أبا سعيد عثمان بـن يغمراسن أرسل جارية مخبرة إلى قصر السلطان المذكور وكلّفها بإيصال المعلومات عنه إليه، وبالفعل كانت تراسل أبو عثمان عن قوة بني مرين وعلى الخصوص ما يتعلق بخططهم المتمثلة في احتلال أراضي بني زيان.

أما فترة موضوع البحث فإن الدولة الزيانية قد تخلت عن استعمال الجوسسة عكس القوى المعادية لها وعلى الخصوص الأسبان الذين تمكنوا بفضل جواسيسهم المندسين في تلمسان وغيرها من المدن الدولة الزيانية للتعرف على نقاط الضعف، كما لعبوا دورا هاما في كثرة المؤامرات التي عرفتها بلاد بني زيان ومن بين العناصر التي جندتهم إسبانيا لصالحها أفراد من الجالية اليهودية وفي بعض الحالات بعض أنصار الملك، يضاف إلى هؤلاء أفراد من الأسرة الحاكمة وشيوخ القبائل الذين كانت سياستهم متذبذة في موالتها لأطراف الصراع.

وخلاصة القول أن المؤسسة العسكرية الزيانية عرفت هي الأخرى انحطاطا كان من أبرز العوامل التي حالت دون مواجهة القوى الخارجية التي تكالبت عليها الحصون.

1- حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 56 ب

عرفت الدولة الزيانية منذ تأسيسها حتى نهاية عصرها الذهبي إعطاء أهمية كبرى لتحصين مدنها وعلى الخصوص عاصمتها تلمسان وبناء حصون وقلاع بالقرب منها أوفي المناطق المجاورة للدولة المرينية والحفصية ،وقد تعرض السلطان أبوحموموسى الثاني إلى الموضوع فقال: وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا قد يشتمل على الماء والمختزن تجعل فيه ذخائرك وأموالك وأثاثك وأمتعتك وأثقالك يسكن فيه أجود أجنادك وحماتك وقوادك تشحنه بالرجال المرتجلة وأثر عداء من الرجال المخصصة وتسكن فيه أهل الصناعات وأرباب التجارات والبضاعات حتى لا يحتاج الحصن لغيرهم وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون فيه الانتفاع مثل التين والزيتون[1].

أما ما جاء في هذا النص ينطبق على الحصون والقلاع التي أسستها الدولة الزيانية، ومن بينها حصن تمزيز دكت بولاية بجاية حاليا. وقد توصل الأثريون في بجاية إلى تحديد موقعه ومساحته ووضعوا له مخططا، هـذا الحصن ساد في فترة زمنية قصيرة كان الغرض منه التضييق على مدينة بجاية، كان يحتوي أيضا على المؤونة التي تسمح للجند البقاء بداخله فترة زمنية طويلة.

خلال فترة موضوع البحث لم تتعرض المصادر إلى قلاع أو حصون شيّدت من قبل أمراء بني زيان في هذه المرحلة من حياة الدولة بل كل ما ذكر انهم شاركوا في بناء حصن الأسبان في كل من أرزيو وارشقول، وقلعة العناية

1- أبو حمو موسى الزياني واسطة السلوك ورقة 49 ب
خلال الملتقي الخاص بذكرى مرور ألفي سنة على تأسيس مدينة سطيف أطلعت على مخطط تمزيز دكب في المعرض المقام بهذه المناسبة وكان منعقان الملتقى في أواخر أفريل 1997 بمتحف سطيف.

بالقلاع والحصون وإعادة تحصين مدينة تلمسان كان عاملا من العوامل التي ساعدت القوى الخارجية في السيطرة على أراضي للدولة واحتلال عاصمتها مرارا، كما حدث من قبل عروج سنة1517 والكوديتي 1543 .

- الجـوسسـة:

يتعرض السلطان الزياني إلى نقطة حساسة في تاريخ الجيوش، هذا فيما يتعلق بالجيش، أما الأمن فإن الدولة الزيانية في عصرها الذهبي أعطت أهمية للشرطة وحدّدت لنا جوانب تدخلها وفي هذا الصدد يقول أبو حمو موسى الثاني:

«ويدخل عليك صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك ليخبرك بما تزايد في ليلتك ثم لا تخفى عليك شيئا من أحوال رعيتك وبلدك ومع ضبط مملكتك عن القليل والكثير والجليل والحقير».

فالذي يستفاد من النص أن بني زيان كانوا يملكون جهازا للأمن يتواجد بعاصمة الدولة الزيانية وبقية مدنها إلاّ أنه تعرض هوالأخر للضعف مما أدى إلى إنعدام الأمن بداخل المدن وبالأسواق والممالك التجارية خلال فترة موضوع البحث.

- الأجـور:

بنسبة لأجور الجند يقول السلطان أبو حمو موسى الثاني:

« ترتيب الجيش في العطاء يكون على قدر شجاعتهم واسبقيهم في الخدمة واصطناعهم ومحبتهم وانتقادهم واجتهادهم وهؤلاء أهل الطاعات والمجابي.

أما المماليك المنقطعين إليك المتطرفين في الخدمة بين يديك فإن جرايتهم في المرتب مشهور وأرزاقهم من بيت المال مباشرة جريا على توالي الشهور»

المصادر والمراجع

* **المخطوطات**

- التنسي: نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم444

- ابوسعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

- مؤلف مجهول: زهر البستان مخطوط بمانشتر ببريطانيا

- مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين مخطوط بالمكتبة الوطنية.

- المازوني: الذرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم1335/ 1336

- الياكوتي: تلخيص الاثار وعجائب المسالك والامصار مخطوط ومصور على ميكروا فيلم بمعهد المخطوطات القاهرة.

* **المصادر**

- ابن ادم ابوعبيد قاسم: الخراج تحقيق محمد شاكر الطبعة الثانية القاهرة 1384.

- ابن الابار ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي ت سنة658: كتاب الحلة السيراء ط1 تحقيق حسن مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة1963.

كتاب التكملة لكتاب الصلة تحقيق محمد بن ابي شنب والفريد بل المطبعة الشرقية الجزائر.

- ابن الاثير ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكــريم بــن عبــد الواحد الشيباني ت630: الكامل في التاريخ8 اجزاء نشر دار الكتاب العربــي بيروت1967/1387
- ابن بشكوال ابي القاسم خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة مراجعــة عــزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد1955/1374
- ابن بطوطة شمس الدين ابو عبد الله بن ابراهيم ت703: رحلة ابن بطوطــة دار صادر بيروت للطباعة والنشر بيروت1964/1384
- ابن حزم ابو محمد بن سعيد456: جمهــرة انــساب العــرب تــشر ليفــي بروفنسال القاهرة1948
- ابن حوقل ابو القاسم ابن حوقل النصيبي ت367: كتاب صورة الارض ط2 مطبعة بريل ليدن1938
- ابن خردادبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله في حدود300هــــ: المــسالك والممالك بريل ليدن1889
- ابن الخطيب لسان الدين بن عبد الله ت776: اعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب الــدار البيضاء 1964.

الاحاطة في اخبار غرناطة نشر محمد عنان رقم الحلــل فــي نظــم الــدول تونس1899/1316.

نفاضة الجراب تحقيق محمد العبادي بدون تاريخ

اللمحة البدرية في الدولة الناصرية القاهرة1947

معيار الاختبار في ذكر المعاهد والاثار الرسالة الثالثة من مشاهدة لسان الدين ابن الخطيب ببلاد المغرب جامعة الاسكندرية1958

- ابن خلدون عبد الرحمان ت808: العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم ومن عاصرهم من دوي السلطان الاكبر دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت1968

المقدمة دار الكتاب اللبناني1968

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تحقيق ابن تاويت القاهرة لجنة التاليف والنشر 1951

- ابن خلدون يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر الفريد بل مع ترجمة الى الفرنسية جزءان ج1904/1 والثاني في قسمين1913 وقد حقق الدكتور حاجيات الجزء الاول سنة1980

- ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ت681: وفيات الاعيان وانباء ابناء اهل الزمان تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت1971

- ابن ابي زرع ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي ت ق8هـ: الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

- ابن ابي دينار ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني ت 1681/1092: المؤنس في اخبار افريقية وتونس تحقيق محمد شمام طبع المكتبة العتيقة ط 3 تونس 1967 ونشر مطبعة النهضة تونس 1950

- ابن صاحب الصلاة المن بالامامة تحقيق ممد التازي الدار البيضاء

ابن ابي الضياف احمد ت1291/1874؛1875

اتحاف اهل الزمان باخبار تونس وعهد الامان ج 1 ط تونس 1963

- ابن سعيد علي بن موسى المغربي: كتاب الجغرافيا ط2 تحقيق العربي اسماعيل ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982

- ابن الصغير حي في النصف الثاني من القرن الثالث الهيجري

تايخ ائمة الرستميين 1908
- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله ت 257: فتوح افريقية والانــدلس
تحقيق انيس الطباع مكتبة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 19
- ابن عذارى المراكشي ابو عبد الله محمد ت في القرن السابع الهيجري
البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب تحقيق ج ؛ س؛ كولان وليفي
- بروفنسال دا الثقافة بيروت1965/1384
ابن فرحون ابو الفداء ابراهيم علي بن محمد توفي1397/799
الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ط 1 دار السعادة القاهرة1329
- ابن قنفد القسنطيني: الفارسية في مباديء الدولة الحفصية
الوافيات نحقيق عادل نويهض.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الانــصاري ت711: لــسان العــرب
المحيط اعداد يوسف الخياط دار لسان العرب بيروت1970.
ابن مريم ابو عبد الله محمد بن احمد الشريف المليتي المديوني التلمساني
البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن ابي شنب الطبعــة
الثعالبية الجزائر 1908/1326.
- ابو الفداء عماد الدين بن اسماعيل بن محمد بن عمر ت732: تقويم البلــدان
تصحيح رينود ديسلان باريس1840
المختصر فيأخبار البشر جزءان المطبعة الحسينية القاهرة
- البغدادي ابن عبد المؤمن ت1438/839: مراصد الاطــلاع علــى اســماء
الاماكن والبقاع طبعة حديثة في 3 اجزاء

- البكري ابو عبد الله ت487: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنى بغداد ومطبعة الحكومة الجزائرية 1857

- التيجاني ابو محمد عبد الله بن محمد التيجاني كان حيا سنة 13/702 رحلة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958

- التنسي ابومحمد عبد الجليل التنسي: نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان حقق جزء منه محمود بو عياد 1977

التمبكتي ابو العباس احمد بابا بن احمد الصنهاجي السوداني 963 / 1555 نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو على هامش المذهب لابن فرحون ط 1 القاهرة 1329

- الدباغ ابو زيد عبد الرحمان الانصاري ت696: معالم الايمان في معرفة اهل القيروان ط2 اكمله وعلق عليه ابو الفضل القاسم بن عيسى بن يحيى التنوخي ت839 تحقيق محمد الاحمي ابو الانوار واخروون مكتبة الخانجي 1968

- الدرجيني ابو العباس احمد بن سعيد ت670: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة 1974/1394.

- الزركلي خير الدين: الاعلام 11 جزء ط 3 بيروت 196

الزاركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماضور تونس المكتبة العتيقة 1966

- الزهري: كتاب الجغرافيا نشر محمد الحاج صادق مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي دمشق 1967 ؛1968

- الضبي ت 459: بغية الملتمس في تاريخ اخبار الاندلس علمائها وامرائهـا وشعرائها ودوي النباة ومن دخل اليها واخرج منها ط مجريد1884.
- الشيرازي عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله الشافعي ت1193/589.
نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق ونشر باز العريني القاهرة1946.
- العمري ابن فضل الله ت1349/749: مسالك الابصار في ممالك الامصار نشر وتحقيق احمد زاكي القاهرة1924.
- العبدري ابو محمد عبد الله بن محمد العبذري القــرن8 : رحلـــة العبــذري المسماة بالرحلة المغربية تحقيق محمد الفا سي الرباط.

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول

الـــــفـــــصـــــل الثاني

الـــفـــصـــل الثالث

الفـــصـــل الرابع

Achevé d'imprimer sur les presses
de l'imprimerie HASNAOUI M.
09, Rue Med BOUCHAKOUR. Alger. - Tél. : 021 74 70 83
Juin 2009

هذا الكتاب

دراسة تارخية، سياسية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية..

تعد مرآة صادقة لأحوال الدولة الزيانية، التي تعتبر من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون..

وقد مرّت الدولة الزيانية بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا هو وأخوه يحى بن خلدون على أهم مراحل هذه الدولة.

منشورات الحضارة

ص.ب 04 بئرالتوتة -الجزائر

هاتف فاكس: 021.44.34.41

الإيداع القانوني 759-2009

ردمك 978-9961-767-67-2

صدرهذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة